رواية

آنطونيو صولير

موت الراقصات

20.7.2017

ترجمة: علي ابراهيم الأشقر



آنطونيو صولير

موت الراقصات

ترجمة : علي ابراهيم أشقر



موت الراقصات



المؤلف: آنطونيو صولير

Author: **Antonio Soler**

عنوان الكتاب: موت الراقصات

Title: **Las Bailarinas Muertas**

ترجمة: علي ابراهيم أشقر

Translator: **Ali Ashkar**

الناشر: دار المدى

P.C.: **Al-Mada**

الطبعة الأولى: 2016

First Edition: **2016**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

www.almada-group.com email: info@almada-group.com

+964 (0) 770 2799 999
+964 (0) 770 8080 800
+964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول

info@daralmada.com

+961 175 2616
+961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

al-madahouse@net.sy

ص.ب: 8272

+963 11 232 2276
+963 11 232 2275
+963 11 232 2289

حبّذا تلك الأعوام التعيسة جداً

كنّا فيها جدّ سعداء !

ألكسندر دوما

آنطونيو صولير

ولد في مالقا عام ١٩٥٦ – عمل في الصحافة وكتب مسلسلات للتلفاز. نال جوائز عدة عن قصصه: غرباء في الليل وعن رواياته: نموذج الهوى، وأبطال الجبهة – وموت الراقصات، وطريق الإنكليز.

المترجم

ولد في محافظة اللاذقية عام ١٩٤٢ - عمل في مجال الثقافة والإعلام. له ترجمات عديدة في الرواية والمسرح والقصّة والبحوث.

لقد تخيلت دائماً الراقصات ميتاتٍ على المسرح بالضوضاء ذاتها التي كان يسقط بها تاتين على الأرض. وفي ذهني كانت الراقصات يتهاوين بهذه الضوضاء المعدنّية واللّيّنة معاً للصفيّحات المعدنيّة المفلطحة وللجسد العاري، التي كان يحدثها تاتين، ولو لم يكن تاتين يضع صفيّحات لامعة، بل كان يثير عند سقوطه على الأرض، سحابة صغيرة من الغبار في معظم الأحيان، وكانت تُسمع تحت جسمه قضقضة الحصى والحجارة التي ربّما كانت تنغرز في هيكله. تلك كانت العقبة في أن يلعب حارس مرمى، وإن كانت توجد عقبات أخرى مماثلة، كتلقّيه ضربات بالكرة وسْط صدره أو فيما بين ساقيه، وفوق ذلك، كان هناك الضجر، واللحظات التي تكون فيها الكرة تطوف في جانب المرمى المقابل، فكان يتسلّى بتنظيف الأرض من الحجارة وتنظيم القائمتين إلى أن يبدأ الفريق الخصم هجوماً فيجبره مرّة أخرى على التمرّغ على الأرض، أو يقذفه بكرة على بطنه أو في وسط وجهه، لأنّ تاتين كان ذا كرامة كبيرة، فما كان يحيد عن مسار الكرة قطّ، وإن كنّا نحن – الدفاع – ندير ظهورنا أو نهرع إلى جانب آخر. ويزيد في الأمر سوءاً أنّ تاتين كان يضع نظّارة، وما كان يرضى برفعها إلاّ إذا كان كاستيّو يلعب مهاجماً ضمن الفريق

المقابل فتُلهب البثور والحبوب وجهه وتجعله في مزاجٍ رديء. حينئذٍ كان يطوي النظّارة بحرص كبير ويضعها في جيب معطفٍ أو وسْطَ بعض الكنزات التي كانت تقوم مقام القائمة الخشبيّة، فكانت عيناه تبدوان أنّهما قد ماعتا، وأنّ بؤبؤيه الأزرقين سوف ينسكبان في أيّة لحظة على وجهه كدمعتين ملوّنتين بلون السماء.

في الحقيقة، ما كان تاتين يضع صفيّحات لامعة، لكنّه كان يضع حدائد وسيوراً حول ساقيه، يضع سقالة من صفيح وجلد تصعد بدءاً من كعبيه وتضيع تحت بنطاله حتّى أعلى فخذيه. فقد كان مصاباً بشلل الأطفال. لذلك، لم نكن نغيّر حارس مرمانا كما كانت تفعل الفرق الأخرى، مهما يُسجَّلْ عليه من أهداف، ومهما يضجر من نزع الحصى وتنظيم المعاطف التي كانت تحلّ محلّ القائمتين. لذلك كانت تذكّرني ضوضاء هذه الحدائد وجسمه عند ارتطامه بالأرض إذا سقط من غير دفع ولا قفز، ممدّداً وجامداً كشجرة قُطعت حديثاً، أو كسارية، أو عمود هاتفٍ شقّته صاعقة للتّو، بذلك الصوت الذي كانت تحدثه الراقصات عند سقوطهن ميتات على خشبة المسرح، صوت لم أكن سمعته قطّ، لكنّني تخيّلته مئات المرّات وأنا أستمع إلى أبي وأمّي يتحدّثان عن الرسائل التي كان يرسلها أخي من برشلونة حيث ذهب كيما يصبح راقصاً وفنّاناً.

وقد ربط سرٌّ ذلك الصوت في ذاكرتي إلى الأبد صورة تاتين بتلك الصورة الأخرى الضبابيّة والمتخيّلة لصولداد روبي التي كان اسمها في الحقيقة صونصولِس آرانغورين، وكانت الراقصة الثالثة التي سقطت ميتة أو شبه ميتة في الواقع، على خشبات المسرح المصقولة

في ذلك الملهى الذي كان يعمل فيه أخي، والذي تصوّرته دائماً عابقاً به الدخان، وفيه ستائر ذات لون أحمر غامق كلون الدم إذا كفّ عن النزف من جرح وأخذ يشكّل على الأرض هلاماً حلواً ومخمليّاً. ولقد فكرت أحياناً أنْ ربما ليس الصوت وحده فقط ما ربط إلى الأبد قصّة تاتين بقصّة الراقصات، وإنما واقعة أنهما حدثتا في آن واحد. فقبل أن أقصد الشارع ذلك الوقت للعب فيه، وأرى وأسمع بعد ذلك تاتين يسقط على الأرض مرة تلو الأخرى، كنت أسمع في بيتي دائماً كلاماً عن الملهى الذي كان يعمل فيه أخي، وأرى أمّي تقرأ ببطء شديد الرسائل التي كان يرسلها من برشلونة، ثمّ لتعيد قراءتها من جديد وكأنها تريد إن تحُلَّ شِفرة رسالة سرّيّة في تلك الحروف الواضحة الفرحة التي كانت تبدو وأنها ترقص على الورق كما كان يرقص أخي على المسرح خليّ البال باسماً. وكنت أسمع أبي مرّة بعد أخرى يعلّق مع معاونه ومع التوتو وأصدقائه في حانة ٢١ أن الراقصات كنّ يقتلن كالبقّ في قاعة الاحتفالات التي كان استقرّ فيها أخي، وأن الناس كانوا يذهبون إلى هناك لا لرؤية سيقانهن ولا صدورهنّ، ولا لتأملّهنّ كيف يرقصن أيضاً وإنّما ليروا كيف تسقط الراقصات ميتات على المسرح، وبذلك يستطيعون أن يقارنوا أيّهن ماتت موتاً أفضل.

هذا ما كنت أفكر فيه أحياناً، كنت أفكر في أن ربْط هذه القصّة بتلك يعود إلى أنهما حدثتا في وقت واحد، مع ذلك كنت أقضي في ذلك الوقت أيضاً كلّ يوم سبع ساعات أو ثماني أمام دونيا كارمن، وأرى الموكوس ينخر بأنفه ألف مرّة في اليوم، أو مليون مرّة إن كان مصاباً بالبرد، فلم يخطر ببالي قطّ أن أربط بين دونيا كارمن ولا الموكوس،والرّاقصات الميتات. وأحسب أنه ما كان ليختلط في ذهني

أيضاً حارس المرمى المصاب بالشلل، بتلك النساء اللاتي كنّ يمتْن على بعدٍ يزيد على ألف كيلو متر، لو لم يكن يصرّ عند سقوطه أرضاً بالشكلِ الغامض الذي كانت تصرّ به،أو قيل لي أنها كانت تصرّ به، أو أني حلمت أنها كانت تصرّ به رفيقاتُ أخي وسْط الدخان والستائر التي لها لون دم شبه متخثّر. ولولا هذه الضوضاء لكنت ظللت أنظر إلى تاتين دائماً على أنه حارس مرمى أبديّ ذو مهارة معوقة،وربّما لَمَا اهتممت بتلك الطريقة برسائل أخي ولا بالقصص التي يقصّها فيها، ولكنت تركت الأشياء تتابع ذات المجرى الهادئ والمنسجم الذي كانت سارت به كرقص هادئ، منذ أشهر خلت لمّا باشر أخي سفره إلى برشلونة.

وما إن وصل أخي الذي كان يسمّى حينئذٍ رامون،إلى برشلونة، حتى نزل في نُزُل المصور روبيرا، بعد ذلك السِفر الذي كنت أتخيله طويلاً وليليّاً – طويلاً وكأنما قد شُدّت إلى بعضها البعض عشر ليالٍ ليلة إثر أخرى، كما تشد عربات قطار–، سفر ملآن بالأرصفة

الفارغة والمسافرين النعسانين والأضواء الغامضة. وكان النُزُل في الواقع، لامرأة روبيرا آنخلينس، واسمه نُزُل ريّوس – إسبانيا، وأن لم تكن امرأة روبيرا تدعى ريّوس ولا إسبانيا وإنما كورتِس إسبلا، آنخلينس كورتس إسبلا. كان نزلاً خاصاً بالفنانين، وكان يقطن فيه إضافة إلى بوبيدا الشّحاذ الذي ما كان يشحذ أية أداة، وإنما كان يقضي النُهر نائماً والليالي ناظراً إلى النجوم وكأنه مليونير، رفاقُ الملهى ذاته الذي تعاقد معه أخي. وكان فيه راقصات شتّى، بينهنّ هورتِينسيا رويث المسمّاة فنيّاً ليلي، وقد كانت أولى من مات على المسرح مدشّنة

بذلك هذا التقليد، وخادمٌ كان اسمه حقاً ألبارتَ الذي كان يبدو أصمّ أبكم، وبوّاقٌ كان يسمّيه كلّ من في الملهى وفي النزل ترومبيتا، وساحرٌ مقنّع بقناع صيني اسمه تشين لو كان مغنّي ثرثويلاتَ[1] مخفقاً، واسمه الحقيقي بونيّا. وكان بونيّا يتناول فطوره دائماً في غرفة المعيشة متزمّلاً بعباءة من حرير رُسم على ظهرها تنّين وما يزال يضع شاربه الصيني من آخر برنامج له، وإن يكن أُفسد وصار شبه معلّق إلى جانب من الفم بعد أن نام به آخر الليل والصباح كلّه.

وقد كان فطور الساحر تعسّفاً منه،هذا ما قاله أخي في رسالته الأولى. وهذا ما كان يراه رفاقه الآخرون في النُزل كلّهم،لأنّ ما كان يفعله الصيني المزيّف في الواقع هو استيقاظه بضع دقائق قبل استيقاظ الفنّانين والشحّاذ والخادم ليتّخذ مكاناً له على الطاولة الوحيدة التي تطلّ عليها الشمس، فيُرغم دونياآنخلينِس على قطع أعمالها السابقة على الطعام لتقدّم له القهوة والفطائر وزوجاً من قطع الحلوى، ويظلّ بعد التهام ذلك مقيلاً خمس عشرة أو عشرين دقيقة في دفء الشمس، وهو يغطّ شبه غطيط وقد تدلّى شاربه إلى هذا الجانب أو ذاك الجانب من الفم، إلى أن يبدأ زملاؤه في النزل والملهى بملء غرفة المعيشة،فتعيده حركة الأطباق ورائحة الطعام إلى الواقع ليجد أمامه طبقاً من السلطة أو حساء خضار كثيفاً يشرع الشرقيّ في التقامه بشكل نشيط وبطيء، لكنّه لا يلين، مبتسماً بسمة قصيرة لا يُعرف إن كان يخصّ بها جيرانه على المائدة أو الطعام ذاته.

١- ضرب من العمل الفني يتناوب فيه الغناء والإنشاد - المترجم

في الواقع، كان الغداء حلوى الفطور، أو الفطور مقبّلاً للغداء. وكان واضحاً في كلّ حال أن الصيني بونيّا ما كان يتنازل عن شروط الوجبات الثلاث التي كانت تقدّمها له في نهارها دونياآنخلينِس عند مجيئه نزل ريّوس – إسبانيا، وهذا بالضبط ما كان يثير نقد زملائه؛ كانوا ينقدونه على هذه الرغبة في التدقيق والتي ما كانت تأخذ بالحسبان – كما يبدو – سهر دونيا أنخلينس ولا خضوعها للتوقيت الفنّي للمستأجرين لديها، وهما أمران كانا يرغمانها على أن تعيش كشبح أبداً، سائرة دائماً على رؤوس أصابع قدميها كي لا تُطير النوم من جفون ذلك الفريق الطواف ليلاً، والذي يندرج فيه زوجها المصوّر روبيرا، لأنّ هذا كان مصوّر الملهى الرسميّ، وكان مختصاً بتصوير الفنّانين وهم يغنّون، ثم يختار بعد ذلك خير الصور لتُعلّق على الواجهة الزجاجية عند الباب، أو ليقوم بإعداد اللوحات التي يعلن فيها عن أنشطة الملهى وتعلق في أنحاء البَرَاليلو وفي برشلونة كلها، وإن يكن أمر الإعلانات يتمّ من حين لأخر، ومعظم الصور كان يلتقطها روبيرا للراقصات والفنّانات قبل العرض وبعده حينما كنّ يجلسن لتناول بعض الكؤوس وليثرثرن مع الزبن الذين كانوا يسوّون ياقات قمصانهم ويسرّحون شعورهم بأطراف أصابعهم ويطلبون أن يصورهم وأيديهم ملقاة على راقصة أو مبتسمين إلى جانب موسيقيّ وذلك حفاظاً بشكل ما على ذكرى تلك الليلة والتسلية، وذكرى الراقصات اللاتي كنّ أسكَرنهم.

وكان روبيرا على طريقته فنّاناً أيضاً. ولذلك، ولأنه فنّان ما كان يجد نفسه على سجيته إلا بالعمل في الملهى، إذ بينما يكون منهمكاً في العمل في حجرته ذات الأضواء الحمر، تستولي عليه سحابة من كآبة أو خوف غريب غير متوقع، فيدع صوره المظهّرة حديثاً والمتروكة

لتجفّ، أو حتى لو كانت ما تزال طافية في طشت التثبيت، وينزل درجات النزل مسرعاً ويتّجه إلى الملهى في أوقات كانت تُنزل فيها الكراسي عن الطاولات، فلا يُسمع من موسيقى أخرى أو همسٍ سوى غطيط الأنابيب البطيء والمخنوق أو صوت احتكاك الكراسي حينما توضع على الأرض بيد الوكيل المتعبة لكن القويّة أيضاً، وهناك يظل المصور من غير آلة التصوير معلقة بعنقه ناظراً إلى المسرح الفارغ وإلى شرائط الزينة كمن ينظر إلى امرأة نائمة يعشقها، مداعباً بنظرته الستائر ورسوم الجدران وحتّى بقع الرطوبة والتسلّخات التي كانت تجعلها إضاءة الليل غير مرئية.

وكان روبيرا يظلّ هنيهة بعد إلقاء تلك النظرة البطيئة مكلّماً شاردَ الذهن آنسلمو الوكيل أو راقصة ما تزال تلبس بدلة الخروج ومن غير مكياج فلا تبدو راقصة بعدُ، وبذلك يهدأ باله هدوءاً كاملاً، ويعود إلى النزل ليُخرج من حوض التثبيت الصور التي كان تركها غارقة فيه وليشرع في اغتساله البطيء الذي كان يختتمه كلّ ليلة إزاء المرآة في غرفة الاستقبال حيث كان المصور ينظر إلى نفسه نظرة جانبية بشكل لا يتغير ثمّ يقوم ببعض اللمسات التي كانت تشوّش غرّته قبل أن يسير إلى الملهى مع آلة التصوير المعلقة الآن، نعم، بحزام.

بغرّة المغامر الأنيقة تلك، غرّة رجل الأعمال، كان روبيرا يدخل قاعة الاحتفال حاملاً في داخله النار المقدّسة ذاتها التي كانت تدفع الفنّانين للظهور على المسرح. هو إن لم يكن يصفّق له احد، ولا يخصّه بصفيرٍ ما، وإن لم يكن شكله في الواقع، سوى شبح يتحرك في عتمة المدخل الضّبابية، فقد كان يسرّه أن يصل حينما يكون المحلّ

غاصاً بالدخان و الزبن، ولا وجود الآن لتسلّخات في أي جانب ولا يبقى أثر لضوضاء الأنابيب المريضة تلك التي كان يسمعها في بعض الأمسيات، استماع طبيب ينشغل بقصبتي مريض.

وقد دخل أخي الملهى أول مرّة برفقة روبيرا تحديداً، وكان المصوّر من قدّمه إلى دون موريثيو ثسبدِس، مالك المحل، الذي حيّا أخي باستفاضة وبكثير من علامات الوَدّ، وكأنما قد أتى زمن طويل لم يره فيه، وكان صحيحاً بشكل ما أنه لم يكن رأى أخي منذ مدّة طويلة، لأنه لم يكن قد رآه في حياته كلها، سوى إشارات إليه من خلال كارمونا ممثّله الذي تعاقد معه. واهتمّ دون موريثو بكثير من الحماس، بسفر رامون وتعبه، ورغبته هو في أن يبدأ العمل، ويسأله وهو يجفّف عرق جبهته شبه الصلعاء بمنديل، ماذا يريد أن يشرب، وينادي النادل، ويأمر روبيرا في الوقت ذاته ان يصوره مع أخي، ويأمر أخي أن يجلس إلى جانبه كي يصورهما روبيرا، وكان هو نفسه يجيب عن ذلك كلّه بابتسامة ودّية، قائلاً في كل خطوة:نعم، يا سيّد، نعم، نعم يا سيد، وقبل أن يرفع أخي إلى شفتيه الكوكتيل الذي طلبه للتو دون موريثيو ثسبدس،ها هو يقدّمه إلى زوجه، وقبل أن يستطيع أخي أن يميّز وجه السيدة آديلا ده ثسبدس من الملابس الجلدية التي كانت تلفها وكأن السيدة كانت أحد مقنعي خوان تِنوريو، ها هو يتّخذ وضعاً من أجل صورة جديدة على وشك أن يلتقطها المصور روبيرا للزوجين مع أخي بأمر من دون موريثيو:خذ لنا صورة يا روبيرا، ثمّ يربّت على كتف أخي قبل أن يتلاشى وهج الضوء الومضي قائلاً لروبيرا، أن يأخذه إلى مكان الحجرات ويقدمه إلى رفاقه، وأنه يريد في اليوم التالي نسخة، بل نسختين من الصور التي التقطها منذ قليل. نسختان من كل صورة.

لكن دون موريثيو ما كان يتذكّر في اليوم التالي الصور، ولا تكون له النرفزة ذاتها التي كان سببها حضور امرأته إلى الملهى. هو وإن لم يكفّ عن الذهاب من هذا الجانب إلى ذاك الجانب ولا عن رسم صلبان بمنديله الأبيض، فقد كان يسير دائماً مرافَقاً بالشمبانيا وبنساء جميلات راقصات وغير راقصات كنّ يطرن إلى جانبه كحمائم مذعورة إذا ظهرت أماليا مورينو، لابيّا مانوليتا، واتجهت للجلوس إلى جانب دون موريثيو الذي كان إذا حمل إليه روبيرا الصور المُوصى عليها بعد مدّة من الزمن، بعد أسابيع أو أشهر، ينظر إليها مستغرباً دائماً، من دون أن يعرف متى و لِمَ التقطت له تلك الصورة حتّى يصل به الشك إلى أنّ الشخص المصوَّر كان تقليداً له وليس هو ذاته، وباستثناء نادر، كان يكلّف المصوّر دائماً التكليف ذاته: وزِّعها، وزِّعها على الفتيان، وإلاّ فمن الأفضل أن تحتفظ بها أنت في أرشيفك، ياروبيرا، وكان روبيرا الذي يكون تفاوض مسبقاً بشأن الصور مع الأشخاص الذين يظهرون فيها، يعمل على إهداء الصور المذكورة إليهم أو يبيعها لهم حسبما يكون المصوَّر فيها من أهل الملهى أو أحد الزبائن.

وهكذا وصلت إلى ملكيّة أخي تلكما الصورتان اللتان كانتا بداية مجموعة طويلة جدّاً كان يتسلّى بها بعد مدّة من الزمن، بعد سنين كثيرة لّما خُتمت مغامرته في برشلونة،وصار لي من العمر ضعف عمره لّما ذهب إلى تلك المدينة، فيملأ ألبومات بتلك الوجوه الخفيّة والبعيدة التي ما كان يستطيع الزمن أن يبخرها من ذاكرته حيث ظلت عالقة وكأنّ روبيرا ملأ جمجمة أخي بذلك السائل المثبّت ثم طبعها هذا المثبِّت إلى الأبد في مجاري مخّه و منعطفاته.

لكنّ أول صورة أرسلها بالبريد أخي الذي كان مايزال يدعى رامون، لم تكن تلك التي تصورها مع السيد صاحب الملهى ما إن تعرّف إليه، ولا تلك التي التقطها روبيرا وهو مندسّ بين دون موريثيو ثسبدس وسيّدته التي ما كان يُرى منها سوى عينين جدُّ كبيرتين وسْط سحابة من الجلود ذات اللون الأبيض، وسوف أرى هذه الصور في وقت لاحق لمّا جلب أخي في إحدى العطل إلى البيت علبتين من علب الأحذية مملوءتين بالصور المختلطة ببعضها؛ لكنّ الصورة الأولى التي أرسلها أخي حينئذ، كانت صورةً يظهر فيها وسْط فريق من الراقصات، وكان ناحلاً جداً فيها ويلبس كنزة غامقة اللون ما كنت أعرفه بها، وكان شعره بشكل مختلف ومكوّماً فوق جبهته في غرّة كبيرة جدّاً وكأنما طلعت له كتلة كبيرة من الشعر لا يعرف ماذا يصنع بها إلاّ أن يسرّحها إلى فوق ويسيطر عليها بالماء أو بأيّ شيء كان يبلّل به رأسه. وكانت فيما حوله، حول نحول أخي وتلك العرقيّة الضخمة من الشعر، أربع راقصات، اثنتان منهما تعتمران قبّعتين تبرز منهما ريشات تبدو في بياض الصورة وسوادها ذوات لون رمادي فاتح، والأخريان ذاتا جمّتين لامعتين إحداهما شقراء مجعّدة ومموّجة، والأخرى ذات شعر مرسل غامق لا يُعرف إن كان أسمر أو ربما أحمر محروقاً، وكلّهنّ باسمات وكأنهن جدّ مسرورات لكونهن مع أخي، وإن كنّ لم يرينه في حياتهن كلّها حتى أيام سابقات، وما كانت الراقصات يرتدين سوى حاملات أثداء مفضّضة مطرّزة بصفيّحات معدنية لها بريق حلو جداً، وكذلك كانت تبدو حلوةً جداً أثداؤهن الناعمة التي كانت تكاد تفرّ من تلك الأحواض المفضّضة. لئن لم تكن الأثداء تتحرك في الصورة فقد كانت تثير انطباعاً أنها تحمل الرجرجة

ذاتها التي لقطع الحلوى في الطبق حين كنت أنقلها من المطبخ إلى غرفة الطعام، في تذبذب ثابت، وكقطع الحلوى كانت ملساء، وليس كتلك التي كانت تعملها أمي، وكان فيها دائماً أخاديد وفجوات وخثارة بيض، وإنما هي ملساء كقطع حلوى محلّ مندرين التي كانت تشتريها أمّي منه أحياناً، وقد رسم على علبها صورة صيني كان يشبه على الأغلب الصيني بونيا، أو تشين لو، ومثل هذا كان يلبس بزّة من حرير وقبعة سوداء، على الأرجح كان صيني نزُل ريوّس إسبانيا يعتمر مثلها أيضاً.

الحقيقة أنّ كلّ ما في الصورة كان عذوبة ونعومة، حتى ورقة الصورة كان لها عذوبة ولمعان لم أره في ورق تصوير آخر. كان ورقاً رقيقاً مطواعاً ذا رائحة نادرة، لا يُعرف إن كانت رائحة القطار الذي جاءت فيه الرسالة، أو رائحة عطر الراقصة، أو حوض التثبيت الذي كان يضع فيه روبيرا لكل راقصة عطورها. ولمّا رأى أبي وأمّي الصورة لم يعلّقا بشيء على الرائحة ولا على عذوبة التصوير أيضاً، حتى و لا على مُشتبك الشعر المسرّح بعناية والمرفوع فوق جبهة أخي، إلاّ أن أمّي بدا عليها الحزن وقالت أن رامون بدا نحيلاً جداً، ولمّا علّق أبي بشيء على الراقصات قالت أنّ ذلك كلّه شغل مكياج، ولئن لم يقل أبي شيئاً بدا أنه لم يقتنع جداً بحكم أمّي، وظلّ مدى هنيهة ينظر باسماً إلى الصورة من غير أن يُعرف إن كان يمعن النظر في نحول أخي وفي كتلة شعره أو في مكياج الراقصات المشكوك فيه، راقصات جدّ جميلات بحمّالات أثدائهن الفضية حتّى ما كان يجرؤ أحد على التفكير أنهن قد يمتن ذات يوم وسط المسرح. إذ لم تكن ماتت بعدُ أية راقصة حتى ذلك الوقت، (وسط العرض)

وإذ لم يكن يجري في بيتي أيّ حديث عن ذلك الوباء الذي كانت

تُنهي الراقصات بسببه رقصهن وهنّ في النزع الأخير أو ممدات على الأرض، وإذ أرى تاتين في مركزه الأبدي كحارس مرمى، فما كانت تحضرني بعدُ كلمات أمي قائلة: لنرَ إن كانت كارثة الملهى ستأخذ أخي أو إن كان رامون سيسقط أيضا ذات يوم مقتولاً بطلقة ناريّة أو بصاعقة على تلك الخشبة التي ربّما صارت زلقةً لكثرة الضرب والدم المراق كالذي تلقّته في الأزمنة الأخيرة. وإذا سمعت تاتين يسقط فما كنت أفكّر إلا بالركض إلى أحد جانبي الملعب مبتعداً عن منطقة الجزاء بانتظار أن ينهض من سقطته مغبّراً غاضباً فيلقي إليّ بالكرة، وأستطيع أنا بدوري أن أمررها إلى غيّه أو كاستيو أو أي لاعب آخر في خط الهجوم. وكنت أتفانى في عملي خاصّةً إن كان اليوم أحداً أو سبتاً مساء ويكون اللعب في الملعب ٢١، أو في ملاعب أسوأ منها إزاء مدرسة الصمّ والبكم التي يأتي للعب فيها فرق من غرانخا سوارث وناس ذوو سيقان ملأى بالشعر، يضربون الكرة كلّ لحظة مثل كاستيّو حينما تتمرّد عليه البثور وتلهب وجهه كله. وكان يبدو ناس سوارث أولئك، وأناس أحياء أخرى لم تكن أحياء إنما تختلط بالأرض العراء وبالأرباض الأخيرة أنّ قيح بثورهم يتوزّع على أنحاء جسمهم كلّه وعلى روحهم كلّها، وما كان يوجد شكل آخر للتخلص منها إلاّ بقوّة الرفس.

في ملاعب ٢١ كان الأمر أجدى لنا، فكل شيء فيها هادئ، وكانت المباريات أشبه بلعب منها بذلك الخوف، وذلك القلق من أن يفقد المرء وجهه بضربة كرة كان يُحسّ بها ما إن تُرى من بعيد مدرسة الصمّ والبكم، وميدان الأرض الموجود أمامها مملوء بفرق كانت تنتظر دورها جالسة على أطراف أرض الملعب، وأعضاؤها صامتون يصفقون من إحدى زاويتي

الفم بقوّة ذلك اللولب الذي كان يبدو أنّهم يضعونه تحت ألسنتهم. وما كانت توجد مشكلة لتاتين في ملاعب ٢١، لأن لاعبي الفريق الآخر، كانوا من كانوا، إذا رأوا حدائد حارس مرمانا وسيوره كانوا يقبلون دائماً أن يُنقصوا من ارتفاع عارضة مرمانا المُتخيّلة، بل كانوا يرضون أحياناً خلافاً لاعتراضات تاتين، أن ننقص خطوة أو خطوتين من طول مرمانا، أمّا في مدرسة الصمّ والبكم فما كانت توجد وسيلة نستطيع بها أن نقرّب شبراً واحداً الحجارة التي كانت تستعمل مكان القائمة، ولا أن ننقص سنتمتراً واحداً من ارتفاع العارضة المفترضة. وتكون المفاوضات شاقّة. ولئن كان أناس سوارث يعرفوننا من مرّات سابقات، فقد كانوا يظلّون ينظرون بهيئة شرّيرة إلى ساقي تاتين وكأننا قد اخترعنا لتوّنا مرض حارس مرمانا، وكأن هذا الأخير يحمل برغبة منه جريرة تلك العقبة من الجلد والمعدن.

لحسن حظّنا أننا كنّا نباشر هذه الجولات من حين لآخر فقط، وكأنّ واجباً غامضاً يشدّنا من غير أن يقول أحد شيئاً فنرى نفسنا فجأة والكرة تحت الذراع سائرين نحو مدرسة الصمّ والبكم. وما كان يجد أحد متعةً بتلك المباريّات، حتّى ولا كاستيّو الذي كان يبدو وسْط أولئك الناس غير ملحوظ مهما يجتهد ويقم بمهارات فرديّة، ويركل الكرة ركلات لا يمكن لها أن تنافس بأيّ شكل طلقات المدفعية التي كان يطلقها في كلّ لحظة لاعبو كرة غرانخا سوارث. وإذا كانت قلوبنا جميعاً تنقبض كلّما اقترب منّا أحد أولئك الأفـراد الذين كانوا يُحضرون إحضار حصان، ويلهثون كالجياد ويثيرون الحجارة والغبار في جريهم، فقد كان ذلك الخطر يبدو انّه يحفّز رغبات تاتين الانتحارية، فكان يصدر الأوامر كلّ الوقت معلناً لنا ببصيرة عالمٍ

روحاني من أين ستأتي الكرة في حين كان يحاول أن يقف في مسار تلك الطلقة الجلدية من غير اهتمام منه بأن تطير نظّارته أو يدمى أنفه، فيرفع ذراعيه باتجاه السماء ويسقط على أحد جانبيه كسارية شقتها صاعقة، وكشجرةٍ من غير أغصان ولا أوراق تخمّد الضربة.

وحينما كنّا نعود آخر المساء إلى شارعنا من غير أن ندري كم من الأهداف سجّلت علينا ومسرورين بخروجنا سالمين من ذلك اللقاء، وإن أثقل علينا همٌّ غريب يطوّق روحنا، فإني كنت أمعن النظر دائماً إلى تاتين. فقد كان بالغبار الذي يغطّيه والخدوش التي تملؤه شيئاً أشبه براية لنا أو علم مزّقته المعركة. وكنت أستمع في سكون الليل الأوّل إلى صرير ساقيه اللتين تكونان فقدتا في تلك الساعة الشحم الذي وضع عليهما في الصّباح، فكانتا تصرّان كباب موارب تهدهده الريح من جانب إلى آخر.

وكان ذلك الصرير تشييعاً ووداعاً، لأنه به كان ينتهي يوم الأحد. وما كان أعضاء ذلك الفريق المتباين الذي نشكله نحن أصدقاء- شارع أنطونيو خيمينيث رويث يجتمعون مرّة أخرى معظم الأحيان حتى السبت التالي مهما يظلّ كلّ منّا من جهته يركض وراء كرة محاولاً أن يقلّد كاستيّو في حركاته السريعة ومراوغاته. ذلك أن كلاّ منّا كان يذهب إلى مدرسة مختلفة. فتاتين سجّلته خالاته في مدرسة للخوارنة، ولا أدري إلى أيّة مدرسة كان يذهب الغيّه وكاستيو ولا دييغو مانويل. وكان مانوليتو تيخادا وبِبْيتو في مدرسة القلب الأقدس، وإن لم يكن بيبّتو يلعب الكرة، بل كان يدخّن دائماً في الزاوية أو محتبساً في المراحيض أو مندسّاً في شاحنة كويكورتو، متعلّماً السعال والبصاق

كالرجال بنَفس كنفس الحانة وسحابة من الدخان طافية دائماً فيما حوله. أمّا نونو وباريا الذي كان يلبس بنطالاً طويلاً دائماً وكان أبوه في ألمانيا، فكانا في مدرسة مرثيدس القريبة من غرانخا سوارث.

وكنّا الموكوس وأنا في مدرسة دونيا كارمن. وكان فيها أيضاً لويسيتو سانخوان الذي كان رفيقي في المقعد،وإن لم يكن له ميل إلى كرة القدم، وما كان يلعب إلاّ إذا غفلت لدونيا كارمن فنسيت أن تعاقبنا العقاب الدائم فنخرج دقائق محدودات إلى فناء الاستراحة. وما كان لويسيتو سانخوان يخلع معطفه، بل كان يجري وراء الكرة ويداه في جيبيه، ووجهه حالم. وكنت أراه أيّام ألآحاد يمرّ على ناصية شارعنا ممسكاً بيد أبويه لابساً معطفاً مختلفاً، معطفاً بلون الفانيليا، من تلك المعاطف التي يرتديها المرء للذهاب في زيارة أو للذهاب إلى طبيب سوى أنه لم يكن يذهب في زيارة ولا إلى الطبيب وإنما لشراء حلوى من محل خيخونا وليأكلها من ثمّ في البيت بعد خلع المعطف وإن يكن بالوجه الحالم ذاته حينما يلعب الكرة، ويكتب صحيفة ورقته، أو يمرّ في شارعنا أيام الآحاد.

وما كانت تفارقه هيئته شبه المنوّمة إذا كان يستمع إلى شرح بيتراكو الذي كان جاراً له، وكان في مدرسة دونيا كارمن وإن كان يُسمح له بالانصراف قبل ساعة، وبذلك كان يستطيع الذهاب إلى آكادمْيا آلمي. وكان بيتراكو دائماً في ذهاب إلى آلمي وإياب منها. وإذا لم يكن في ذهاب وإياب، أو طابعاً على الآلة الكاتبة في مدرسة آلمي فقد كان يتحدّث عن آلميْ وعن العزف الذي يعزفه في آلمي،وعن آلته الأوليفتّي، وعن آلات أوليفيتي كلها الموجودة في الأكاديميا، وكان

لويسيتوسانخوان يصغي إليه وكأنه لا يعرف عمّا يحدّثه، ولا يهمّه أن يعرف، وإنما هو دائماً على وشك أن يتثاءب أو ينكبّ على متن المقعد حتى لا يسمع المزيد من كلام بيتراكو عن آلمي، وحتى لا يكتب صفحات وظائفه، أو لا يضطر إلى الاستيقاظ حتى ساعة الانصراف أو بالحريّ، حتى الأحد القادم مساءً حينما يكون أبواه عادا من محل الحلويات، فيفتح عينيه، نعم، ليجد حلوى محل خيخونا، كما كان يجد الصيني تشين لو عند استيقاظه في نزل ريّوس - إسبانيا في برشلونة، على بعد ألف كيلو متر من هنا، طبقاً من حساء الخضار الذي يتفكّه به بعد الفطور.

كذلك كان معنا في مدرسة دونيا كارمن، كونتشي كانكا، وكان بيتراكو ودونيا كارمن والموكوس والناس كلّهم في المدرسة يعشقون كونتشي كانكا، فكانت تمرّر علينا كلّ صباح الكرّاسة مع صفحة الوظيفة المتقنة التي أدتّها كونتشي كانكا في اليوم السابق، وكانوا يخرجونها من نسق البنات ويرفعونها إلى منصّة كيما ترسم على السبّورة بطباشير ملوّن الرسم الذي يصوّر يوم السبت خلاصة الإنجيل. وإذْ كنا نراها تستعمل ذلك الطباشير الذي ما كان يمكن لشخص أن يلمسه لا المعلمات ولا أحد، سواها هي ودونيا كارمن، كنّا جميعاً نزداد حبّاً لكونتشي كانكا التي كانت فتاة شفّافة يُلاحظ عليها رسوم عروقها الزرق مشكّلة خطوطاً عبر عنقها ووجهها وساقيها وكأن جلدها كان حقيبة بلاستيكية شفافة، كان بلاستيكياً ناعماً جداً وكأنّه قرين البلاستيك أو جلد من البلاستيك. لكنّ بيتراكو كان يحبّها على كلّ حال. وفي أحلامه كان يرى نفسه ذاهباً إلى مدرسة آلمي مع كونتشي كانكا، فيعزف بأيد أربع على آلة أوليفيتّي سلّماً موسيقياً

جميلاً، ضارباً على المفاتيح مرفقاً لمرفق مع تلك الفتاة التّي كانت فخر المدرسة، والتي كانت تكتب صفحات وظائفها بالحبر كيلا تمحى أبداً، والتي كانت تبدو لي وللويسيتو سانخوان أيضاً نوعاً من حقيبة من الأنابيب من غير أنابيب، وإنما هي عنقود من عروق زرق سابحة كطحالب ضائعة في بلاستيك جلدها.

وكان يوجد ناس آخرون كثيرون أيضاً في مدرسة دونيا كارمن: سيبس، والميثكوا، ودومينْغث، وأورتيغوسا، ونونييث، والأخوان بارو، باثكث، والمونديلو، والمورسا وآخرون أصبحت في ضباب الذاكرة لا أرى وجوههم، ولا أتذكر أسماءهم. أمّا من لم يكن قطّ في مدرسة دونيا كارمن، فهو أخي. فأنا لا أتذكر أخي يلعب كرة القدم، ولا لعبة البنت والحصان والملك في ورق اللعب، ولا أتذكّره أيضاً متردّداً من هذا الجانب إلى ذاك الجانب حاملاً كتباً ولا محافظ. بل كانت أمور الفنّانين والذهاب إلى السينما الشيء الوحيد الذي كان يسرّ به حقاً. كان يذهب إلى السينما كما بيتراكو إلى الآلمي، وكان يتحدّث عن الأفلام حديث البيتراكو عن آلة أوليفيتي كل ساعة. لذلك راح إلى برشلونة، ولذلك كان يغنّي في ذلك الملهى ذي الستائر الحمر وسحب الدخان. وقد بدأ أخي الذي كان مايزال يسمى رامون، يطبّق منذ اليوم التالي لوصوله وبعد أن قدّمه دون موريثيو ثسبدس وأمر بالتقاط زوجين من الصور إلى جانبه، كلّ ماتعلمه في الاحتفالات ومهرجانات الأحياء، وكلّ الدروس التي كان تلقّاها في أكاديميتي دون براوليو وأثارانتا. لكنّ أخي رامون ما لبث أن دلق بقيء كبير على وجه خاص وسْط ذلك المسرح الذي أخذت الراقصات يمتن فيه كالبقّ، كلّ المعارف التي راكمها طيلة آلاف وآلاف الساعات التي

قضاها خلسة في بلوس أولترا وريالتو. ومودرنو، وغويّا، واتشيغاراي وفكتوريا والكايري والكابيتول، وآلبنيث، والدوق والأنثباي سينما، وألكاثار، والرويال والباسكواليني ودور السينما كلّها والأماكن التي خطر لها أن تعرض ولو على بعد مائة كيلو متر من بيتنا أيّ نوع من الأفلام لا سيّما إن ظهرت فيها ولو لثانية واحدة جينجر روجِرز أو هيدي لامار، أو أطلّتا في نهاية العرض لتقولا: طاب مساؤكم، ولا يهمّ إن لم ترقص هيدي لامار فيه قطّ. وكان أخي على استعداد لقطع الصحراء الكبرى مرّات عدّة، وأن يظلّ بلا طعام خلال ما يزيد عن عام، أو أن يصبح قاتلاً مثل أولئك الذين يخرجون إلى الشارع فيقتلون أوّل من يجدونه كيما يرى فيلماً مزدوجاً لجينيجِر روجيرز أو فيلما ترقص فيه هيدي لامار.

لحسن حظّ الناس جميعاً لم يمنع أحد قطّ أخي من مشاهدة أيّ فيلم لجينجِر روجيرز أو هيدي لامار، ولذلك صار في برشلونة نازلاً في نزل المصوّر روبيرا ومتعاقداً مع ملهى دون موريثيو ثسبدس بدلاً من أن يكون في السجن أو في مصحّ عقلي. ولقد قصّ على أمي في رسالة كيف كانت حفلته الأولى. إذ ظهر في جوقة لابساً بنطالاً أسود وقميصاً أعجوبة من غير أزرار، بل هو مشمور عند الخصر، وقبّعة مقلّمة مثنية فوق الرأس، ومن غير أن يُعلن عنه في المكروفون أو يذكر اسمه أو عمّا إن كان يوجد راقص جديد في العرض. بدأ حفلته الأولى مُغفل الاسم وكأنه جاسوس كان يرقص ليخفي كونه جاسوساً أو ليرقب من قريب جاسوساً آخر في الملهى. بذلك الملبس قدم أخي عرضه على المسرح وهو يدور ويطوف ويتراجع خطوات إلى الوراء مؤدّياً الأشياء التي يؤدّيها راقصون آخرون كانوا يلبسون مثل لبسه

وراقصات كنّ يلبسن بدلاً من البناطيل تنورات قصيرات جدّاً، وإن كنّ يرتدين القمصان والقبّعات ذاتها التي يلبسها ويعتمرها الرجال. وغنّى مع رفاقه لازمة أغنية يؤدّيها المغنّي المنفرد آرثورو ريّس الذي كان يسمّى في الحقيقة باسم آخر، إذ لم يكن أحد يسمّى في برشلونة باسمه أو على الأقل في ذلك الملهى.

لكن، على الرغم من الإغفال فقد كان أخي طبقاً لما يحكيه في رسالته طافحاً بالفرح لا لشيء إلاّ لواقعة أن يرى نفسه يدخل حجرات الفنّانين ويخرج منها، ويجري بكلّ سرعة خلف الستائر ويصطفّ في الظلمة مندسّاً بين راقصات وراقصين، ريثما تبدأ الموسيقى عزفها فيظهرون على المسرح وقد بهرتهم الأضواء والتصفيق. وقد هنأه دون موريثيو ثسبدس بعد ذلك الأداء الأوّل نصف السرّي، وهو يلوح بمنديله كجندي يريد أن يستسلم وربّت على كتفه ودعا روبيرا كيما يصوّر تلك اللحظة التي ستكون – كما يؤكد دون موريثيو – تاريخية بالنسبة للملهى. كذلك سعت إلى تهنئته لابيّا مانوليتا التي كانت عشيقة دون موريثيو ثسبدس، قد شاركت أيضاً في برنامج أخي، بقبعتها وقميصها المعقود فوق سرّتها وبعينين سوداوين جعلتهما هي أكبر وأكثر سواداً على أساس من الطلاء و المكياج. وكان اسمها الحقيقي أماليا مورينو، وكان كلّ من في الملهى وحتّى روبيرا نفسه يخشى تلكما العينين اللتين كانتا مغناطيسين قادرين على امتصاص قوّة وإرادة من كان ينظر إليهما، وكأنما تسكن داخلهما تلك الحوريّات التي أنهكت أوليس، أو تلك السّاحرات اللاتي كنّ يحوّلن البحارة إلى خنازير.

لكنّ أخي كان محصّناً من نظرات لابيّا مانوليتا الموحلة حتّى وصل

إلى عقد صداقة معها، ولا يُعرف إن كان ذلك بسبب مشاهدته أفلام أوليس والحوريات كلّها اللاتي خلقن في الدنيا، أو لأنّ تلك الستارة الجديدة من الشعر فوق رأسه كانت قادرة على إخماد قوّة ذلك المغناطيس. وإذا وجب على الفرقة أن ترقص أزواجاً فقد كان أخي في معظم الأحيان من يظهر على المسرح وهو يقود عشيقة دون موريثيو ممسكاً بيدها وكأنها أميرة من الأميرات من غير أن يهمّه النظر إلى عمق تلكما العينين، بينما يدور على إيقاع الموسيقى مطوّقاً خصر لابيا مانوليتا، أو ينحني فوقها حينما تنتهي الأغنية، ويبدو الراقصون أنهم صاروا تماثيل حتّى يخفّ التصفيق وينسحب الفنّانون من المسرح سائرين إلى الوراء منحنين، مطلقين القبلات في الهواء كيما يزداد التصفيق مرّة أخرى.

لكن أخي لم يكن يتصرف تصرّفاً حسناً مع عشيقة دون موريثيو فقط. فقد حظي باكراً جدّاً بتعاطف بقية الراقصين، وخاصّة الراقصات لا سيما هورتَينسيا رويث، أو ليلي التي كانت تسكن نزل ريّوس – إسبانيا أيضاً، والتي كانت شقراء ذات شعر مملوء بالتموجات والتذبذبات حسبما استطعت أن أرى في صورة التقطت لأخي معها قبل أن تسقط ميّتة على المسرح. كانت ذات عينين صافيتين جدّاً، وكانت كأنما أخي قد تصوّر مع راقصتين في آن واحد، لأن جسم لَيْلي التي كانت تلبس أيضاً بيكينيّاً من الحجارة الرّخيصة والماس المزيف، كان يشغل الصورة كلّها، ولو مُثِّلَ ثدياها بحلوى (الفلان) لكان على أمّي أن تستعمل قالباً طاسات حساء الخضار باللحم، وحتّى حلّة الحساء ذاتها، أو أن تفقر نفسها بشراء قطع (الفلان) من محل مندرين كيما تدمجها في قطعة واحدة، أو بالحريّ في قطعتين اثنتين. وكانت ليلي تضحك في الصورة

مسرورة بتلك السمنة وكأنّما تدغدغها اللآلئ والصفيحات اللامعة التي كانت تتدلّى من حاملة الثديين في كتلة بهية من الأغصان، حتّى السرّة حيث تتشابك في هيئة لم يستطع المصور روبيرا أن يظهرها إظهاراً كاملاً. أمّا اليد التي ترى في زاوية الصورة حاملةً كأساً فيها سائل غامق اللون وساعة ذات سير معدني، فقد كانت - كما قال لي أخي - يد آلبارث الخادم الذي كان يُسمّى حقاً آلبارث وكان رفيق أخي في النزل ولئن قال عنه كلّهم أنه أصمّ أبكم، فقد استطاع أخي أن يكلمه في أكثر من مناسبة حتى قال له أنه هو أيضاً معجب بجينجر روجيرز وإن يكن غريغوري بيك من كان يجعله مجنوناً. لأن آلبارث كان يهوى السير إلى الوراء. هذا ما قاله أخي، وإن لم يقل هو له ذلك حينئذ وإنّما بعد مدّة طويلة لمّا تحسنت معرفتها ببعضهما وظلا كلاهما في الملهى بعد أن انصرف الناس جميعاً وهما يشربان، وقت كان آنسلمو الوكيل قد أقفل حساب الصندوق وأطفأ الأضواء كلّها. لهذا السبب غادر آلبارث قريته أي بسبب السير إلى الوراء ولذلك كان صموتاً جداً وعابساً جدّاً دائماً ويصب الكؤوس للراقصات والزبن، وكأنه يصب لهم السمّ متّجهماً كجلّاد، وإن تكن الضحيّة هو ذاته في الواقع لأنّ حياته كانت نوعاً من عذاب أخرس ومن غير حوافز. وكان كلّ من في الملهى يعامله بالحسنى على الرغم من عبوسه،وما كان يهتمّ أحد إن كان يسير إلى الوراء أو الأمام أو إلى الجانبين، وإن يكن آلبارث لا يسير في الحقيقة إلى أيّة جهة. وكانت حياته حياة راهب كبّوتشي سوى أنه كان يصبّ الكونياك بدلاً من تقديم القربان. وبدلاً من أن يصلّي من أجل القديسين قبل أن يضطجع كان يظلّ هنيهة ينظر إلى بطاقة بريدية لغريغوري بيك، ويعهد بنفسه له وإن يكن من غير تصليب.

أمّا من كان يعامل ألبارث خير معاملة، فقد كانت دونيا آنخلينس، امرأة المصور روبيرا، التي كانت توقّت له في المطبخ مدّة غليان البيض المسلوق، الذي كانت تجعله كما يعجبه بالضبط، أي، لا طرياً ولا قاسياً. وإذا ما خطرت في رأس الخادم أية نزوة، كانت صاحبة النزل تلمحها فوراً وترضيها، حتى السير إلى الوراء كانت لمحته دونيا آنخلينس، لا لأنّها رأت صورة غريغوري بيك أكثر من مرّة تطوف حول منضدة ألبارث الليلية، أو أنها وجدتها بين الملاءات فقط، وإنّما لأن دونيا أنخلينس كانت عملت في قاعات الاحتفالات، وكانت امرأة ذات مقدرة كبيرة، وكان لها معرفة عميقة جدّاً بالأشياء والأشخاص وإن كان يبدو عليها أنها تكاد لا تنظر إليها.

وكان أخي يقول أن دونيا آنخيلينس انسحبت باكراً جداً من عالم الاستعراضات، لهذا السبب تحديداً، أي لأنها كانت تستطيع أن ترى كثيراً من الأشياء ولكثرة ما كانت تراه، كانت تخرج من الملهى كلّ ليلة ورأسها مضطرب تعاني الدوار. ولولا ذلك، ولولا القصّة المؤسفة التي كانت لها مع المحامي آلبرتو سانتوس كامبري، لظّلت دونيا آنخلينس تظهر على المسرح بحاملة ثديين مصغرة أو قمصان معقودة فوق السرّة ودلالة على ذلك كان روبيرا يلصق على جدران مخبره صوراً لدونيا آنخلينس، أولينا في الملهى، قبيل تخلّيها عن مهنتها الفنّية، كانت محلّ حسد كلّ الراقصات اللاتي مررن بنزل ريّوس – إسبانيا. لكنها، هي غيرت ذلك كلّه كيما تظلّ في البيت توقّت مدة سلق البيض لألبارث، وتقدّم الفطور للصينيّ بونيا، وتزرع في النزل انسجاماً لم يره أحد قطّ، على قول أخي في أيّما مكان آخر، إلاّ في فيلم «نساء صغيرات» فيلم كاترين هيبورن، وليس فيلم جون أليسون وإليزابيت تايلور الذي كان، حسب رامون أشدّ سوءاً.

وهكذا لم يكن لأخي تقريباً مشاكل يتصالح عليها مع أحد معجباً بمباشرته مهنته راقصاً ومساهماً في ذلك الانسجام الذي كان يسود بيت أنخلينس إسبلا كما في الفيلم القديم. وكان يظلّ أحياناً بعد الغداء في حجرة ليلي أو في حجرة ألمودينا فرناندث، التي كانت راقصة أيضاً، وهو ينظر إليهما تكويان بدلتي الرّقص، وتغرزان صفيحة لامعة محلولة، وهما تضحكان من موريثيوثسبدس، أو تسلخان جلد لا بيّا مانوليتا، أو يذهب إلى مخدع ترومبيتا. كان سرير الترومبيتا فوضى دائماً، كما يجب أن يكون سرير موسيقيّ، على قوله. وكان يستلقي كلّ الوقت فوق الملاءات والبوق في فمه متظاهراً بالعزف مارّاً بأصابعه على فتحات آلته الذهبية إلى الخلف وإلى الأمام من غير أن ينفخ بقوّة لاهياً بالقيام بهذا التمرين بينما كان أخي يحدّثه عن الاحتفالات التي غنّى فيها أو عن / ليل الروح / وشمشون ودليلة والشارع ٤٢ وثلاثة مصائر أو عن أيّ من الأفلام التي قامت بها جينجر روجيرز وهيدي لامار.

وكان أخي يسلك سلوكاً حسناً حتى مع الصينيّ بونيا، على الرغم من أن تشين لو لم يكن معجباً بجينجر روجيرز ولا بهيدي لامار، ولا بغريغوي بيك أيضاً. كان أخي يسير معه أحياناً من النزل حتى الملهى وهما يتحدثان عن حالة الطقس وعن حسن الحياة وسوئها في برشلونة، وهو ما كان تشين لو يسرّ بالكلام عنه، إلى جانب الثارثويلا التي كانت عشقه الأكبر. ولئن كان قليل الكلام عن الثارثويلا لأنه كان ينفعل حتى تطفر الدموع من عينيه، فقد كان أقلّ كلاماً عنها وهو سائر في طريقه إلى الملهى، لأن ذلك سيكون حينئذٍ إقراراً واضحاً بإخفاقه متذكراً استحالة أن يكرّس نفسه للغناء في الاحتفالات الليلية

الشعبية، أو أي شيء من تلك الأشياء التي كانت تثير حماسه. لكنّ أقلّ ما كان يحب الكلام عنه هو السّحر الذي كان يعرفه معرفةً جيدة، والحيل التي كان ينجزها على المسرح كلّ لحظة، حيل كانت تبدو أنْ ليس فيها من الحيلة شيء، وما كان أحد يستطيع أن يلحظها ويفسرها، بشكل كان أخي يكلّمه عن الحرارة أو البرد وهو ينظر بمؤّخر طرفه إلى الحقيبة الصغيرة التي كان يضع فيها بونيا قناعه وأدواته ومكياجه. وكان الساحر يجيبه من غير رغبة، وفخذه وركبته يحتكّان بتلك الحقيبة الصغيرة التي كان يضع فيها وجهه وقناعه الصينيّ، وكأنه يضع فيها حقاً عدّة شخص آخر يسمّى تشين لو وكان هو نفسه.

لكن، إن كان لأخي صديق في الأعوام التي عاشها في برشلونة فلم يكن بونيّا ولا ألبارث ولا ترومبيتا ولا بوبيدا، ولا آنسلمو الوكيل ولا الملاكم كيد باديّا ولا دون موريثيو ثسبدس أيضاً، ولا ممثله كارمونا ولا ذلك المغنّي المنفرد آرثورورِيّس، وإنّما كان المصوّر روبيرا. فمنذ اللحظة التي سلما على بعضهما في النزل، حدس أخي أنّ ذلك الرجل ذا الغرّة، غرّة المغامر، والقميص الأبيض سيكون صديقه ودليله في متاهة برشلونة. وما لم يكن في البداية غير هبّة حدس، فقد تأكّد ذلك ليلة حفلة أخي الافتتاحية، لا لأن المصوّر هُرع راكضاً لتهنئته كما فعل الآخرون، بل على العكس من ذلك كلّه ظلّ روبيرا في الخلف مستنداً إلى الحاجز وكأس بين أصابعه ناظراً إلى أخي وكأنّه كان بفكّر من أية زاوية سيلتقط له صورة. ولّما اخُتتمت عاصفة التهاني وظلّ أخي الذي كان مايزال يسمى رامون، وحتى لو كان يسمى اسماً آخر فما كان يهمّه لأنّ أحداً لم يذكر اسمه في أي ميكروفون،ظلّ وكأنّه طاف في العتمة مبتسماً بسمة دهشةٍ من غير أن يعرف بأي مكان يلوذ

وماذا يعمل، حينئذٍ حرّك روبيرا «الجنّ» الباقي في الكأس، وكأنما كان قهوة، عوضاً عن «الجنّ» عليه أن يحرّك السكر والتفل فيها قبل أن ينهيها، وبعد أن أفرغه بجرعةٍ واحدة اقترب من أخي وقاده ممسكاً بذراعه إلى طاولة منعزلة موجودة في الطريق إلى المنتفعات.

هذا هو مكانك. – قال لأخي مشيراً إلى وسط المسرح حيث لم يبقَ غير المكروفون المفضّض الذي أدّى آرتورورريّس إزاءه أغنيته التي رافقه فيها رامون وبقية الراقصين والراقصات، بقبعاتهم الملّوية و لازماتهم. هناك يجب أن تكون وسط المسرح، ويجب على الآخرين أن يدوروا حولك، وليس العكس. ضع ذلك في رأسك منذ هذه اللحظة.

وإذ ظلّ أخي من غير أن يدري بما يجيب والقبّعة الملويّة ما تزال على رأسه متشككاً فيما إن كان ذلك إطراء أو لوماً، قال له لمصوّر روبيرا أنّ أرثورورريّس صار مستنفداً، وأنه كشبح مغنٍّ، أو كطيف أصبح لا يغنّي ولا يجرؤ على أن يفتح فمه كيلا تُرى ثلم أسنانه وعري لثته، وأن لأخي حضوراً من الطراز الأول. وقال له مرّة أخرى أنّه عليه أن يضع ذلك في رأسه. وبينما كان يطلب بالإشارة من آلبارث كأساً أخرى من «الجنّ»، قال لأخي ألاّ يختبئ وسط الراقصين الآخرين كما فعل هذه الليلة، وأسدى إليه نصائح وأعطاه عناوين ملاهٍ أخرى، وأسماء راقصين ومغنّين عليه أن ينتبه لهم، ويتحدث إليهم في الليلة الوحيدة التي يمنحها دون موريثيو متعاقديه. ومرّة أخرى قال له انّه ينبغي له أن يضع ذلك في رأسه وإن تكن الفكرة الأولى التي عليه أن يضعها في رأسه ولا ينبغي لها أن تخرج منه قط هي أنّه إذا انتابه شكّ ما أو نوع من التعقيد واضطرّ إلى نصيحةٍ ما، فليطلبها من امرأته دونيا

أنخيلينس، لأنه، هو قال له كلّ ما كان يعرفه وكلّ ما ينبغي له أن يقول حول هذا الموضوع.

وبعد أن قال المصوّر روبيرا ذلك كلّه بشكلٍ جادّ جداً رفع بلمسة واحدة من أطراف أصابعه بمهارة تُذكِّر بسلطة الساحر تشين لو الغرّة التي كانت على وشك أن تتخرّب، وقال لأخي باسماً: لقد قمت بشيء حسن، حسن جدّاً وهام. ويمكن القول أنه في هذه اللحظة وُلدت صداقة كانت محلّ إعجاب ليس كلّ من في الملهى فحسب، وإنما البراليلو كلّه، وكان لها أن تدوم مدّة طويلة في قلبي هذين الرجلين حتى بعد زمن طويل من انقطاع أخي والمصوّر روبيرا عن رؤية بعضهما البعض، وعدم معرفة أيّ منهما ماذا حدث للآخر ولا في أي مكان من العا لم هو، أو إن كان صاحبه ما يزال في عداد الأحياء. هكذا كانت تلك الصداقة. وبدءاً من هذه الليلة، كان بالإمكان أن يُرى مئات المرّات المصوّر والرّاقص الذي كان أخي، يضحكان مع الزبن والراقصات ويشربان على الطاولة المنزوية ذاتها والموجودة في الطريق إلى المنتفعات ويتجوّلان فجراً على أرصفة الميناء، أو تشرق عليهما الشمس وهما وسْط الغجر يغنيان مع زمرة من الزبن في أخصاص الصومرّوسترو.

ولقد أرى المصوّر أخي جبالاً من المحافظ والألبومات فيها آلاف الصور للراقصين والمغنّين القدامى اللذين مرّوا بالملهى. وأراه أيضاً المحفظة الخضراء.التي كان فيها صور كلوديا كاردينالي، وصوفيا لورين وشارلتن هستن وفنّانون آخرون ذوو أهميّة كبرى كان روبيرا يسميهم عمالقة الشّاشة، وقد صوّرهم في زياراتهم للملهى حينما

كانوا يصوّرون أفلامهم قريباً من برشلونة أو يأتون إلى هذه المدينة لتلقّي الجوائز والتكريم، وكان أخي شبه منوّم مغناطيسيّاً وهو يرى تلك الصور وقد توقّف نبضه لمّا فكر أنّ بعضاً من هؤلاء العمالقة يمكن أن يدخل الملهى في أيّة ليلة، حتى إذا تحلّق الراقصون حول كاردينالي أو البطل بن حور يمكن له أن يجلس قربهما ويحدّثهما عن أفلامهما بينما يقوم روبيرا بتصويرهم معاً. و لم يجرؤ أخي خشية نوبة من التشنّجات أو الإغماء، أن يتخيّل أنّ ذلك سيحدث له مع أعظم العمالقة العملاقين الممثّلتين جينجر روجيرز وهيدي لامار.

لئن لم يأت أحد هذين العملاقين إلى الملهى، فقد أتيحت الفرصة لروبيرا بمرور الوقت أن يصوّر أخي إلى جانب فيرنا ليزي وبرت لانكستر أو فيتوري غوسمان الذين كانوا أيضاً من عمالقة الشّاشة، حتّى أن المصوّر عمل له ريبورتاجاً مصوّراً وهو يعانق آليدا فالي التي مرّت ببرشلونة، ولمّا رأت أخي تعلّقت به حتّى انقضى مالا أدري من زمن واضطرّت إلى الرحيل لتصوير فيلم في باريس، ومن هناك كانت ترسل إليه رسالة كلّ يوم خلال ما يزيد عن شهر حتّى جفّ الحبر عندها فتركت بسلام أخي الذي أصبح في تلك الأثناء، لا يسمّى باسم رامون لكنّه كان ما يزال ابن أبويّ وأخاً لي.وإلى جانب الصور مع آليدا فالّي التي عملت في فيلم \الرجل الثالث\ والتي يمكن عدّها من عمالقة الشاشة حسب روبيرا لا لشيء إلاّ لهذا العمل وحده. وإلى جانب الصور كلّها التي التقطها روبيرا لأخي على المسرح أو محاطاً بأصدقائه ورفاقه، أهدى إليه سلسلة من الصور الآنية المركّبة بحيلة، كانت ضرباً من أحاجيّ يحتفظ بها في محفظة سوداء ما كان يريها أحداً من الناس.

وكـان بالإمكان سماع ضحكات أخـي وروبـيرا من غرفة هورتنسياروريث، ومن غرفة آلمودينا فرناندث أو من غرفة الشحّاذ الليلي الذي لم يكن يسنّ شيئاً قطّ، وهما يعلقان على تلك الصور المملوءة بالحيل. وكانت الضحكات تنطلق من حجرة المصوّر وتنتشر في أرجاء النزل كلّها بنوع من الدغدغة التي كانت بعيدة عن تحطيم هدوء البيت أو إثارة أيّ نوع من الاحتجاج أو الحسد بل كانت بلسماً أو فيتاميناً مقوياً يصلح لإنعاش عزيمة الذين كانوا يقطنون هناك، خاصّة عزيمة دونيا آنخلينس التي من دونها ما كانت تلك الصداقة ممكنة،لأنها كانت بالنسبة لأخي نوعاً من عرابة ساحرة. هي وإن لم تكن توقّت له مدّة غليان البيض كما كانت تصنع مع ألبارث، فقد كانت في قرارة نفسها كأنما توقت له وإن لم يكن بالسّاعة أمام القدر، حتّى وإن لم تكن تقدّم له بيضاً، فقد كانت توقت كلّ لحظة كلّ ما يعود لأخي.

لكنّ ذلك الانسجام كلّه تحطّم وتبدّل إلى الأبد لمّا جاءت الملهى ذات ليلة من أرض خضراء وقرية بعيدة مغمورة باحثةً عن عمل صونصولس آرانغورين غومِث التي ستسمّى منذئذ، ومنذ أن واجهت عالم الاستعراض صولدادروبي. ذلك أنّ صولداد روبي أو صونصوليس أرانغورين كانت الانسجام بعينه. وكلّ ما يحيط بها كان ينحط ويفسد إذا قورن بها. إلى جانب تلك المرأة لتي كانت في الواقع كأنها امرأتان فيما إن كان يهيمن على شخصها الفلاّحة صونصوليس أو الراقصة صولداد، كلّ شيء كان نقصاً وكلّ شيء يصرّ ويبدو منجزاً انجازاً سيئاً وأعرج، أو فيه نقطة بشاعة أو فظاظة. كانت صولداد أو صونصولس أو الوسط الحسابي لتلكما المرأتين اللتين كلّ منهما بنظرة وحتى بوجه

مختلف نوعاً من ثقبٍ أسود من تلك الثقوب الموجودة وسط قبّة الفلك وتنتهي بابتلاع الحجارة والكواكب والسديم النجمي الطافي في السماء كلّها، وإن تكن تدور على بعد مليون سنة ضوئية من مدارها.

هكذا ظهرت صولداد روبي في الملهى مُطفئاً كهربائيّاً ونجماً أغرق في حزن الظلمات كلّ ما كان يحيط بها، وإن يكن من الثابت أنّ صولداد أرانغورين لا تملك كما لا تملك النجوم ذاتها الإرادة في إطفاء أيّ شيءٍ أو إظلامه، وإنما استغلال وقود تلك العضوية التي كانت تبثّ نوعاً من وهج معدني. كانت مثل كونتشي كانكا، لكن، بجلد امرأة ومن غير عروق ولا بلاستيك يلفّها. في الواقع، كانت صولداد روبي الصورة التي كانت تريد دونيا كارمن وكلّنا جميعاً أن تكون كونتشي كانكا عليها، لكن كونتشي كانكا، لم تكن في الحقيقة كذلك. ولو كانت صونصوليس أرانغورين في المدرسة، لما احتاجت إلى رسم الإنجيل بالطباشير الملوّن ولا إلى كتابة صفحات وظائفها بالحبر كيما يهتمّ بها الجميع ويحبّوها، وحتّى لو عاقبتها دونيا كارمن كما تعاقب لويسيتوسانخوان وتعاقبني،لكنّا أحببناها جميعاً حبّاً أبدياً. كلّنا جميعاً ما عدا بيتراكو، لأن ما كان يعجب بيتراكو في كونتشي كانكا، لم يكن كونتشي كانكا وإنما الجولات التي كان يُطاف بها بكونتشي كانكا في صفوف الآخرين وبالكلمات التي كانت تقولها المعلمات عن كونتشي كانكا وبالطباشير الملوّن الذي كانت تستعمله، لا سيما أنّ بيتراكو كان يحب أكثر ما يحبّ فيها التقدير الذي كانت تشعر به دونيا كارمن نحوها تقديراً كان المسكين بيتراكو يفكّر في أنّه قد ينتقل بشكلٍ منْ الأشكال من خلال الفتاة إلى شخصه.وبحبّه كونتشي كانكا كان بيتراكو يحبّ نفسه، ومن خلال تلك الفتاة شبه

الشفّافة وذات الجدائل الزائفة، كان بيتراكو يحبّ من غير أن يدري، أكادِمْيا آلمي، والطباعة التي يطبعها على الآلة أوليفتّي. وقد علم من أحب في برشلونة صولداد روبي وصونصولس أرانغورين، أنّ الحبّ لا علاقة له بالترائي في مرآة، لأنّهم ينسون في ضوء هذه المرأة ظلّهم ذاته وينسون أنفسهم وحياتهم، التي ربّما لم تكن حياة بعيداً عن تلك المخلوقة التي كان جُلّ ما تطمح إليه أن تتحوّل إلى راقصة، فأغرقت نصف حيّ البراليلو في الفوضى ذاتها التي تحدثها قنبلة ذرّية بسعير الذرّات مع الأبنية المتساقطة والناس الموتى.

أمّا كيني فلم تأتِ من أيّة قرية ولا إسبرا نثيتا أيضاً، لكن الأمر كان كأنّما استقلّتا ذات يوم فجأة حافلة من حيث لا يُعرف وجاءتا من بلدة بعيدة جدّاً وإننا لم نرهما قطّ حتّى هذه اللحظة لمّا اجتازتا ناصية دييغوده برغارا ودخلتا شارعنا. ولم يكن أيّ منّا، نحن – الجالسين – على درج بيتنا قادراً على التعرف من بعيد إلى تلكما الفتاتين لولا أنّ مانوليتو تيخادا ابن خالة كيني وأخ اسبرانثيتا كان يسير إلى جانبهما. وكان يبدو أنّ شعرهما كلتيهما قد نما تلك الليلة وإن لم يرفع في غرّة فاضحة، وإنما صار خلال النوم أكثر نعومة وحريريّاً وكأنّ جاريتين كاللاتي نراها في الأفلام عن الرومان، قد فركتاا جمّتيهما من غير توقّف خلال أيام عدّة لكن المعجزة الكبرى لم تكن في ذلكما الشعرين – شعر إسبرانثيتا بلون القمح الناضج وشعر كيني بلون نحاسيّ غامض –، ولا في ذلك الشكل من المِشية التي كانتا تمشيانها ولا في ذلك البريق المتجدد الذي كنا نراه في عينيهما كلّما اقتربتا منّا والذي كان يصير في حالة كيني شرارات من نار، وإنّما في انطباق كنزتيهما وفي النتوءات الفجائية التي كانت تضخّمهما في جانبهما الأمامي.

ولمّا وصلتا إزاءنا وتوقفتا أمامنا، لم نُوفّق جميعاً لا غيّة ولا الموكوس ولا أنا، حتى ولا كاستيّو على الرغم من ذلك الشعر نصف الحليق المطلّ من بين بثوره، إلى أن نقول شيئاً، ولا إلى أن نشيح بنظرنا عن ذلك التضخم الذي حدث فجأةً تحت كنزتي تلكما الفتاتين اللتين أصبحنا لا ندري إن كانتا فتاتين أو شيئاً ما. وقد استطاع تاتين وحده أن يتغلّب على ذلك التنويم المغناطيسيّ، ووَفِّق تاتين إلى أن يسأل الفتاتين وهو يضغط الكرة التي كنّا لعبنا بها لتونا عمّا إن كانتا تفكّران في الذهاب في اليوم التالي إلى السيرك. وتابع تاتين قائلاً بلهجة وصوت لم يسمعه أحد منه قطّ، أنّ أحدى خالاته أعطيت ثلاث بطاقات دعوة وأنه يستطيع أن يهديها إليهما. وأشحنا، كاستيّو والموكوس وغيّه وأنا ببصرنا عن كنزتي اسبرانثيتا وكيني لننظر إلى تاتين ونسمعه يتكلّم بهذا الشكل، الذي قد يكون شكل الكلام الذي كان يستعمله الخوارنة المريميّون في مدرسته، وهو الكلام المستعمل يقيناً في ملاهي برشلونة كلّها حينما يدعو الزبن الراقصات إلى كأس أو زجاجة شمبانيا وقد صاروا شبه مبهورين وخرساً وهم يرون اهتزاز قطع حلوى (الفلان) داخل حاملات الأثداء ذات الصفيّحات اللامعة، أو دوار سررهنّ وهي تدور تحت عقدة القمصان المشمورة.

لكنّ اقتراح الخوريّ، أو الرجل الذي اعتاد التعامل مع الفنّانين، لم تجب عنه أيّة راقصة، وإنما أجاب مانوليتو تيخادا الذي ظلّ خلافاً لأخته وبنت خالته، يبدو طفلةً ذات ذوائب متشابكة وسوداً تسقط فوق جبهته وكأنّ الجارية التي كان يجب أن تسرّحها قد أغفت، ثمّ أخذت فجأة وأُلقي بها طعاماً للأسود. لكن، نعم، قد أُتيح الوقت للجارية كيما تطلي بلون قرمزيّ شفتيه اللتين تزدادان احمراراً كلّ

يوم وتحاطان بزغب يزداد سواداً. وكان مانوليتو تيخادا أشعر كما بنت عمّي أوسو، سوى أنّ شعره كان أشدّ بريقاً. وقال مانوليتو تيخادا لتاتين مبتسماً بسمة تشبه، بتلك الأسنان والشفتين الحمراوين راية إسبانيا، أنّ أباه لا يسمح له ولا لأخته بالذهاب إلى السيرك، وأنّ خالة كيني أقل تسامحاً لأن خالتها تصيبها بالذعر الضواري التي إلى كونها وحشيّة، هي بؤرة عدوى وأمراض. واقتصرت كيني وإسبرانثيتا على الابتسام ابتسامة لم يكن فيها أية راية، وإنما موسيقى كمان أو بيانو تنطلق من مفاتيح أسنانهما النقيّة.

بهذا النوع من الفالس الطافي على ما حوله وبرفّة جفني مانوليتوتيخادا داروا دورة وشرعوا يتعدون في عمق الشارع في طريقهم إلى الدرج الصغير الذي يصعد إلى شارع أوخينيو غروس، وقد حملت إسبرانثيتا وبنت خالتها كيني الجمرة التي كانت تستعرُ داخل عيونهما والتي كنت اقتربت منهما بين لحظة وأخرى ويداي مبسوطتان لأدفئ القشعريرة التي كان العرق الجليدي يجعلها تصعد ظهري بموجات بطيئة وكأنّما يغزوني طحلب رطب كانت تلكما الفتاتان وحدهما قادرتين على إبعاده عني بجمرات عيونهما.

ولّما صعدوا الدرجات واختفوا عن بصرنا ظللنا صامتين للحظة ناظرين إلى ذلك الجانب من الشارع حتى قال الموكوس مفكّراً بصوتٍ عالٍ: مانوليتو لوطي. نعم، أجاب كاستيّو في حين كان غيّه يلوي رأسه من غير أن يخرج من انكفائه العام على نفسه، وكان تاتين ينفخ من غير رغبة، وأنا كنت أهزّ كتفي لدعم حكم غيّهِ الذي تبعه صمت آخر أقصر حطّمه تاتين بسؤالنا إن كنا سنذهب.

وسرنا كما خطّطنا من قبل ظهور كيني وإسبرائيتا نحو ملاعب ٢١، لا لنلعب كرة القدم، وإنّما للفرجة على الأقفاص وحيوانات السيرك الذي أقيم الليلة الفائتة وسْط الميدان. لكن، كان يبدو علينا أننا ذاهبون إلى مدرسة الصمّ والبكم لنلعب مباراة لساعتين مع ناس غرانخا سوارث، بدلاً من الذهاب لرؤية الأسود والفيلة أو ما جلبه السيرك. وكانت محاور ساقي تاتين تصرّ وكأننا كنّا في نهاية يوم الأحد بدلاً من كوننا في يوم السبت صباحا، فقد استهلك الزيت المشحّم في حدائده. و أخذنا ننظر إلى الحيوانات بهدوء كبير عوضاً من أن نجري منفعلين من عربة كبيرة إلى أخرى. وكان الموكوس وحده يضحك مقهقهاً وهو يرى القِردة تدور في أقفاصها ثم تُخرج أيديها من بين القضبان كمتسوّلين ملحفين لا بيت لهم ولا مكان يسقطون فيه موتى وهذا ما كان يقوله عمّي غوتيّيرث إذا تكلّم عن أحد أنه لا يمكن أن يحصل له شيء أسوأ من ذلك. وكأن الموت ليس إسوأ من وجود مكان يموت فيه المرء.

وقد ملأتني تلك العربات كلها مع حيواناتها الذاهبة من هذا الجانب إلى ذاك من القفص في سير دائم، لكن في المكان ذاته، والناس الذين كانوا يحملون هناك دلاء وقوائم خشبية ذات شرائط ملوّنة، واللوحات التي تعلن عن بينيتوديل أورو، وعن رجل قذيفة في جولته الثالثة حول العالم، ذلك كله ملأني بالحزن، وكأن بينيتو ديل أورو قد سقطت للتّو من أعلى أرجوحتها، والأسود تعوي داخل معدتي وقد تحوّلت إلى ضباع. وأخذ خطّ سير ذلك الطحلب الجليدي الذي بدأ صعوداً في ظهري منذ لحظة سابقة،يغوص في داخلي، فامتلأ صدري وقلبي بالرشح وبقع الماء. وبعد أن طرد أحد الرجال الموكوس خمس

مرّات من داخل الحاجز الذي كان تسلّقه صديقي مرّة بعد أخرى كيما يلمس أيدي القردة وأقدامها، وتعب الغيّه من رميه بالحجارة أولئك المتسوّلين الذين عليهم من الشعر كما على بنت عمّي أوسو،شعرتُ بالفرج لمّا سلكنا بإيعاز من كاستيّو طريق العودة وتركنا وراءنا تلك المتاهة من العربات والحبال والحواجز المعدنية التي كانت تفوح برائحة الزبل واللحم النيئ.

بتلك الرّائحة التي تغلغلت إلى أعلى سقف حنكي، وجدت نفسي في غرفة المعيشة في بيتي أحرّك طعاماً كانت تطفو فيه قطع من اللحم وجزر من البطاطا صفر كانت تطلق منها حوريّات غير منظورة أناشيد كتلك التي كانت تصيب في فيلم كيرك دوغلاس، بحّارة أوليس بالجنون، كان ذلك كأنما لابيّا مانوليتا عشيقة دون موريثيوثسبدس تجلس على إحدى قطع البطاطا وهي تمتصّ طاقتي كلّها بمغناطيس عينيها، الذي يزداد سواداً. فلا تهديدات أمي ولا ضحكة أختي، حتّى ولا بطاقات دخول السيرك التي أخرجها أبي بشكلٍ مفاجئ من جيب سترته، استطاعت أن تجعلني أبتلع أكثر من ملعقتيْن من ذلك الطعام اللزج الذي طالما عُنيت أمّي بطبخه، والذي كان له مظهر رصيف بحري إغريقي، أو بالحريّ، مستنقع ما قبل تاريخي.وبينما كنت أسمع توبيخ أمّي وأفتقد سدادات الشمع التي كان يضعها البحارة في آذانهم، اتجهت عيناي إلى الصورة التي أرسلها أخي حديثاً من برشلونة، تلك التي كان مُحاطاً فيها بأربع راقصات ووضعتها أمّي فوق صوان الخزفيات محاطة بالفناجين والأطباق المزيّنة برسوم التنّينات وبصينّيين كانوا على الأغلب، يشبهون الصينيّ المزيف تشين لو. وإذ كنت أنظر إلى صورة أخي تلك، رحت أفكّر في أنّ أكثر

ما يعجبني في الدنيا تلك اللحظة، ربما كان أن أذهب معه إلى برشلونة وأرقص في الملهى أو أظلّ مضطجعاً في نزل ريّوس – إسبانيا، ولا يهمّني أن ينَبت لِي شعر كذلك الذي تكدّس فوق جبهة رامون، ولا أن أكون أكثر نحولاً من أخي وكأني درويش صوفي إن كان ذلك لازماً.

وبشكل ما كنت أحدس، على قصور أفكاري، أنّ حياتي ستضطرب وتتزعزع بتغيّرات أعلنتْ عنها هذا الصباح وكأنها تحمل ميكروفونات، أعين إسبرانثيتا وبنتِ خالتها كيني وشعرهما وكنزتاهما. وكنت أفكّر أنّي بهربي إلى برشلونة واختبائي وسط الدخان وستائر الملهى الذي يعمل فيه رامون قد أستطيع تجنّب يد القدر وأجد ملاذاً يحفظني من ذبذباته. ذلك أني كنت ما أزال أجهل حينئذٍ أنّ هذا ما كان يبحث عنه أخي لمّا سار إلى برشلونة من غير أن يدري هو نفسه ذلك، يبحث عن ملاذٍ وحماية ناس كان يُحسّون بأنفسهم مطرودين مثله مما لا أدري من فردوس، ويريدون أن يتجنّبوا بأيّ ثمن برودة قسوة الحياة. وهذا ما كان يصنعه ترومبيتا وهو مستلقٍ على سريره المنتقض، سرير موسيقي، وكذلك بونيّا المختبئ تحت قناع صيني أو روبيرا نفسه المندسّ في حجرة التصوير تلك محاطاً بمحافظَ ملأى بصور ومناظر لا يأتي عليها نهارٌ قطّ، ولا يتغير فيها شيء.

كنت في هذه المخاوف والغثيان حتّى اقتنعت أمّي أنّي لن أغمس ملعقتي مرّة أخرى في بركة طعامها ما قبل الطوفان، وقبلت اقتراحي أن أستبدل بالطعام لحظةً من الراحة إلى جانب أبي الذي أخذ يحدثني قبل أن أنام عن بينيتو ديل أورو وعن البهلوانيين والضواري التي سنذهب لرؤيتها في اليوم التالي. ولولا خوفي من أنّي ما إن أفتح فمي

حتى تفرّ ملعقتنا الطعام بقيء عنيف وصاخب كانفجار بركان، لكنت حاولت أن أقنع أبي أنه يجب ألّا نذهب إلى السيرك الذي هو بؤرة عدوى وعشّ أمراض غير مرئيّة يمكن أن تنتقل سريعاً من أسد أو من فهد إلى شخص، وتجعله ميتاً، كموته إذا سقطت على رأسه قنبلة ذرّية ولا يهمّ ألا تجعل الميكروباتُ المرء مِزقاً، أخيراً كموت أولئك الناس الذين يموتون كما مات العمّ بيكتور يانو، على أسرّتهم في بيوتهم، ويظلّون مطبقي العيون من غير أن يبدو عليهم أنه حدث لهم شيء، مسرّحي الشعور خيراً مما لو كانوا أحياء، خيراً من أولئك الناس في اليابان الذين سقطت عليهم من السماء ذات صباح قنبلة ذريّة فراحت كلّ ذراع وكلّ ساقٍ إلى زاويةٍ في شوارعهم، وإن لم يبق في النهاية شارع ولا زاوية ولا شيء، سوى فوّهة من أربعة كيلو مترات مملوءة بالحطام وشظايا الأثاث والكلاب اليابانية الميتة كموت أصحابها.

وكان الشارع كأنما سقطت عليه قنبلة ذرّية لمّا سمحت لي أمي في نهاية تلك الراحة القسرية بالخروج: لكنّ أمر القنبلة الذريّة زعم. لأن الشارع لم يتغيّر فيه شيء وكان له المظهر الدائم ذاته، حتى إذا كان فارغاً فإن جدران البيوت ومخزن كويّكورتو وسياج المؤسسة الكسيح على الرغم من ارتفاعه، كانت تبدو صلبة متضخّمة بصمتٍ يكون ملآن دائماً في هذه الساعة بثقوب ويشقّه الصراخ الذي يطلقهُ الغيّه، ونونو وكاستيّو وباريا وخاصة الموكوس، وهم يجرون وراء الكرة. وشرعت أسير وسط الشارع وكأنني أعمى، أو شخص من اولئك الأشخاص الذين يسيرون في صحراء الأفلام متعثّرين، حتى أنّي لمّا وصلت شاحنة كويّكورتو وسمعتُ ضوضاء تخرج من داخلها، بدا أن شاحنة الآبيا تتحرّك أحشاؤها، أو أن أصوات شبح سائقها القديم تنطلق من أنبوب الدخان.

اتّجهت إلى الجانب الخلفيّ من الشاحنة، ورحت أشرئب إلى الباب الخلفي، وبقمّة رأسي رفعت الغطاء. وبدا أني أدخلت رأسي فجأة في صورة من صور أخي وأني ابتلعت الدخان الطافي في الملهى كلّه، وقد انتقلت السحابة التي كنت أتخيلها دائماً داخل قاعة الاحتفالات، إلى شاحنة كويّكورتو إلّا أنه أُبدل بالستائر المخملية هناك القماش الكتّاني الخشن والأخضر الذي كان يستخدم غطاء، وحلّ محلّ الزبن والفنانين تاتين والموكوس وباريا والغيّه وديغو مانويل وبِبْيتو الذي كان هو وحده يدّخن عوضاً عن زبن الملهى كلّهم والبراليلو كلّه. واستطعت أن أميّز وسْط العتمة والضباب الكثيف الوجوه كلّها لمّا التفتت نحوي.

وسرت كأعمى حقيقي لأجلس في القاع وأنا أطأ الحمّص والشعْرية الحرّة التي تبعثرت على خشب الشاحنة. وبينما كنت أجد لنفسي فجوة بين أصدقائي، أشعل ببيتو بهدوء كبير سيجارة جديدة واستأنف حديثه بالهمس الذي بدا لي من خارج الشاحنة نفخة شيطان. واستطعت أن أتخيّل قبل أن أسمع كلمة واحدة ممّا كان يتكلّم به ما إن رأيت كيف كان الأخرون ويصغون إليه. وكان ببيتو يحكي وسْط ذلك الجوّ الذي ضمّ إلى رائحة التبغ رائحة البذور والحبوب ورائحة الأكياس ذاتها التي تُنقل كلّ يوم في الشاحنة، يحكي أمر هذه الميكروبات وكيف أن النساء يستلقين على الأسرّة ويضع الرجال داخلهن دويّبات وذلك شبيه ببول المرء فوق امرأة أو في الثقب الذي للنساء بين سيقانهن سوى أن هذا البول بهذه الطريقة التي تسمى نـ..... يبعث على اللذة. وبذلك صَورنا جميعاً بالبول لعاباً ملآن بالدويّبات نـ....، ثم كانت أثداء النساء التي تصبح مدوّرة حينما تمتلئ بالحليب الذي يرضعه الأطفال، هذه الميكروبات التي تصير

أطفالاً في معَد النساء. وهذا ما حدث لإسبرانثيتا ولبنت خالتها وإن لم يكن واضحاً وضوحاً كاملاً أنهما قد أعدّتا كيما يستطيع أحد أن يضع داخلهما دويّبات، أو إن كان أحد ما قد جامعهما. ثم إن هناك الدم الذي يخرج أوّل مرّة من النساء اللاتي يأتي أحدهم فيضع فيهن تلك الميكروبات، والألم الذي يسببه للرجال، وما لا أدري كم من الأشياء الأخرى، وإن أصبح لا يهتمّ بها أحد منّا. إذ على الرغم من أن ببيتو ظلّ يتكلّم ويطلق تخمينات حول إسبرانثيتا وبنت خالتها كيني، كان كلّ منّا يجترّ تفكيره حول الألم والدم أو حول الميكروبات.

وقاطع باريا الذي كان ينظر إلى الأرض، ليس إلى أرض الشاحنة، وإنّما إلى الأرض الحقيقية من خلال ثقب في ألواح الشاحنة ويتخيل أباه كما كان كلّ منا يتخيّل أباه وهو يملأ باللعاب والبول أمّه، قاطع ببيتو ليسأله إن كان الرجال يحملون هذه الدويّبات والميكروبات في دمائهم. فنظر ببيتو إلى ما بين ساقيه وقال جادّا جداً في البداية، ثم باسماً بعد أن أشعل سيجارة جديدة وبصق على الأرض من خلال الثقب:

في بيوضهم.

البول في البيض. – أجابه باريا هادئاً متوقّعاً من بِبيتو جواباً أكثر إقناعاً، وإن كرّر هذا الأخير مرّة أخرى.

هي في البيض، والبول في المثانة.

ونظر باريا مرة أخرى من خلال ثقب الألواح الخشبيّة، وإن كان

يبدو أنه ينظر إلى أبعد من ذلك كثيراً، وكأنّ في الأرض الحقيقية ثقباً آخر، ثم ثقباً آخر وهكذا حتى يخترق الأرض كلّها. وأوضح بالمزاج السابق ذاته أن للنساء مثانة، وهنّ يحملن البيض داخل بطونهن ويسمينه مثانة، وأن البيض هو مثانة الرجال. وإذ كنا نرغب أن يستسلم بِبْيتو ويعترف أن هذه القذارة كلّها شيء قد لفّقه، أو هي حكاية سمعها ها هنا، فقد ظللنا معلّقين بجوابه الذي كان يبدو أنه ضاع وسْط تلك السحابة من الدخان التي كانت تحيط بوجهه ورأسه كاملاً، إلاّ لمّا ظهرت ملامح وجه ببيتو مرّة أخرى من الضباب، فقذف ناقفاً بإصبعيه عقب السيجارة إلى الأرض من خلال الثقب وأجاب باريا باسماً مرة أخرى:

اسأل أباك.

نهض حينئذٍ باريا منحنياً كيلا يصطدم رأسه بعارضة السقف، وأخذ يصرخ ويقول أن أباه في ألمانيا وأن أمّه لم يبل عليها لا أبوه ولا أحد من الناس، وأنه سوف يركل ببيتو على وجهه ولسوف يخلع أسنانه. وتحرّك إلى الخلف وكأنه على وشك أن يركل رأس ببيتو حقاً كما يفعل حينما يؤدّي ضربةً ركنية،لكن ببيتو ما كان يتزحزح وظلّ يتسم كقاطع طريق. ما كان يتزحزح لأنه كان واثقاً من أن كلّ ما يحكيه، حقيقي، كما كنا جميعاً في قرارة أنفسنا احتى باريا ذاته مهما يرفع صوته ويُقسم.

وإذا لوحظ أن باريا لن يكفّ عن الصراخ، ولن يجرؤ أبداً على ركل رأس ببيتو، مهما يسحب رأس حذائه على الشعرية والحمّص

الذي تناثر على أرض الشاحنة، انكمش تاتين على نفسه كيما يستطيع النهوض. وكانت الحركة إشارة كيما نبدأ الحركة والسير في الشاحنة حتى الباب الخلفي، ما عدا بيبتو الذي ظلّ جالسًا هناك في القاع وهو يرانا نخرج مبتسماً بسمة قاطع طريق ربح جولته مع الشرطة، ومع سيجارة جديدة بين شفتيه. وكنت أوّل النازلين وقد أصبت بالدوار لكثرة الدخان وذكرى الطعام الذي لم آكله وبسبب الميكروبات والدم، التي كان تحدّث عنها بيبتو، لكنّي، بدلاً من أن أبقى متردداً بين نعم ولا لألعب مباراة، شرعت أسير نحو بيتي من غير أن أقول شيئاً لأحد أو أجيب عن نداءات الموكوس. وسمعت خلفي خبطة حدائد تاتين لمّا سقط على الأرض والصراخ الذي ظلّ باريا يطلقه، وكأنها ضوضاء وأصوات رنّت منذ زمن بعيد. لقد سمعتها كما أسمعها الآن وكأنني أتذكّرها عوضاً عن سماعها.

على الأغلب انقضت سنون كثيرة في لحظة واحدة، ولو التفتّ برأسي إلى الوراء لَمَا رأيت الموكوس ولا تاتين ولا الشاحنة آبيا التي قد تكون تفككت في مكبّ الحدائد في البيّخرا، أو في أي مكبّ آخر، وقد تأكسدت حدائدها وصار صندوقها ملآن بالثقوب ومن غير أثر للشعرية ولا للحمّص. ذلك ربما أني ضعتُ في متاهة الزمن التي تشبه زهرة بيضاء ذات تويجيّات حلزونية تكاد تحتكّ كل دائرة منها بأخرى. ولا أدري ماذا حدث لي ولا من أيّة عائلة كان ذلك الطحلب الذي تشابك في ظهري وفي قلبي. حتّى أني لا أعرف إن كان طحلباً أو لبلاباً تلك النبتةُ التي نشأت فيّ وراحت تنمو مالئة كل شيء بالظلام، وكانت تسقي نفسها بنفسها بنوع من الوكف أو بُقيعة ماء كنت أحملها في تجاويف جسمي.

ولمّا ذهبت في اليوم التالي إلى السيرك مع أبي صار ما في داخلي غابة ملأى بأوراق الشجر والأغصان الملتّفة والمتسلّقات وعباد الشمس والجذور الهوائية. وكنت أحمل بين الصدر والظهر الماتوغروسّو والأمـازون كلّه، ولو شاءت لاستطاعت أن تطوف على هواها في داخلي الأسودُ والفهود التي كانت تخرج إلى المضمار وسْط الزئير وفرقعات السوط، وتُهرع لتجلس على كراسيّ واطئة بذات الخوف الذي كان ينتابنا في المدرسة، لويسيتو سانخوان وأنا، سوى أن تلك الحيوانات كانت تكلّفها الطاعة جهداً أعظم، وكانت تضرب بيدها ضربات وتطلق جشْآت تجعل السيرك كله يرتعد.

لكن أكثر ما كان يثير خوفي ليس الآساد ولا الفهود وإنما بينيتو ديل اورو. ولمّا تسلّقت تلك المرأة إلى أرجوحتها، أحسست بالذعر وكأنني أنا نفسي هناك فوقُ بلباس حمام كلّه لمعان، وأقف على سيخ معدني لا يتّسع حتى لأصابع القدمين وأروح من هذا الجانب إلى ذاك الجانب كرقّاص ساعة أو كساعة تتقدّم ثلاث ساعات في الساعة الواحدة. ولم تكن بينيتو ديل أورو كالقردة المتسوّلة التي كانت خرجت منذ لحظة، أمّا هي التي تلبس(مايوهاً) مثقلاً بالصفيحّات اللامعة فكان لها المضمار كلّه كيما تسقط ميتة، وكانت تستطيع أن تختار أيّ موضع من ذلك المضمار الذي كان ضخماً، وإن كانت هي تراه صغيراً جدّاً من علٍ، جدّ صغير حتّى ما كانت بسبب ذلك تسقط، لأنها ليس لديها مكان تسقط فيه، فكانت ترى نفسها مرغمة على أن تظلّ تقوم بحركات بهلوانيّة في أعلى أرجوحتها.

وكان لويسيتو سانخوان الذي كان يجلس إزائي بين أبيه وأمه،

لابساً معطفاً يلبسه أيام الآحاد على الرغم من أنه قد لا يذهب هذا الأحد إلى محلّ خيخونا لجلب حمولة من الحلوى، ينظر، إلى بينيتو ديل أورو من غير أن يتبدّل فيه شيء وبالوجه الحالم نفسه الذي كان يستمع به إلى بيتراكو يتكلّم عن آلمي، أو ينظر به إلى الرهبان الذين كانت ترسمهم كونتشي كانكا على السبّورة، كلّهم بأردية تصل حتّى القدمين وبتيجان من النور الأصفر على رؤوسهم ماعدا الشيطان الذي كان عارياً دائماً من غير رداء، وبذيل ملّون يخفيه تحت الحجارة أو العشب اليابس. وأنا واثق من أن لويسيتو سانخوان الذي كان رأى القردة تلعب كرة القدم بذات عدم الرغبة التي كان يجري هو بها وراء الكرة من غير أن يُخرج يديه من جيبيه وشبه متثائب، لم يكن له في داخله أحراج ولا شجيرات، بل كان فارغاً حقاً، أو على الأقلّ مملوءاً بحلويات خيخونا ومن غير عشبة واحدة في رئتيه أو في حشاه، وليس مثلي أنا الذي بدا لي لمّا اضطجعت ليلاً أنّني أدخلت معي في السرير فيلماً كاملاً لطرزان، وأني كنت أسمع إلى جانبي نعيب بومات أو زعيق حيوانات زاحفة بين الجذور والوحل. وكانت تبدو لي وسْط هذه اللوحة،بينيتو ديل أورو قائلة لي وداعاً من أعلى أرجوحتها وهي تسقط سقوطاً عكسياً إلى فوقُ مخترقة القماش الذي كان يستعمل سقفاً للسيرك فتضيع في السماء لابسةً المايوه ذا الماسات الزائفة كأنها نجم. ثم كانت إسبرانثيتا وبنت خالتها كيني سائرتين في الغابة وهما تحملان تحت كنزتيهما أثداء كأثداء الراقصات، وصغيرة كقطع (الفلان) الصغيرة في محلّ مندرين، سوى أنها أكثر صلابة، كانت جد صلبة حتى كانت قادرة على خرق صوف كنزة، وما كانت ترتجّ إذا ذهب بها المرء من مكان إلى أخر، وإن ذهب بها راكضاً، حتى لو صعدت

بها بينيتو ديل أورو إلى أعلى الأرجوحة، هكذا كانت صلبة وأنعم من حلوى (الفلان) في محل مندرين، وأكثر ملاسة وحلاوة، كانت جد حلوة كعيني اسبرانثيتا اللتين كانتا تبدوان حلوتين، جدّ حلوتين كالنور الذي ينطلق من قديّسي الأناجيل، كالكلمات التي يُقال أنها تُقال عند ضفاف الأنهار، وفي أعلى الجبال وفي وسْط الصحراء.

كنت بحاجة إلى زيارة أحد أولئك القدّيسين، أحد ما يضيء غابتي، وإن يكن من أحتاج إليه في الحقيقة هو صونصولِس آرانغورين غومث التي صارت تسمّى منذ ذلك الوقت صولداد روبي، وكانت نوعاً من قديّسة سوى أنها كانت تعمل في الملهى، وترتدي بدلاً من الرداء بكينيّاً ذا خرز لمّاع، لربّما كانت طهّرت الراقصة المتعاقدة حديثاً مع دون موريثيو ثسبدس ما في داخلي من العفن والأشباح، لأنّ تلك الشابّة القرويّة كانت، على قول أخي في رسائله، جدّ ملأى بالفولتات الكهربائية حتى كان روبيرا يقول دائماً إذا نوى أن يلتقط صورة لها، أنّه لتصويرها ما كان بحاجة إلى وصل المصباح الومضي بالمقبس، ولا أن يشعل أيّة بؤرة ضوئية. وإن ما كان لأحد أن يأخذ قول روبيرا بالاعتبار، لأنه كان يقول ذلك بما يشبه النكتة، ولاسيما أن صولداد بدت للمصور منذ اللحظة الأولى، منذ أن رآها أوّل مرة، أنه قضى أياماً كثيرة، وشهوراً كثيرة وسنين طوالاً بانتظار ظهور تلك المرأة على المسرح، وأنّ الضوء الومضي ذاته الذي أضاء أوّل صورة لصونصولس آرانغورين التي تحوّلت إلى صولداد روبي، دخل قلب روبيرا وملأ بالنور تجاويفه المظلمة، وكأن تلك التجاويف كانت حجرات مغبّرة في بيت مهجور فتحت ريح الربيع نوافذه كلّها. ولم تكفّ تلك الشرارة قطّ عن إضاءة صدر المصور روبيرا وحياته.

لئن أراد في البداية أن يرفض هذا الخفق، وانسحب إلى الحاجز بعد أن التقط زوجاً من الصور وأخذ ينظر من هناك إلى العرض وتبادل النكات مع آنسلمو الوكيل حول المستقبل الهزيل للمتعاقدة الجديدة التي كانت ترقص أبطأ من الراقصات الأخريات وتكاد لا تلتقط الإيقاع، فقد أحسّ مرّة أخرى لمّا انتهى البرنامج ورآها قربه، بماضيه على أنه ضياع، على أنه هجرة في الظلام.

وكان أخي تحديداً، أخي الذي كان ما يزال يسمّى رامون، من قدّم الراقصة لروبيرا. وإذ ظلّ المصوّر من غير أن يدري ما يقول، ناظراً إلى تلكما العينين بلون العسل والقمح وورقة شجرة غضّة وكأنهما أول عينين رآهما في حياته، طلب منه أخي أن يصوّره إلى جانب صونصولس، ولمّا أعد المصوّر آلته ظهر في تلك اللحظة دون موريثيوثسبدس، وقال لروبيرا وهو يضع نفسه بين أخي والراقصة، أن يلتقط الصورة. وقبل أن يعود غطاء الآلة إلى موضعه، قال دون موريثيوثسبدس للمصوّر أنه يريد في اليوم التالي نسختين، أو بالحريّ، ثلاثاً، ثلاث نسخ، وقبل أن يجيبه روبيرا كان امسك صاحب الملهى صولداد روبي من ذراعها، وذهب بها إلى الطرف الآخر من القاعة ليقدّمها لزبن هاميّن ومن روّاد الليل.

لبث روبيرا إزاء أخي ناظراً إلى آلة التصوير وكأنه يستطيع أن يرى الصورة التي التقطها لتوّه، والتي سأرى فيها بعد مدّة من ذلك صونصولس آرانغورين مزدانة بصفتها صولداد روبي، لابسةً ثوباً قصيراً جدّاً ذا أهداب برّاقة وتضع تاجاً فضيّاً فيه حجارة وماسات زائفة. إني وإن كنت لا أعرف شيئاً عن تاريخها ولا شخصها لمّا

رأيتها، فقد لحظتُ، نعم، أن تلك المرأة صونصولس آرانغورين مقنّعة بقناع راقصة وليست كبقية رفيقاتها. أمّا الراقصات الأخريات فكنّ يبدون أنهن لم يلبسن ثوباً في حياتهنّ كلّها سوى ما كنّ يرتدينه لحظة تصويرهن سواء أكان بيكيناً ذا خرز لمّاع أو بدلة من طرازهاواي، لكنّ صونصولس آرانغورين كانت تبدو بتلك البسمة الحلوة، بسمة طفلة تقريباً، وبذلك الحياء وتلك الكبرياء التي كانت تُلحظ في الطريقة التي سمحت بها لدون موريثيو ثسبدس أن يعانقها، أنّها ذاهبة لحفلة أقنعة لابسة ملبس راقصة، وفوق ذلك، لم تكن راضية عن القناع الذي اختارته. وهذا كان يملؤها بالغموض، لأنّ الراقصات الأخريات، ولا يهمّ أن يكون لهنّ اسمان أم ثلاثة أسماء كان يُعرف من هنّ وما كنّ، بينما صولدادروبي ما كان يعرف عنها شيء سوى أنّها ليست راقصة، وأنّ امرأة أخرى كانت تختفي تحت ذلك القناع والمكياج المتقن الذي كان يزيد في عمق عينيها ويضفي على (فريز) شفتيها صبغة ناضجة، امرأة كان لها رائحة الخزامى، وكانت تذكّر وسْط دخان الملهى وبؤره الضوئية بعطر حقول القمح، وغناء عصافير تطارد بعضها بعضاً في سماء زرقاء ودفء الشمس ونسيم الحقول في الصيف.

وقضى روبيرا بقيّة الليل كبائس كسيح يحتاج إلى استنشاق الهواء الطريّ، وتلقّي بلسم شمسيّ، ناظراً شزراً إلى أين يريد دون موريثيو أن يأخذ تلك الراقصة التي كانت بالنسبة للمصوّر دواءً مقوّياً وسمّاً في أن واحد، كانت فيتاميناً للبصر ومرهماً للروح. وكان ينقل بصره مابين الراقصة وكأس الجنّ حزيناً من غير كلام تقريباً وكأنما أصيب حقّاً بالكساح وكذلك بحمّى مالطة والتيفوس وداء المستنقعات، ويظلّ حينئذٍ شبه ذاهل ناظراً داخل الكأس نحو مالا أعرف من أفق،

وكأنما ظل يرى في قاع ذلك السائل الشفّاف الفنانّة المبتدئة طافيةً وسط الجليد السائل مثل إيثرويليامز وسْط أفلامه، أو كحوريات أوليس. بيد أنه لم يكن أحد يغنّي وكان كل شيء كأنما أدخل روبيرا فيلماً سينمائياً غير ناطق.

وهكذا ظلّ المصوّر إلى أن سلك بصحبة أخي وتشين لو طريقه إلى البيت الذي كان الناس جميعاً يعرفون أنّه نزل ريّوس - إسبانيا، كان يسير من غير غرّة كأنّما ابتذلت كتلةُ شعره وروحه، صامتاً كدأبه لمّا كان يهجر وسط عملية تطهير، حجرة التصوير على غير انتظار، ويمشي بخطا سريعة إلى الملهى، ويلبث هناك ناظراً إلى المسرح الشاغر، حتى يستعيد هدوءه بعد هنيهة من الصمت، إلاّ أنّه لم يبق له تلك الليلة أيّ مكان يرحل إليه بحثاً عن الهدوء، لأنّ طيف صونصولس آرانغورين كان يطيف بالملهى دائماً مقنّعاً بقناع راقصة، فكان المصوّر يسمع دائماً في سراب الموائد الفارغة صدى ضحكتها. صدى كان يختلط في الشوارع المقفرة بضوضاء خطواته وخطا أخي والصينيّ بونيا. ذلك لمّا لاحظ أخي حزن صديقه المصوّر، فشرع يدندن بشيء كان روبيرا معجباً به جدّا، دندن بأغنية: غدر. وفي الشوارع الخالية والمضاءة بمصابيح شحيحة كان صوت أخي يرافق كما في فيلم حزين لجينجر روجرز، المصوّر روبيرا والصيني بونيّا الذي يلبس وهو في الطريق إلى نزل ريّوس - إسبانيا، رداء من حرير، ويضع مكياجه الصيني وشاربه الصنعي ويحمل في حقيبته إلى جانب أدوات السحر، بدلة الخروج التي كان جاء بها إلى الملهى. وكانت ظلال الرجال الثلاثة تستطيل على بلاط الليل الرطب، وهي تدخل في ضوء مصباح ثمّ تبتعد عنه، بينما كان صوت أخي يصعد بطيئاً كشهاب بطيء نحو

سماء الفجر: «إذا أردت يا امرأة، أنن تكلّمي الله، فسليه إن تخليّت مرة عن عبادتك، والبحر مرآة قلبي...»، وصوت أخي الذي كان مايزال يدعى رامون، يهدهد حلم برشلونة كلّها.

لكن ما كانت توجد أغنية يمكنها أن تزيل ذلك الحزن، لأن صدى ضحكة صونصولس آرانغورين وصوتها، لم يكونا يطوفان فقط بين طاولات الملهى وستائره، وإنّما في داخل المصوّر روبيرا. وبذات الطريقة التي عرف بها المصور منذ اللحظة الأولى أن تلك المرأة كان مقدّراً لها أن تغيّر محور حياته، كذلك دونيا آنخلينس تنبّأت منذ البداية بأيّ متاهة ضاع زوجها، فقد عرفت ذلك منذ الليلة الأولى لمّا كانت مضطجعة في مخدعها في النزل، فسمعت من النافذة غناء أخي يتقدم في الشارع، ولاحظت إيقاع خطا زوجها، البطيء والمتعب، بل كان أكثر بطئاً من إيقاع الأغنية التي كان يحملها أخي على شفتيه: «والبحر انعكاس لقلبك، كلما رآه يبكي خيانة حبّك». وقد تأكد هاجس دونيا آنخلينس بعد دقائق من ذلك، لمّا لاحظت وهي في ظلمة حجرتها متظاهرة بالنوم، عدم الرغبة التي كان يتجرّد بها روبيرا من ثيابه، وكيف كان يتراءى وسْط الظلمات في مياه المرآة القاتمة الموجودة فوق الكومودا ليظلّ هناك ناظراً إلى ذلك الظلّ الضبابي من غير أن يؤمن أن هذه الصورة التي كانت تظهر في عتمة الزجاج، كانت انعكاساً له ذاته، وإنّما هي صورة غريب جاء من عمق الظلمات ليسخر منه.

وبدءاً من ذلك الفجر الذي كان روبيرا على وشك أن ينفجر فيه، في بكاء مرٍّ ويصرخ يائساً في وجه المرآة والليل، ضاعفت دونيا آنخلينس الواعية بالألم الذي كان يحرق المصوّر، من عنايتها به وأخذت تعامله

بمزيد من الرّقة، بدلاً من أن تناكده أو تحاصر روحه التي صارت معذّبة بإفراط. ذلك كأنّما كانت تضبط له رفّة جفني عينيه وخفقات قلبه وحياته كلّها،وكانت الدقة بالغة حتى كانت دونيا آنخلينس تخفي قلقها وتتظاهر بعناية بإهمال وعدم اهتمام مبتذلين، كانا قناعاً لذلك الإتقان الكبير. لكن، إذا لم يكن يراها احد، وكانا وحيدين أو إذا كان روبيرا يستعرض ألبوماته ومحافظه، فكانت ربّة نزل ريّوس – إسبانيا تنظر إلى زوجها وكأنه على رصيف ميناء ويستعدّ لصعود قارب ليباشر سفراً طويلاً جدّا، سفراً لن يعود منه أبداً. وكانت دونيا آنخلينس تعلم أنها مهما يحدث فسوف تقضي بقيّة حياتها ذاهبةً كلّ صباح إلى رصيف ميناء لتنظر إلى الأفق الفارغ وإلى البحر الذي قد يكون مبحراً فيه على البعد دائما المصور فيليكس روبيرا وحيداً ضائعاً.

هكذا كانت تبكي بينما يكون زوجها في الملهى ملتقطاً صوراً وكأنها تجد نفسها واقفة على رصيف بحري مقفر، ووحيدة إزاء بحرٍ شتاءً، لأنها كانت تعرف أنّ روبيرا أينما يكن فقد كان يبحر في الحقيقة على غير هدى، حتّى وإن يكن في الملهى وآلة التصوير معلّقة على صدره مبتسماً لآنسلمو الوكيل، ملتقطاً صوراً للمغني المنفرد آرثورريّس، ويشرب الجنّ وغرّته غرّة مغامر. وما كان عليك غير أن تنظر إلى المصوّر لتعرف أنه كان مبحراً، تنظر إليه يتحرّك سائرا على متن قارب غير مستقر. وكما كنا نسير الموكوس والغيّه وأنا على أخشاب الشاحنة آبيّا في الكويّكورتو والملأى بالشعرية والثقوب، كذلك كان يسير روبيرا غير مطمئنّ ينتابه بداية غثيان ينشط في فم المعدة، لكنّ الغثيان والدوار لم يهاجما المصوّر فقط، بل دون موريثيو حسبما اعترف لآنسلمو الوكيل،أنّه طيلة الأعوام التي قضاها وهو

ينظّم عروضاً ويبيع مباني أو يشتري محطات وقود، لم ير امرأة كتلك المرأة، امرأة كانت امرأتين أو أكثر. لذلك لم يهتمّ في أيّة لحظة باحتجاجات الفنّانين الذين كانوا يشكون قلّة مهارة الراقصة الجديدة، التي لا تكاد على رأيهم، تلتقط الإيقاع وتتحرك كراقصة باليه من غير أن تظهر كما يجب هزّات الورك ولا إتمام حركة الساقين السريعة، وسوف تحطّ الأنظار كلّها على تلك الشابّة التي كانت تتحرّك ببطء كيلا ينفرد أحد بتثبيت نظره عليها، بل كان كلّ من في الملهى يثبّت نظره عليها لا محالة، حتى آرثورو ذاته كان يترك الميكروفون خلال أدائه، ويلتفت لينظر إلى صونصولس آرانغورين من غير أن يُعرف إن كان ذلك انقباضاً أم إعجاباً، ويدع الموسيقى تتابع مجراها، وكان على الموسيقيّن أن يتراجعوا ليسمحوا بالدخول مرتين أو ثلاث مرّات للمغني المنتشي الذي كان يرى كلّ حياته راقصات، راقصات طوالاً، راقصات من عرق أصفر، وراقصات سوداً، وخلاسيات، راقصات قزمات وحدباوات، وحولاً، آرثوروريّس كان رأى راقصات عرجاً، حمر الشعور، غبيّات وعسراوات، لكنه لم ير راقصة كتلك الراقصة.

وقد لاحظت لابيّا مانوليتا التي قضت نصف حياتها عشيقة لدون موريثيو ضلال هذا الأخير، غير أنّها، بدلاً من أن تخفف عن صاحب الملهى غرقه كما فعلت دونيا آنخلينس مع روبيرا، قرّرت أن تقيّده في القبو وتلقي بصونصولس آرانغورين إلى القروش قبل أن ترى نفسها وقد أبعدتها هذه الطفلة التي ما تزال تعبق بها رائحة الزبل والخمّ. هذا ما قالته آماليا مورينو،أولابيّا مانوليتا لدون موريثيو ثسبدس، قالت أن صونصولس آرانغوزين كانت تفوح منها رائحة الزبل والخمّ، وقالت له أيضاً أنّها لا يخدعها أحد خاصةً قرويّة وأنها ترى ما سوف

يحدث. لكنّ لابيّا مانوليتا ما كانت ترى شيئاً وما كانت تستطيع أن ترى شيئا بتلكما العينين السوداوين اللتين ازدادتا سواداً وصارتا كالقار الأسود بالحقد والعمى اللذين كانا يجريان فيهما ويجعلانها عمياء ترى كلّ شيء ملآن بالسخام، كما لمّا كانت دونيا كارمن تجعلنا أنا و لويسيتو سانخوان نركع إزاء السبورة بعد أن تضربنا بالعصا على أيدينا ومرفقينا، ونظلّ هناك ناظرين إلى ذلك الأفق الأسود الذي كان لاصقاً بعيوننا حتى يذهب النشيج عن لويسيتو سانخوان، ثمّ يشرع في التهويم، وأظلّ أنا ناظراً إلى سواد السبورة الاردوازية التي كانت تمتلئ بالسحب والخثارات البيض التي كانت تنكمش وتنبسط إلى أن تصيح بنا دونيا كارمن أن ننهض. ونعود راكضين إلى مقعدنا، وقد امتلأ أنف لويسيتو سانخوان بالطباشير، وأسير أنا متلمّساً ومن غير أن أرى شيئاً بسبب تلك الرؤية السوداء جداً التي كانت تنتصب خلال مدة طويلة أمام عينيّ.

وبينما كانت لابيّا مانوليتا تسير من جانب إلى آخر في حجرتها كأسود السيرك في أقفاصها وتزأر على الفلاحة وعلى البعوضة الميتة التي ما تزال تفوح منها رائحة الحظيرة، كان دون موريثيو يتبسم غير مبالٍ، متظاهراً أنه أكثر لا مبالاة، وينظر إلى نفسه نظرة جانبية في المرآة المحاطة بمصابيح صغيرة ويكشف عن أسنانه في الزجاج المضاء ويمسّد شاربيه ويسرّح بأصابعه شعر صلعته المخلخل الأشيب ويوصي في آن واحد عشيقته الغاضبة أن تتخلّى عن لعناتها، وخرج من غير أن يكفّ عن تجفيف عرقه، من الحجرة للاهتمام ببعض الشؤون الضرورية مع آنسلمو الوكيل، ولئن تكن هذه الشؤون، إن كانت موجودة حقاً، فيها قليل من الضرورة ربّما، فقد كان دن موريثيو ينساها وينسى

آنسلمو ويقترب من الراقصة صولداد روبي ويخلصها من جوقة الرفاق أو الزبن الموجودة بينهم، ليذهب بها إلى طاولة منعزلة متظاهراً بجعلِ الراقصة تتكيف مع الملهى والحياة في برشلونة. وهناك يقف ذاهلاً وهو يراقب نظرة صولداد، مكتشفاً فيها كما شرطيّ تحرّ، آثاراً وملامح لشابة قروية، كانت تطفو على شكل ناعم على قسمات وجه الراقصة المتقلّبة وفي بسمتها.

لقاء تلك الرؤية، ما كان يهمّ دون موريثيو ثسبدس لا آنسلمو الوكيل، ولا الصور المكررة التي ما كان روبيرا الغيور يقترب كيما يلتقطها لولا موافقته، ولا ضحكة لابيّا مانوليتا لمّا عادت من حجرتها الصغيرة، ولا بسمة الموظفين الساخرة. وبذلك كان يعترف لصولداد روبي، وكان يقول لها بين هازل وجادّ أنّه لا يهمّه شيءٌ في الدنيا سواها، وسوى أن تكون راضية بالعمل معه، وأنه سيأتي يوم تصبح فيه الراقصة الأولى في ملهاه وفي البراليلو وبرشلونة كلّها. وكان يُنهي هذا المسار المهني الصاعد بدعوتها للعشاء في أي مطعم فاخر خارج الملهى، لكنها كانت ترفض الدعوة دائماً، بعد أن تؤكد أنها لا تطمح إلى أن تتحول إلى نجمة، وكانت تفعل ذلك على شكل طبيعي ومن غير تكلّف الراقصات الأخريات ورفاقهن، راقصات إذا قلنا: لا، يردن القول، حسب أخي،: نعم أو ربما، أو ربما إذا قلنا ربما، يردن القول أبداً، أو ربما غداً، أو نعم، إن كان هناك زيادة في الأجر، ثمّ إلى أخره طويل من المعاني والمفاتيح السرّية التي تشكل حيل الدلال ومعجمه والتي لاً وجود لها البتّة في حالة صولداد روبي. كان هذا التصرف الطبيعي يغيظ أكثر ما يغيظ لابيّا مانوليتا التي كانت تؤكد باسمةً بسمة حزينة، قالبةً شفتيها المطليتين بالأحمر الدامي، أن صونصولس آرانغورين هي

السم الصرف. ولمّا سقطت ليلي ميتة وأحدثت تلك الضوضاء التي لم أسمعها لكنّها ما انفكّت عن تذكيري بسقطات تاتين المغبرّة عزت لابيّا مانوليتا وقسم هام من الفرقة، إلى الوافدة الحديثة المصائب التي أخذت تحدث في الملهى. لكن ذلك حدث بعيد ذلك في وقت لاحق لأنني في ذلك الوقت الذي وصلت فيه صونصولس آرانغورين إلى برشلونة وأخذ أخي يرسل أولى رسائله، ما كنت أستطيع حتّى أن أتخيل أنّ صورة تاتين سرعان ما سوف تذكرني بالراقصة السمينة ذات الثديين كألف قطعة من (الفلان) في محل مندرين، وبالضوضاء التي يحدثها الأشخاص إذا سقطوا موتى، وكنت أقلّ قدرة على تخيل اليوم الذي أدخل فيه أول مرّة بيته، ورأيته هناك منبطحاً على الأرض سائراً على يديه وهو يجرّ خلفه ساقيه اللتين كانتا تشبهان قطعتي كمّ بلون وردي من غير حدائد ولا سيور تجعلهما ثابتتين وتكسبهما قواماً.

رافقني من بين حشد خالات تاتين إحداهنّ ومعي مسلسلة صور الكابتن تروينو الهزلية أحملها مضغوطة تحت ذراعي ومن غير أن أنتبه لحارس المرمى المشلول ولا للطفل الذي كان إلى جانبه، وهو رفيقه كما يبدو في مدرسة المريميّين، وذو نظّارة ومتأنّق ونظيف وجذاب كأستاذ يريد أن يكون جذّاباً. ولما رأيت تلكما الساقين كخرقتين لا حياة فيهما يجرّهما تاتين وراءه أدركت حينئذٍ معنى الشلل، إنّه شيء ليّن لبني يتشرّب العظام ويجعلها كقطع بسكويت تتهشم على المائدة قبل أن تبلغ الفم، شيء ما رخْص وصامت، إنه نومٌ في لبّ الساقين. لكنّ تاتين لفرط معرفته بذلك، كان يبدو أنّه لا يعرفه ولا يأبه به، ولا صديقه أيضاً الذي مدّ له تاتين مسلسلة سحبتها للتو من تحت ذراعي إلا أن إحدى خالات تاتين ولا أدري إن كانت تلك التي فتحت لي

الباب نفسها بدا أنها أدركت الآثار التي يسبّبها الشلل لمن يراه، فدقّت على كتفي دقّات عدّة وكأنني غُصصت بالطعام وتركتني مع تاتين وصديقه، وبعض لعب السيارات الأمريكية الحديدية التي كانت ملقاة على الأرض وانصرفت سالكة ممرّاً لاشكّ في وجود خالات أُخرَ لتاتين في نهايته.

كان البيت كله يفور بالخالات. ولم أصل قطّ إلى معرفة كم من الخالات لتاتين ولا معرفة أسمائهن ولا إن كانت أمه تختبئ وسط تلك السحابة من الخالات أو إن كان ابناً لأولئك النساء كلّهن اللاتي يشكلّن أمّاً برؤوس كثيرة كنت أميّز منهنّ واحدة كانت تدخّن كرجل وتسعل بينما كانت تفتح باب شاحنتها الصغيرة التي كان يسافر تاتين في قسمها الخلفي، باسطاً ساقيه وسط علب كرتون ودواليب بديلة وحدائد تُحدث صوت كلينيك – كلينيك مع حدائد ساقيه، معدن تقويم القدم، ومعدن الحدائد تدقّ بعضها بعضاً كلما التفت في كل حفرة في الطريق، وليس كذلك المساء الذي كان فيه لتاتين ساقان من خرق وما كان باستطاعته أن يحدث من الضوضاء سوى ما تحدثه بزّاقة حينما تسير، غير أن تاتين ما كان يخلف أثراً من لعاب برّاق وراءه، ولا يملأ مسلسلة الكابتن تروينو الهزيلة، كما كان يفعل صديقه المسمى رامون، كاسم أخي لما كان مايزال يسمى بذلك الاسم صديقه الذي كان يلبث لحظة ريثما ينظر ويعيد النظر في كرسبين يضرب صينياً بالعصا، أو في غوليات يصدم رأسي فلاّ حين، ثم يبلّل أطراف أصابعه باللعاب قبل أن يقلب كل صفحة مخلّفاً في زوايا الصفحة بقعة رطبة وطريّة وكأنه ينقل الشلل إلى الورق حيث يلمسه بالضبط.

أنهى تاتين تصفّح المسلسلة بسرعة، وسألني وهو يضبط وضع نظّارته بعد أن نظر إلى صفحتي الغلاف والعناوين بينما كنت أركع على ركبتي لأرى السيارات الأمريكية من قرب، إن كنتُ رأيت هذا المساء كيني وبنت خالتها إسبرانثيتا. ذلك أنه منذ اليوم الذي ظهرت فيه الفتاتان على ناصية الشارع، صرنا جميعاً نسعى لصيدهما أو أسرهما أو نهرب إلى الأرض الخلاء في مدرسة الصّم والبكم ولا أدري إن كانت تقودنا رغبة لنتساوى مع لاعبي كرة القدم في غرانخا سوارِث من ذوي السيقان الملأى بالشعر والذين كانوا يقضون نصف المباراة باصقين من زوايا أفواههم ويحكّون فتحات بناطيلهم، أو لنرى ذلك الموكب الذي يأتي في إثرهم دائماً، إضافة إلى جيش من الأطفال الصغار المزوّدين بأباريق الماء وسيل من الكرات والطبول وقبّعات بيضوية وأخرى مقلّمة، وواقيات ركب مثنيّة، ويضم فريقاً من البنات الكبار اللاتي تعمّقت علاقة أعضاء فريق كارنخا سوارِث بهنّ حتى حدود غير مشكوك فيها من جهة الألغاز اللاتي طالما أُعجب بالكلام عنها ببْيتو وسْط عتمة شاحنة غويّكورتو ودخانها.

وقد كان في تلك الفتيات شيء من بركان. فكنّ ينتقلن بين ثانية وأخرى من الهدوء المطلق إلى الاندفاع المحيّر من المهل، وكانت الكلمات البذيئة ودخان التبغ تدورِ وسْط الهمس والقهقهات التي يمكن أن يكون لها أصل، حسبما كنّا نخمّن جميعاً، في أمر الجماع والحرقة التي تدمر مابين سيقان أصدقائهن. وكانت هذه المسائل تستغرقهنّ حتى ما كنّ يلتفتن حينما كنّا نمرّ إلى جانبهن ونحن نطارد عند خطّ الملعب مهاجماً خصماً فنلطخهن بالغبار أو حينما ننهار بسبب عنف الدفاع، فنسقط متدحرجين مرضوضين على بعد

خطوتين منهنّ، ولا يهمّ أن نظلّ نصف ساعة نتمرّغ من الألم أو ننزف دماً من أنوفنا، فإنّ أقصى ما نستطيع الحصول عليه هو اقتراب أحد أولئك الصبيان ثُرْم الأسنان، ويظّل ينظر إلينا بثبات باسماً كالمجنون، ويتلمّس إرْبيّتنا بيده الصغيرة الوسخة.

نحن كنّا الرجل اللامرئي، كنّا لاعبي كرة قدم من غير لحم، وكالرجل اللامرئي في الأفلام، هذا الذي كان يشبه مومياء ويضع نظّارة شمسيّة، كنّا مضطرّين إلى أن نعصب وجوهنا ورؤوسنا كلّها وجسمنا كله كيما تعرف أولئك الفتيات،النساء أو من كنّ، أن ليس أصدقاؤهن وحدهم يلعبون الكرة، بل هناك نحن:الموكوس دييغو مانويل، الغيّه، باريّا كاستيّو وتاتين. كان فريقنا كله شفّافاً، كنّا عصبة من القمصان الداخلية الفارغة الطافية في الريح، كنّا حدائد مربوطة ربطاً سيئاً بسيور تصرّعند حلول الليل كقطّ في الشبق، كقلب عاشق.

لكنّ ما كان يشغل بالنا، ليس فقط كوننا غير مرئيّين في نظر فتيات غرانخاسوارث، لأنّه إن يكن صحيحاً أنّ تلك الظاهرة تجعلنا مستائين حائرين، فإنّ السبب الأكبر لقلقنا كان يأتي من الخوف الخفيّ أن يرافقنا هذا اللامرئيّ، هذا اللا وجود خارج ملعب الصمّ والبكم ويستمرّ في أجسامنا إلى الأبد. وقد أخذت تستقرّ في أقبية شخصي فكرة أنني طيلة حياتي سيكون مقدّراً لي أن أكون لامرئياً تماماً وأنني قد أكون مضطراً إلى أن ألتفّ بالخرق أو العصابات حول جسمي الضعيف كيما تتنبّه إلى شخصي الفتيات والنساء والناس خارج بيتي وشارعي. في الواقع، هذا ما كنت أفعله بمرّ السنين، أن ألصق على جلدي بقايا عصائب وأجهزة ورقّاً مستعملاً تكسبني قواماً وشكلاً لكنني كنت

أفكر حينئذ عند حلول تلك الأمسيات الصامتة اللامنتهية وفي أعمق أعماقي، أنني لن أستطيع أبداً أن أكفّ عن أن أكون شفّافاً خاوياً لا شأن لي، وأنني قد لا أستطيع أن أشغل مكاناً في العا لم،وأن حياتي كلّها ستنقضي في اللاشيء، وكأنني كنت تفكيراً فحسب، كنت عاجزاً عن تحريك عشبة أوحصاة في الطريق، ناهيك عن بناء طريق خاصّ بي، وأن أحرث مستقبلي كما كان يقول عمّي غوتيّيرث.

وأنا ما كنت أستطيع أن أفلح، أو أحرث وأزرع شيئاً، بل كنت أحس بنفسي مطروداً ممالا أدري من فردوس، وكنت أشعر أنّ وراء ظهري قد أقفلت أبوابٌ لن، لن تفتح مرّة أخرى، وأنه قد حكم عليّ أن أكون شبحاً من غير جسم، وأن أهيم في الدنيا بحثاً عن مفتاح أستطيع أن أفتح به ذلك الباب الذي كنت أسمع خلفه صرير سلاسل وأقفالٍ، مشؤوماً، وكنت أعرف جيّداً حتّى في ذلك الوقت، أنّ هذا المفتاح المفترض لم يكن موجوداً بل كان حجّة فقط كيما أستطيع أن أتابع هيماني في ضباب الأيام والسنين وأنصاف العقود التي كانت تنفتح أمامي والتي لم تكن شيئاً آخر غير مستقبلي وحياتي، مستقبل أخذ يشقّ طريقه على خجل كعصفور جريح.

وإذ كنّا كلّنا جميعا وأنا أيضاً، نلمح في صمت المساء، أنّ كلاً منّا تهاجمه المخاوف المتشابهة جدّاً ذاتها، فكان يجمعنا دفء أخويٌّ كجراء ضعاف، ولم يكن نادراً أنّ ترى كيف كانٍ الموكوس اليتيم وسْط يتامى، يلقي بذراعه فوق كتف الغيّه ويستند كلٌّ منهما إلى الآخر كما كان كلّ فرد منا يستند إلى البقية وإن كنّا نسير فرادى ناظرين إلى الأرض، ثم يعبران ظلمات ملاعب ٢١ متّجهين إلى أوخينيوغروس

وإلى شارع آنطونيوخيمينيث رويث. وإذا ما لمحنا شارعنا وشكل بيوتنا الضبابي، يصبح الدفء أكثف، ونعود للحظة فنخدع أنفسنا ونتظاهر أنّ ما حدث في ملعب الصمّ والبكم لم يكن غير سراب، وخطأ سيصحّح أو وينسى غداً أو ذات يوم. وهكذا عدنا كعشّاق يقتلهم الدوار، إلى الكلام أوّلاً بحياء، ثم بحماس عن كيني وعن بنت خالتها إسبرانيثيا، خاصةً إسبرانْثيتا التي كانت بركاننا الشخصي، كانت فيزوفنا الخاصّ بنا سوى أنها كانت فيزوفاً حلواً يطلق رماداً ملبّساً بالسكّر ومهلاً من عسل.

وإذا رأيناها مبتسمة بسمة بلون الفريز والهالة البرّاقة لشعرها الكستنائي المختلط بعروق من ذهب غامق، كان يكلفنا في الحقيقة جهداً الايمانُ أن يكون بإمكان أحد أن يبول على تلك الفتاة أو إلى جانبها، فتاة ذات أضواء عسلية تنعكس في نظراتها. أمّا كيني فقد كان فيها أسرار أخرى تُرى في عمق عينيها، في شيء كان يجعلها بشكل ما قريبة من فتيات غرانخا سوارث، وطعم الجعة المرّ ورائحة البترول التي تثيرها أرصفة الميناء في المساء. ربّما لهذا السبب، سبب طعم الرجولة المرّ المبكرّ كان تاتين يسأل كلّما التقى أحداً، كما لقيني ذلك المساء لمّا حملت إليه مسلسلة القبطان تروينو المصوّرة، عن كيني، يسأل إن كنّا رأيناها في جهة ما. ربّما كان ذلك نتيجة الشلل، هذا الشلل الليّن الذي كنت أخشى أن ينتقل إليّ لمّا كان تاتين يشرح لي سلاسل السيارات الأمريكية وأرقامها المكتوبة بأحرف من حديد على هياكلها والتي تبّخرت مني سريعاً، لمّا ظهرت في باب الحجرة إحدى خالات تاتين حامْلة بيدها الأجهزة التي كنت أراها دائماً حول ساقي صديقي، والتي جعلتني في شك للحظة. فما كنت أعرف أي

الساقين ساقا تاتين الحقيقيّتان، إن كانت الحدائد، أو قطعتي المطّاط الورديّتين الليّنتين اللتين كانتا تتدلّيان من غير حياة من جذع صديقي. ولمّا وضعتْ إلى جانب حارس المرمى الهادئ الأجهزةَ المعدنية قالت له وهي تنظر إلى ساعة ذات علبة مشغولة موجودة في زاوية الغرفة، أن يستعجل، فقد يتأخران عن موعد الطبيب.

وبشرارة حسّ داخلي غامض، سألت تاتين وأنا أنظر إلى عينيه السماويّتين وإلى الضوء المنعكس على نظارته، إن كان مريضاً، فنقل عينيه إلى ساقيه، ليس إلى الساقين المعدنيّتين، وإنّما إلى تلكما القطعتين من خرطوم رخو، إلى تلكما الساقين القماشيّتين اللتين لم يكن لهما شكل ساقين ولا مظهرهما، واللتين يمكن أن تُسمّيا ساقين لأنّهما تشغلان المكان الذي تشغله الساقان في أجسام الأشخاص. و لم أدرِ إن كنت أعدّ ذلك كلّه نكتة، وما علاقة الأطبّاء بساقي تاتين، اللتين عدهما الناس جميعاً ميتتين منذ عهد بعيد، واللتين يمكن أن يتدخّل بهما ميكانيكيّون وحذاؤون وعمال تقويم الأقدام فقط. لكن، ما كان يدهش أحد لشيء هناك ولا يقلق إذا رأى كيف كان ذلك الصبيّ يفكّ خجلاً رباط الساقين اللتين جيء بهما إليه منذ قليل. ظلّ صديق تاتين يملأ باللعاب زوايا المسلسلة المصوّرة رافعاً عينيه عن الصور ليبتسم لي للحظة كأنه أستاذ أو طبيب، كما كانت تبتسم لي خالة تاتين من غير أن أعرف إن كانت هي ذاتها التي فتحت لي الباب، وكما كان يبتسم لي كلّ من في ذلك البيت حتّى تخلّيت عن العربات الأمريكية الحديدية، والتقطت مسلسلتي وخرجت قائلاً في الممرّات: وداعاً لخالات تاتين كلهنّ من اللاتي كنت ألتقيهنّ، وأخريات ربما كنّ يسرن في زوايا البيت كلها، يبتسمن جميعهن كما كان يبتسم كوسمه كوسمه لمّا

كان يحفظ مسدسه في جيب سترته بينما ليلي، الراقصة ليلي، التي تصورت مع أخي، تداعب شعره الذي تشوّش من ذاته وتقول له: يا حمامي، يا حبّي كوسمه، كوسميتو، كوسمه كوسمه.

بهذه الطريقة وحدها كان يبتسم كوسمه كوسمه خطيب ليلي المؤقت، وعشيقها العرضي الذي كان الخدم في ملهى برشلونة يسمّونه كوسمه مرّتين، بدلاً من دون كوسمه، والأصدقاء، إذا قلنا ذلك بشكل ما لأن كوسمه كوسمه لا يعرف أحدٌ أصدقاء له، كوسمه زائد كوسمه، كوسمه للتربيع، كوسمه مكرّر، وكوسمه مزدوج، وإذا نشرت ليلي عطرها الذي كان خليطاً من عرقها الحلو وماء الكولونيا برائحة الليمون، وعطر المصابيح الصغيرة الساخنة في الحجرات، وضمّته إلى حضنها ووعدته بالوفاء وهي تلاطفه، حينئذ فحسب كان كوسمه كوسمه يفسخ طَبقَ فكّيه ويفتح شفتيه ببسمة طفلٍ كانت تناقض مظهره العام، ولم أصل إلى معرفتها أو أراها قطّ في أيّةٍ صورة، لكنّي عرفت بوساطة رسائل أخي أنّها كانت بسمة مهمل مزمن.

كان يبدو كلّ ليلة عند مجيئه الملهى أنه حضر بما يجرفه قطار: فربطة العنق تجول في ياقة القميص، والعقدة لا مركز ثابت لها بين الحلق والنقرة، ونصف الأزرار غير مزرّر، أو الشعر مشعّث والبدلة ملأى بغضون وتجاعيد جدّ عميقة، وكانت تبدو أي البدلة، أن مدحلة إضافة إلى القطار قد داستها إلا أنها لم تدسها مبسوطة على الأرض وإنما مكوّمة على شكل كرة، أو ملقاة بأيّة طريقة. وعلى الرغم من كارثة الملبس، فإن كوسمه كوسمه لم يفتقد بعض الأناقة الطبيعية التي يتّمتع بها شبه مموّهة في فوضى ملبسه يدعمها هيكله ذاته الممشوق والطويل

الذي استطاع أن يقوم وسْط ذلك الغرق كشهيد التهمت الأسود في السيرك الروماني ذراعاً له ونصف صدره وما زالت ترتسم على وجهه طوبى بسمة ليست مناسبة للمقام.

لكنّ شيئاً من ذلك ما كان تهتم له،كما يبدو،الراقصة هورتنسيا رويث التي كانوا كلّهم يسمونها ليلي، والتي كان أخي يقضي معها أمسياته في نزل ريّوس – إسبانيا متحدثاً عن أفلام جينجر روجيرز وهيدي لامار، او مدندناً بالأغاني التي كان يغنّيها في الملهى المغنّي المنفرد الأثّرم وعلى حافّة الاختناق آرثورورريّس. كانت ليلي تغفر لكوسمه كوسمه كلّ شيء نظراً للحمية التي كان يلاحقها بها، وتصاريحه المستمرّة عن حبّه الذي كان يبديه لها في الحجرة أو في زاوية من الحاجز أو في باب المنتفعات وفي كلّ ساعة وكلّ لحظة. كانت الراقصة ليلي تلعب اليو – يو بكوسمه كوسمه، وبحبّ كوسمه كوسمه. إذ كانت تضمّه إلى ثدييها الشبيهين بقطعتي حلوى عطرتين وتجعله في حالة ذهاب وإياب من التدليل. وكلّ ليلة كانت تزداد التهاباً غيرة كوسمه مزدوج وهواه، كوسمه الذي كان أحبّ من قبلُ، وقبل أن تعمل ليلي في الملهى حبّاً مجنوناً راقصة أخرى في البراليلو، إنها لابيتّي بوب الممتلئة الجسمَ لكنها لم تكن جميلة كما ليلي. وكانت بيتي بوب سمراء وعيناها بيضاوين، وانتهى بها الأمر هاربةً مع بحّار نرويجي كان له وشم شيطان على عضلة، ووشم ملاك على العضلة المقابلة.

لكن ذلك الحبّ لم يصل قطّ إلى الأوج والحضيض الذين كانت تجرّه فيهما الراقصة ليلي. وكان كوسمه منذ أن فقد عقله بسبب ليلي،

يسحب في كلّ خطوة من جيب سترته المجعّدة مسدساً متهافتاً قديماً، وكأنما داست المسدّس أيضاً قطارات عدّة ومدحلة،وكان يسدّده إلى رأسه مهدّداً ليلي أنه سيطلق على نفسه طلقة إذا لم تترك الملهى وتتخلّ عن الرقص شبه عارية أمام الناس وعن اسم ليلي، والخروج ليلاً والشرب على الموائد مع زبن ذوي شوارب أو صلع،أو ثرم، أو شقر أوقصار وطوال أوأقزام. لكن، ما كان يصاب أحدٌ بالذعر. حتى الزبن الأحدث عهداً بالملهى، كانوا يعرفون كوسمه كوسمه، ومسدّس كوسمه كوسمه، وكان بعض الناس يقولون أنّ ما يقوم به كان (برنامجاً) آخر في العرض، وكانوا ينظرون جميعاً باسمين بودّ كيف كان ذلك الرجل ذو القناع البائس، يدوّر بكرة المسدّس ويصوّبه إلى صدره أو فمه أو حتى قمّة رأسه ويضغط على الزناد كيما يسمح بهرب صرير خفيف وجافّ كان يقابل بقرع الطبل تحيّة.

ما كان يؤمن أحد بانتحار كوسمه كوسمه، ولا بمسدس كوسمه كوسمه الذي كان يفترضه كلّهم كابي الزناد، أو أنّ فيه طلقة واحدة من غير صاعق ولا بارود، ربّما أصيبت بالدوار لكثرة دورانها في البكرة. وإذا كان دون موريثيو ثسبدس يسير هناك كان يقترب من المنتحر المخفق الذي يكون جرّب حظّه في الروليت الرّوسي،، ويضع له المسدّس في جيب سترته ويربّت على كتفي كوسمه المزدوج ويوصي به الخدم بعد أن يدعوه إلى كأس من الكونياك. ومن هؤلاء كان الخادم آلبارث خير من يعنى بكوسمه المزدوج. هو وإن لم يكن يكلّمه،لأنّ آلبارث ما كان يكلّم أحداً بسبب السير إلى الوراء، فكان يبتسم له هازّاً كتفيه وكأنما يقول له: ماذا نصنع لك يا كوسميّان. تشجع، هناك أشياء أكثر سوءاً يا رجل: لا تهتم يا سيدي، سترى كيف

سيُسوّى ذلك كلّه، وكيف ستتخلّى ليلي ذلت ليلة عن اسم ليلي إلى الأبد، وتسمى مرّة أخرى هورتنسيا رويث وتخرج من هنا وتمسك بذراعها وتتزوّجان، ولن يرى أحدٌ مرة أخرى سرّة هورتنسيا، وأنت سوف تدع هنا مسدسك مهملاً وتنساه، وتنسى ليالي الملهى الحزينة وكذلك ليالي البراليلو كلّه. كان يقول ذلك كلّه، من غير أن يقول شيئاً سوى هزّ الكتفين، الخادم آلبارث لكوسمه كوسمه، الذي وإن لم يكن يشبه غريغوري بيك، فقد كان له في الحقيقة ملمح من غاري كوبر، أو على الأقلّ من غاري غوبّر منحط القوى، قد بات ليلة أو ليلتين من غير نوم.

لكن، لم يكن الخادم ألبارث وحده من كان يعطف على كوسميين، بل كان كلّ من في الملهى يقترب من طاولته ويحاول الترويح عنه وتهدئة مخاوفه التي كانت تنتابه كلّما ظهرت ليلي شبه عارية على المسرح وتشرع في الرقص على إيقاع الموسيقى باسمة تلك البسمة الكبيرة الحمراء كمخمل الستائر الأحمر وبريق عينيها الأخضر والبنفسجي والأزرق. ولئن سمحوا له أن يصوّب نحو صدغه ويضع ماسورة المسدّس في فمه ويضغط على الزناد، وأخيراً، إذا لم تكن ليلي في مزاج لتتحملّه فتطرده من الحجرة صارخة به: كوسمه، يا كـ.........، لا تكن ثقيل الدم، لا أريد أن أراك في حياتي العاهرة كلّها، حتى اسمك مكرّر، فكانوا يأخذون معهم كوسمه كوسمه،ويأخذون المسدس منه، لأن أشخاص الملهى كلّهم من: الترومبيتا إلى آلمودينا فرناندث وماري كارمن مولينا، والصينيّ بونيّا وعاملة المغاسل وآرثورو ريّس ولابيّا مانوليتا والمصوّر روبيرا والخلاسية ده فوّيغو، وحتى أخي، كلّهم ماعدا الوكيل آنسلموا الذي كان يثير اشمئزازه المسدّس لكثرة ما مصّه

كوسمه مكرّر، كانوا جميعاً قد صوّبوا نحو صدوغهم وأطلقوا مرّة أو مرّتين وحتى ثلاث مرّات متتالية مقهقهين كلّما أحدث زناد قدح السلاح طقّة جافّة وخفيفة، طقّة غامضة كانت تشبه حسب أخي الضوضاء التي يحدثها عظم فروج إذا قُصِمَ إلى قسمين سوى أنّها أكثر جلالاً وحزناً. ذلك حسب الطريقة التي تُرى بها أو تسمع.

ومهما يكن توبيخ ليلي له، ومهما يتسرّب إلى الجمهور بعد مشادّة مع خطيبها المتقطع، فقد كان شبح كوسمه كوسمه يتجول آخر الليل وسط ظلمات الشارع عند مخرج الملهى، منتظراً أن تمرّ ليلي إلى جانبه من غير أن تأبه به ضاحكةً مع رفاقها، فتخصّه بشتيمة هامسة أو تشير إليه إذا كانت الآلهة راضية بذقنها إشارة خفيفة في الظلمات، إشارة كانت تعني بداية مصالحة جديدة عابرة. هكذا كان الأمر دائماً، وهكذا كان كذلك ذلك الفجر لمّا غادرت ليلي بصحبة أخي وبضعة راقصين آخرين، تاركةً في الظلام كوسمه كوسمه من غير إشارة ولا مسبّه، وذهبت معهم إلى الصومرّوسترو إلى أن فاجأهم ضوء النهار مستلقين على الرمل وبحضور بعض الغجر الذين كانوا يرافقون جماعياً بالتصفيق أغاني أخي والرقص الذي كانت تمارسه عارية الساقين آلمودينا فرناندث.

ولعلّ ضوء الصباح الأول ذاك، بألوانه الحلوة والباهتة والصفر والورديّة والسماوية الغامقة والبنفسجيّة، وحتى الخضر الشبيهة بالأضواء التي كانت تطلقها باستمرار عينا الراقصة وكأن في داخلها صباحاً دائماً، ولعل ذلك الهدوء قد أثّر في ليلي وجعل نفسها جاهزة كيما يحضر كوسمه كوسمه هذه الليلة إلى حجرتها مهمل الثياب أكثر

من المألوف. وبعد كلمات اللوم سمّت ليلي (حماماً) غاري كوبر ذاك المسهّد، وبشفتيها القرمزيّتين المحضّرتين للعرض قبّلت شفتي كوسمه المزدوج، ووعدته بالحبّ. ولمّا اقترح عليها عشيقها الذي كبر بذلك الدفء، أن تترك الملهى وتتزوّجه، لم تجبه ليلي بالغضب المعروف ولا بقهقهة وإنّما ظلّت تنظر إليه بفضول وكأن هذه الكلمات تُسمع أوّل مرّة، فلم تجب بشيء، بل وضعت على شفتيها الساميتين بسمة حانيةً كالبسمة التي توليها طفلاً مريضاً، كبسمتها في الصورة التي تصوّرتها مع أخي الذي أرسلها بالبريد ووضعتها أمّي في مكان بارز من خزانة الخزف التي أصبحت تشبه ملهى من الكرتون لكثرة صور الفنانين فيها. هكذا ابتسمت ليلي بينما كان خطيبها كوسمه كوسمه يطلب منها مرّة أخرى أن تتزوّجه ويقول لها: أرجوك أن تعودي إلى اسمك هورتنسيا، كما كان يسمّيها هو، من فضلك، هورتنسيا، تزوّجيني واتركي إلى الأبد هذه الحياة التي لا تناسبنا.

بهذه الكلمات خرج كوسمه كوسمه من الحجرة، بهذه الكلمات وبفرح بعيد أخذ مع ذلك يتعفّن بعد دقائق بينما شرعت الأوركسترا تعزف إيقاعاتها المتعبة، ورأى ليلي تظهر على المسرح مرافِقة مع راقصين أخرين، غرغرات أرثورويس الأولى. فأخذ كاس الكونياك الذي قدّمه له للتو الخادم البارث، يرتعد في يده، ويوشك أن ينسكب السائل الغامق منه، وبأصبع مشدودة كصنبور، زاد في إرخاء عقدة ربطة العنق الرخوة والمسافرة. وكانت عيناه ترقصان من هذا الجانب إلى ذاك الجانب من محجريهما وهما تتابعان رقص ليلي وخطواتها، تتابعان بسمة ليلي وبياض بشرتها وعينيها. شرب كوسمه الكونياك بجرعةٍ واحدة ونظّف عرق يديه بطيّة ياقة سترته وتمتم في آن واحد

بما لا يُعرف إن كان كلام الأغنية التي على إيقاعها ترقص محبوبته أم صلاةً أو ربّما لعنة، وتقدم بضع خطوات باتّجاه المسرح فأضاء وهج المصابيح وجهه، وسحب من جيبه كما كلّ ليلة، مسدسه المتهافت، وبعد أن أدار البكرة وكرّر الحركة التقليدية بوضع المسدس على صدغه والضغط على الزناد مرّة أو مرّتين، بسط ذراعه وسدّد إلى ليلي. لم يدرِ أحد إن كانت تلك الضوضاء دقّة طبل، أو تحطّم وعاء أو مصباح كهربائي، إذ لم يعتد من في الملهى حتّى ذلك الحين أن تسقط الراقصات ميتات، و تابعت الفرقة رقصها، وظلّ آرثورو يكشف عن الفجوات في أسنانه، حتّى لمّا فقدت ليلي الإيقاع باسمة بسمة غريبة، وسقطت بعد أن خطت بضع خطوات بكعبيها البضّين، على المسرح بهذه الضوضاء اللّينة التي كانت مزيجاً من صرير معدني تحدثه الصفيّحات البراقة وحجارة البكيني، حاولت لابيّا مانوليتا، ولوليتا برّويثو، وخير ونيمو القرطبي، وبعض من رفاقهم أن يتابعوا رقصهم. و لم يقف الرقص وتتعطّل الموسيقى إلاّ لمّا ظهرت تحت رأس ليلي بقعة نامية من مخمل أحمر شبيه بلون الستائر التي تحفّ بجوانب المسرح، وأخذت الراقصات يطأن الدم وينزلقن على المعبر إلى الخشبة.

حينئذ صار كلّ شيء ركضاً وصريفاً. فصاح أرثورويّس الذي كان ما يزال يغنّي نصف غناء، في الميكروفون باسم ليلي بينما كانت صولداد روبي وآلمودينا فرناندث تنحنيان على الراقصة الميتة، وترومبيتا يكتشف الثقب الأسود والبنفسجي في إحدى زاويتي جبهة ليلي. و لم يلتفت أحد وسط ذلك الهرج والمرج إلى كوسمه كوسمه الذي كان يتراجع ببطء ويسير القهقري ناحية سلّم الدخول، من غير أن يكفّ عن النظر وفمه فاغر وعيناه مغبّرتان جداً، ومسدسه ساخن

وأثقل من أيّ وقت آخر؛ يقال أنه كان يقول: هذه الحياة لا تناسبنا، ياهورتنسيا، لا تناسبنا هذه الحياة، وقال البعض أنه كان يبكي؛ وقال البعض الآخر أنه لم يكن يقول شيئاً، سوى أنّه فقد لون وجهه، وكان يبدو أنّه وضع مكياجاً من بودرة الطلق. قالوا أشياء كثيرة، لكنّ الشاهد الوحيد الموثوق في الواقع على هربه، إن كان يمكن أنّ يُسمّى ذلك هرباً، كانت الصورة التي التقطها روبيرا بدم بارد بينما كان كوسمه كوسمه يشرع في صعود الدرج القهقري. وقد كانت حسبما حكى لي أخي بعد سنين كثيرة من ذلك، صورةً يبعث على الخوف النظر إليها على الرغم من أنه لم يرتسم فيها أيّ ذعر محددّ سوى أشكال عائمة، وفي حركة الأشخاص يركضون، وظلال كثيفة جدّاً كانت تستطيل على شكل غامض وكأنما يُراد أن ترسم متاهة، أو كتابة هيرغلوفية حول وجه كوسمه كوسمه الذي كان يرتسم على وجهه الأبيض في بياض الصّورة وسوادها، تعبير ما كان أحد يستطيع أن يعرف إن كان تكشيرة ألم أو بسمة ذعر كانت تتحول إذا شوهدت الصورة بكثير من الإمعان، إلى حشد من الحركات والملامح المتقلّبة.

لكن كوسمه كوسمه، كما قلت، لم يهرب. إذ لا يمكن الزعم أنّ واقعة ترك الملهى تعني هرباً إنما الأمر على العكس من ذلك لأن ما قام به وهو يلبس سترة مجّعدة ويظهر بمظهر غاري كوبّر المسهّد المريض والمستنزف الذي لم يبقَ منه عملياً شيء من غاري كوبّر، كان وفاء لمصير معلن عنه في جسمه وملبسه منذ مدة طويلة سابقة. وبعد أن عبر شوارع خالية وميادين معزولة واجتاز أرباضاً وأراضي خالية في برشلونة، وهناك حيث يصرّ الصمت استلقى على ظهره على سكة الحديد وهو يستمع إلى غناء الجداجد وصرير القرّاص في الظلام

وانتظر إلى أن لاح في البعد ضوء صغير، أو حبابة مرفرفة، وصخّابة، وأخذت تسري تحت جسمه رجّة غريبة وإفراغ شحنة كهربائية عذبة جداً بينما كان الضوء يكبر والحبابة الصخّابة تحوّلت بعد أن عوت، إلى دويّ منفلت، إلى زئير عاصف انتهى بخطف بصره (كما خُطفت عينا ليلي) وامتصّ جسمه كلّه الذي كفّ عن أن يكون جسماً. وكان ضوء مدى لحظات وقاطر وجدجد وحقل وحديد وسماء، وقد انقلب ذلك كلّه، ودار كلّ شيء حتى لم يكن غير الظلام.

بعد يومين خرج من نزل ريّوس - إسبانيا موكب من الوجوه الشاحبة والبزات الغامقة والبكاء المتهدّج، حتى إذا تخلوا بشكل كامل عن (النوتة) وبدؤوا طريق النشاز كانت تعيدهم بحكمة إلى طريق الصواب قائدةُ تلك الأوركِسترا المحزونة: دونيا آنخلينس كورتس اسبلا، ومعها تسير متكئة على كتفها آلمودينا فرناندث رفيقة ليلي الملازمة التي قاسمتها جزءاً من حياتها وكثيراً من الليالي والصينيّ بونيا الذي كان يحمل على شفتيه على شكل صلاة، أحبّ جملة إليه من مهرجان بالوما الشعبي، وبوبيدا الشحّاذ الذي لم يكن يشحذ شيئاً والذي يخرج أول مرّة إلى الشارع منذ سنين طويلة قبل أن تطلع النجوم، وأخي بغرّته المسرّحة وأكثر حزناً ونحولاً من أي وقت آخر ممسكاً بذراع روبيرا الذي كان يلبس بزّة سوداء نظيفة ويغطي عينيه بنظارة غامقة اللون والخادم آلبارث الذي كان يبكي لا كراقصة أخرى وإنما بصمت وكما يبكي الرجال ناظراً إلى الأمام وفمه مطبق، وترومبيتا حليقاً جيّد الحلاقة، لا كموسيقيّ لأن الموسيقيّين حسب رأيه، لا يحلقون لحاهم في ظروف تجعلهم عرضة لكارثة خلطهم بموظفي مكاتب. هكذا كانوا يسيرون بجلال وعلى

وجوههم ضحكات وعيناها في عيونهم ذاتها وفي الكلمات الذي كانوا يهمسون بها مكافحين كيلا تدخل ليلي في عالم الذكريات، وفي حفرة الذاكرة، وقد حلفوا جميعاً بالسرّ على مصارعة الموت.

وما لبث أن صبّ هذا التيّار كنهر بطيء من الألم عند باب المقبرة في موجة من العطور وقبّعات القشّ والنظارات الشمسية التي كان يشكّلها أشخاص الملهى وقد دخلوا كلّهم معاً: آرثورو ريّس كأنّه جثّة تقريبا ومن غير مكياج تضيء غضون وجهه الشمسُ، دون موريثيو ذو الشعر المخلخل والمدهون بالزيت ويضع ربطة عنق سوداء، وإلى جانبه آديلا شبه مختبئة وراء أحد أبهى معاطفها الجلدية على الرغم من دفء النهار، وخيرو نيموا القرطبي، ولوليتا برّويثو، وماري كارمن مولينا والخلاسيّة ده فوّيغو، وفاطمة كومبادوس، والحانوتي كاماتشو، لابيّا مانوليتا وكلّهم عيون تتراقص ما بين دون موريثيو وزوجته وصونصولس آرانغورين التي كانت تبدو تلميذة مبتدئة وجهها مغسول وحول عينيها ظلّ من هالة زرقاء خفيفة تضفي حزناً على نظرتها، آنسلمو الوكيل الذي كان يبدو خارج الملهى والمنصّة هزيلاً وأصغر وأسرع عطباً كعسكري من غير ذي رسمي وراقصون وموسيقيّون وخدم وزبن مواظبون على الملهى، كلّهم جميعاً دخلوا طريقا من دقاق الحصى في المقبرة ترافقه أضرحة وسرو وبرتقال تُشمّ في محيطه رائحة الزهر، وكان يتقدم الموكب إحدى أخوات ليلي التي وصلت من الجنوب الليلة الفائتة، وهي امرأة تكاد لا تشبه أختها، هي أكبر منها وأدقّ، وإنما تشبه أختها في الشكل الصحيح لعينيها وإن لم يكن في الومض المتعدد اللون الذي كانت تبثّه عينا ليلي كلّ مساء.

كانوا يسيرون جميعاً صامتين محزونين إلى أن التقى موكبهم بعد دقائق من تركهم الطريق الرئيسة، وسلوكهم درباً لا تظلله الأشجار، تابوتَ كوسمه كوسمه الذي كان يشيّعه رجل واحد نحيل وشاب كان يلقاه أحياناً روبيرا وأخي مع كوسمه كوسمه عند باب الملهى، ثم رجلان آخران ما كان أحد يعرفهما. وتوقَف الموكبان مدّة لحظات، موكبُ ليلي المعطر والحاشد، وموكب عشيقها المشؤوم الهزيل والضئيل. ولو رآهما أحد هناك وجهاً لوجه كان لا مناص له من التفكير ولو لم يشأ، في هذين الجسمين اللذين سيلتقيان مرّة أخرى في ما بعد الموت من غير أن يدريا هما نفسهما بذلك، على الأرجح كان جسم ليلي الشاحبة والجميلة ما يزال يعبق بالعطر الذي سكبته عليه منذ يومين سابقين. كذلك يمكن للمرء أن يتصوّر الكارثة التي كانت ترحل داخل تابوت كوسمه كوسمه الذي كان يبدو فارغاً ومن غير وزن نظراً للخفّة والسهولة التي كان يتحرّك بها حاملوه. في نهاية الأمر كان كوسمه كوسمه، كوسمه٢، كوسمه للتربيع، جثّة مهلهلة، وصارت ثيابه الآن ممزقة وجسمه ممزع الأعضاء وصار رأسه يقيناً مكان القدمين يتدحرج داخل صندوق التابوت وقدماه كل منهما في أحد طرفي الصندوق.

قال لي أخي أنّه لمّا رأى موكب كوسمه كوسمه الضئيل، راودته الرغبة في الذهاب معه لمجرّد الذهاب وأنه بيّن ذلك لروبيرا، وأن المصوّر قال له الشيء ذاته، لكنهما تبعا في النهاية نعش ليلي ناظرين إلى الخلف مرّتين ليريا إلى أين يذهبون بالمحبّ المنتجر، منكرين بهزّ الرأس. كما أنكروا جميعاً كما هم منكرون حتى وجدوا أنفسهم أمام حائط مملوء بالحفر التي ستكون المآل الأخير لهورتنسيا رويث الراقصة

التي كانوا يسمّونها كلّهم ماعدا كوسمه كوسمه، ليلي. ثمّ حلّ محلّ الإنكار وحركات الرأس حينئذ، بكاء متفاوت كان يأخذ بالتصاعد من جهة ومن جهة أخرى كان يُرافق بشهيق ونحيب وتأوهات من غير رابطة بين هؤلاء وأولئك. وتفككت الأوركسترا تفككاً كاملاً من غير أن تستطيع أن تفعل شيئاً قائدتها القديمة دونيا آنخلينس التي غلبتها الدموع وصورة تلك الشابّة ذات النظرة المرحة، التي جاءت ذات مساء منذ سنين سابقات إلى باب النزل سائلة إن كان يوجد ها هنا غرف للفنّانات، ثمّ صارت الآن داخل هذا الصندوق اللماع في طريقها إلى ذلك البُييت الغريب لاصقة إلى الأبد بضيق تلك الجدران.

وأخذ الركب يتفكّك بعد أن اختنقت الجوقة بالنشيج، وينقسم إلى مجموعات صغيرة من الأشخاص الذين قفلوا راجعين وعلى الوجوه علامات التأثّر سالكين الدرب الخالي من الأشجار أو اقتربوا من الممثّل الوحيد لعائلة ليلي، ومن دون موريثيوثسبدس. أما أخي والترومبيتا فقرّرا أن يسلكا الطريق الذي اتخذه تابوت كوسمه كوسمه، الهشّ وموكبه الهزيل كيما يودّعا أيضاً المحبّ القاتل والمنتحر، بينما كانت دونيا آنخلينس تَرى وهي تطوّق بذراعها آلمودينا فرناندث كيف أخذ دون موريثيو بعد أن أقنع أخت ليلي أن تأخذ مقتنيات أختها، يطارد بنظرته صونصولس آرانغورين، وكذلك رأت لابيّا مانوليتا كيف كانت تنظر إلى دون موريثيو وإلى تلك الفتاة البريئة، وكيف شرع زوجها المصوّر روبيرا يتقدّم نحو صونصولس آرانغورين وهو يلمس بالبنان عقدة ربط العنق.

وعلى الرغم من أن روبيرا تابع طريقه ومرّ على بعد لا يزيد عن

متر واحد من الراقصة الجديدة حتى من غير أن ينظر إليها تلك اللحظة حذراً من نوايا صاحب المقهى، فقد عرفت دونيا آنخلينس بينما كانت تداعب شعر آلمودينا فرناندث المحزونة وجبهتها، أن تلك الفتاة ذات الملامح الحلوة، تلك الطالبة التي مرّ عليها الزمن من غير أن يغير مظهرها المراهق، كانت من خطف منها زوجها. ولقد نظرت إليها ببطء دون آنخلينس وسْط تلك الحديقة من الرخام والأزهار الذاوية،عالمة أنها ستكون المرة الأخيرة التي تُمثل أمام ناظريها تلك المرأة التي كانت تبتسم بحزن لدون موريثيو ثسبدس بينما كانت تمسح بطرف منديلها الأبيض دمعة تائهة. هذه هي المرأة التي في إثرها شرع زوجها فيليكس روبيرا، أو المصوّر روبيرا الذي طالما عرف راقصات ومغنّيات ونساء من الدنيا على مدى سنيّه الطويلة، في ذلك السفر العاطفي الذي لن يعود منه مهما يحدث.

كذلك أخي لمّا عاد من وداعه الأخير لكوسمه كوسمه والحديث دقائق معدودات إلى ذلك الرجل النحيل الذي كان يرأس موكب تشييعه الهزيل، فهم ما إن رأى صاحبة النزل والتقط النظرة التي كانت تحطّ بها على صونصولس آرانغورين، أنها قد خمّنت ما يحدث في متاهات روبيرا الداخلية وفي الملهى ذاته، وما كان أخي يدري إن كان يقدّم العزاء لدونيا آنخلينس أيضاً، أو يعانقها كما عانقها لمّا طوّق معها آلمودينا فرناندث سخيّة الدمع، سالكاً معهما الطريق البطيء نحو باب المقبرة حيث انضمّ إليهم بعد دقائق روبيرا والصينيّ بونيّا الذي كانت معدته المضطربة لغياب الفطور وحلواه المباشرة، تُصدر زمجرات كزمجرات الأنابيب المسدودة، وكعواء ذئب بحّ صوته في ظلمة فيلم عتيق.

لم يكشف لنا أخي في رسالته عن شيء مما حدث في المقبرة، ولا عن اكتشاف دونيا آنخلينس ولا عن تلك البحّة والغناء الغريغوري المفكّك الذي كان للصيني في حشاه والذي كان يمكن أن يُضم إلى برنامجه السحري. أمّا ما قصّه حقّاً في رسالته فقد كان موت ليلي، والطلقة التي لم يصدّق أحد أنّها طلقة وقصّة سقوط الراقصة وسْط المسرح، التي حتّى لمّا كانت على الأرض، ظلّت تحرّك قدميها وكأنها تتابع رقصها، مثل تاتين الذي إذا التقط الكرة وسقط على الأرض، يتحرّك حبواً فوق الكرة كالسلحفاة. وأنا لمّا سمعت أمّي تقرأ بصوت عالٍ على أبي وأختي، ذهبت إلى أمام خزانة الخزف ونظرت إلى صورة ليلي، متخيّلاً تاتين وضوضاء تاتين وضوضاء الراقصة عند سقوطها بالبكّيني وشبكة الحجارة الرخيصة وقد انغرزت في رأسها. وفكّرتُ في صورتها أيّام كنا نأكل في حضورها من غير أن نعرف أن صاحبتها ماتت، وفكّرت أن صورة ليلي كانت كتلك النجوم التي تموت في أرجاء الكون وتظلّ تضيئنا حتى حينما تكون غير موجودة.

وكهذه النجوم التي لا تختفي من السماء إلا بعد مدّة من موتها، سُحبت صورة الراقصة سراً من خزانة الخزف في اليوم التالي لتلقّينا رسالة أخي. ولئن لم تتكلّم أختي أثناء الطعام وكذلك أمي خاصّة أبي كما يتكلّم منجمّون مهووسون، إلا عن موت ليلي على المسرح، و عن الأخطار في الملهى، فقد ظللت صامتاً أو من غير أن أسأل شيئاً ممّرراً بألم كبير حساء الخضار في حلقي من غير أن أنتهي إلى الاعتقاد أن الإله،أوّ يهوه، أو الله أو القلب الأقدس أو العذراء، أو أيّاً يكن من يحكم العالم حقاً، يمكن أن يمحو من الفلك نجمة مثل ليلي، أو ألا يسمح لضوئها أن يسطع مرة أخرى أبداً، كفحم حزين قد استنفد طاقته.

لكن، أخذت تنطفئ في ما حولي أضواء باكراً جدّاً، حتى جاءت بمرّ السنين، لحظة بدا فيها أن العالم صار خزّاناً كهربائيا ناضباً ومن غير طاقة، وقد صدأت صمّاماته، أو أنّ النجوم التي كانت تضيئني لم تكن شيئاً أخر غير مصابيح بائسة في معرض تهبّ عليه ريح عاصفة تنزع من الأساس شرائط المصابيح وتفجّر أسلاكها الداخليّة وزجاجها بعواء لا يمكن لأحد أن يسمعه. وكذلك وصلت بمرّ السنين إلى التفكير في أن الركض الذي قمت به ذات يوم بعيد في بيت تاتين، وهربي من تلك المتاهة من الخالات والممرّات الملأى بصور مزيد من الخالات، كان له ما يسوّغه، لأنني لمحت في بسمات تاتين، وبسمات خالاته وصديقه الأحداثَ التي تتوالى ملفوفةً في نسيج شفّاف وبالضباب وكأنّ دودة قزّ قد نسجت شرنقة حولها والتي كانت معلنة في تلك البسمات المتجمّدة التي كانت شبيهة بتكشيرات الموتى في توراة الأب ديغو مانويل، أولئك الذين يظهرون بوجه من هو ليس أحداً ما، وجد مختلفين عن الموتى في الأفلام وعن البشر الأحياء.

هذا ما حدث لي، أوظننت بمرّ الزمن أنه حدث لي ذلك المساء في بيت تاتين. وإنْ يكن الثابت أنّ دودة القزّ تلك ظلّت تعمل بسرعة كبيرة حتى أني لمّا وصلت بيتي حاولت أن أفكر في هذه الرؤية التي ما كنت أعرف إن كانت في داخل نفسي أم خارجها، لأنّ حبكة الخيوط صارت جدّ كثيفة حتى كان يبدو محالاً أن أعرف ماالذي تحوكه سرّاً الأزمنة القادمة التي جلبت لنا في لحظة وعلى شكل جديد،تلك العلاقة بين تاتين وأطبائه. علاقة صارت في زمن قليل جداً روتينيّة، وعوّدتنا جميعاً أن نقطع المباريات ونغيّر بسرعة حارس مرمانا، لمّا كانت تظهر وسط اللعب شاحنة خالة تاتين الصغيرةُ وكان صديقنا يسعى نحوها

بسرعة كبيرةٍ يكاد يترك خلفه ساقيه والحدائد وكأنّه سيوقف كرة مندفعة كان قد قذف بها القدر.

وكنا نرى من كل جانب وفي كل ساعة عربة خالة حارس مرمانا تقلّ معاوناً لها أيّاً من خالات تاتين الأخر بالتبادل، وتقلّ تاتين أيضاً مسافراً في الجانب الخلفي وسط الحدائد ودواليب بديلة. وكنّا نلتقي تلك العربة المسافرة في شارع مرْمولس، وفي باب سيرّانو صعوداً في شارع أوخينيو غروس وأمام كشك فورتس أو في شارع قطالونيا عند عودتنا من المدرسة، مخلّفة لنا كأثرٍ لها صورة تاتين وجمّته الشقراء ويديه الخرساوين قائلتين لنا من خلال الزجاج الخلفي: وداعاً. وما كان تاتين يكشف لنا غير نصف كشف من الغاية عن ذلك التنقّل، فكان يتحدّث عن تحاليل وأمراض، لكنه ما كان يوضّح قطّ، لما بدأ تلك الرحلة التي كان يؤخذ منه دمٌ فيها، ويقيسون عظامه ويفحصو عينيه حتى كادوا يكشطون ما وراء أذنيه وقمّة رأسه، وكأن جسمه صار فنزويلا والبحر الأسود، والأطبّاء منقبين عن النفط. لكن، على الرغم من أنّ أحداً ما كان يطرح عليه أسئلة، ولا هو كان يغامر بإبداء تكهّنات، كنا ندرك جميعاً ضمناً موقفه ذاك، أنه كان يتصوّر إمكانية شفائه أو على الأقل تحسين حالته. وما كان بحاجة إلى أن يتكلم عن صفائح تحت الجلد، ولا عن عمليّة جراحة تعويضية في الغضاريف كما تحدّث بعد ذلك، لنخمّن ماذا كانت أحلامه. إذ كان يكفي سماعه يهدّد المهاجمين بانتزاع مراكزهم منه، وانه سيقوم بحركات سريعة ويقوم بمراوغات بمهارة تفوق مهارة كاستيّو. ذلك أن تاتين كانت له روح وسط الهجوم. وما كان عليك إلا أن ترى وجهه إذا تعبنا من اللعب فيما بيننا بعد مباريات عدّة، واحتلّ مكان لاعب

هجوم متعب ومستاء، فيرضى أن يبادله موقعه كيما يستريح، حتى إذا وجد نفسه أمام المرمى المقابل، وهو الذي ما كان يستطيع أن يتعدّ عن منطقة الجزاء إلى احد الأطراف بسبب الشلل الذي كان يشكّل عائقاً له أقسى من أي دفاع يمكن أن يواجهه في حياته، كانت تنفرج أساريره من الطمع، وتطلق نظّارته وميضاً وتتراقص ساقاه في تخلّع لا يمكن السيطرة عليه. وفي المرّتين اللتين سجّل فيهما هدفاً في حياته من غير أن يتنبه إلى أن بقية اللاعبين كانوا يسخرون منه ولا يلعبون، ضمّ يديه إلى بعضهما ونظر إلى السماء وكأنه يصلّي، ولو استطاع أن يثني ساقيه لركع على الأرض يقيناً كاتفاً ذراعيه مطبقاً عينيه.

لكنّ تاتين ما كان يتحرّك من مرماه في ذلك الوقت منتظراً مناسبة قريبة ومجيدة. كان حلمه الوحيد أن تجرى له جراحة، وأن يأتي ناس أغراب مقنعون فيُدخلونه غرفة عمليات فيها حدائد مسنونة ومثاقب ومناشير فولاذية صغيرة، ويتصرفون به بالعمق، محدثين فيه جراحاً فاتحين ثقوباً مُدخلين أصابعهم وحدائدهم في جسمه وكأنهم يعملون في مجرى ضيّق جدّاً، ثمّ يخيطون جسمه كأنه ملاءة أو بنطال ممزّق. كان ذلك حلمه. وهو حلم كان يصيبني بالدوار، ويكاد يصيبني بالإغماء، وكأنني سقطت من شرفة أو من برج يتطاير أو كان يتطاير منقضّاً على أرض كانت تُلمح من بعيد أنها من إسمنت وحجارة.

في المدرسة ما كان يخرج الصوت من جسمي لمّا سألت لويسيتوسانخوان إن كان يرضيه أن تجرى له عمليّة جراحيّة. فرفع رأسه عن ورقة الكتابة وظلّ ينظر إليّ من غير أن يعرف عمّا كنت أتكلم وعيناه جدّ مواربتين حتى أدركت حينئذ فحسب أنّه لم يكن يكتب

ورقته ولا عمليّة الجمع ولا شيء، إنّما كان ممسكاً بقلم الرصاص وهو غافٍ ورأسه مائل. ومع ذلك كلّه ألححت في السؤال:

أترضى أن تُجرى لك عملية؟ يجريها الأطباء.

وحينئذ لم تبدُ على لويسيتوسانخوان أنّ له عيني نائم، بل عيني سكران، كالسكارى الذين يظهرون في الأفلام والذين لا يستطيعون أن يقفوا على أقدامهم لأنّ ما يريدونه هو نسيان الفتاة التي داستها سيّارتهم، أو الصديق الذي قتلوه خطأ. وأجابني بعد لحظات وعيناه دامعتان بسبب التثاؤب الذي كبحه لتوّه.

– انتُزعت لوزتا ابن عمّي، ثمّ جاؤوه بحلويات كثيرة إلى المشفى. وكذلك آيس كريم من محلّ ميرا وثورّون. – ولبث يتفكر، لا أدري إن كان يتذكر طعم الآيس كريم من محل ميرا أو عمليّة ابن عمّه –. لكنه صار يبصق دماً، وتقيّء كل شيء، تقيّء الآيس كريم وكل ما كان أكله. كان أشبه بنافورة – أضاف وعيناه ما تزال مائعتين –. كان يبصق دماً كل الوقت – تمتم لويسيتو سانخوان من غير أن ينظر إليّ الآن وكأنما كان سيظل نائماً، وذكرى ابن عمه تشكل جزءاً من الحلم. لكنه مسح عينيه بدلاً من أن ينام مرّة أخرى، وبدأ يرسم ببطء شديد، الأحرف على الورقة التي ما كان يعرف أحدٌ كم من الوقت قضاه في كتابتها.

أمّا تاتين فلم تسبّب له العمليّة أيّ دوار، بل على العكس، كان مشعاً، وإذا ما رأى من بعيد شاحنة خالته الصغيرة، فما كان يتردد حتى يشرع في ركضه المخلّع ويترك الفريق في اضطراب. وبعد مناقشة لا طائل منها حول من يجب أن يحلّ محلّ تاتين في حراسة

المرمى كان ينكفيء كلّ على أموره: ببيتو راسماً إشارات من دخان من داخل شاحنة كويّكورتو، وأخوه فرنسيسكو حافراً حفراً ليلعب بالكرات وحده؛ كاستيّو جائلاً ببنطاله الطويل تثيره حكّة البثور؛ دييغو مانويل طالباً عبر نافذة بيته شيئاً يأكله: فخذ فرّوج، جزراً نيئاً، باذنجان، معجنات أو مارتديلا؛ الموكوس والغيّة يقومان بحماقات ويتمرّغان على الرصيف؛ باريا ناظراً إلى طرفي حذائه وقاصّاً على النونو كيف يعمل أبوه في ألمانيا،وعن ضخامة المصانع في ألمانيا وعلى اضطراره إلى أن يتدثّر بالمعطف كيلا يتجمّد من البرد ويموت ككلب متروك في شوارع ألمانيا. وإذا ما تعب الموكوس أحياناً من الشجار مع الغيّه، بينما يظلّ باريا يتحدّث عن أبيه وألمانيا إلى كلّ من يريد أولا يريد أن يسمعه، ويظلّ الآخرون في شؤونهم، كنّا الموكوس وأنا نجتاز ناصية شارع لانوثا ونعبر شارع بيلايو، وهنا كنّا ندخل عند بوّابات حي ترينيداد، دهليز بيته، الذي كان كل ساعة وإن يكن مساء، تعبق به رائحة الطبخ والغسيل. وكان الموكوس يصعد الدرجات ثلاثاً ثلاثاً وفاءً لما لا أدري من وعد، أو عادة قديمة، من غير أن يهتمّ بارتفاع الدرجات الكبير ولا بارتجاج السلّم كلّه، وكان أقلّ اهتماماً أن تصرخ به من الفناء الجارات ما بين ساخرات وخائفات: انطونيتو، خرء على بلدك، سوف تهدّ البيت فوقنا.

كان الموكوس يدخل بيته متسلّقاً الجدار كسامّ أبرص. وكان يبدو أنه له في أصابعه وراحتي يديه محاجم كانت تساعده على التغلّب على قانون الجاذبيّة، فيزحف عمودياً لاصقاً بالجدار سيء التكليس حتى يبلغ النافذة الضيقة التي كانت تلامس السقف تقريباً. وأنا الذي كنت تعودت هذه الاستعراضات، كنت أسمعه يسقط في الجانب الأخر

من الجدار، وكنت انتظر واقفاً أمام بابه ثواني معدودات إلى أن ينفض الكلس عن يديه وركبتيه قبل أن يفتح لي. كان بيت الموكوس مكوناً من حجرة واحدة أو حجرة ونصف الحجرة حسب النظر إليه. لكن، كان يبدو أنه يضع في داخله الأشياء كلّها التي يمكن أن يستوعبها بيتان كاملان، كان فيه حلل، وصحون وكراسات مفتوحة، وكنزات، وجوارب وملاءات مجعّدة، وكتب مدرسية مهترئة الأطراف وبناطيل وتنورات وقناني، وقطع خبز وإيصالات كهرباء وفناجين فيها قليل من تفل قهوة جافّة وأقلام رصاص، وأحذية لا قيمة لها ومناشف وملاعق، ومخدّات، ومجلات مصوّرة وبناطيل داخلية، ومقصّات وبرتقال وطشوت، وما لا يعرف أحد كم من أشياء أخرى كانت تتكوّم موزّعة بفوضى متباينة في الغرفة كلها وكأنما مرت من هناك عصابة من قطاع الطرق، أو من أولئك الشرطة الذين يدخلون بيت البطل ويشرعون في قذف الأشياء الموجودة فوق قطع الأثاث وتقليب الدروج رأساً لعقب ونبش الفراش، بحثاً عن مفتاح أو ماسة أو عمّا يبحثون عنه في هذا الفيلم سوى أنه ما كان يوجد في بيت الموكوس من قاطع طريق آخر ولا شرطي أخر سوى الموكوس ذاته. وفوق ذلك كان السرير متصدّعاً أو على الأقل هذا ما ظننته لأنه صعب جداً في الحقيقة، إثبات ذلك،نظراً لفوضى المخدع، لأن الموكوس كان يسمي مخدعاً الزاوية التي كان فيها السرير ومنضدة ليلية، لأن السرير كان مغطّى بالخرق والحاجات الصغيرة التي أحسب أنها لا ترفع عنه عند النوم، وأنّ الموكوس وأمّه كانا ينامان أسفل مصطبة صغيرة يبدو أنها مطبخ، أو بين الكراسي والمنضدة التي تتلقّى اسم غرفة المعيشة.

لكنّ الخزانة كانت أبعث شيء على التأثير في النفس في البيت،

كانت خزانة بطينة أو عملاقاً أُتخم أكلاً أو سكرانَ أو بوليفيمو[٢] ذا باب مفتوح، يقوم مقام بيت المونة أحياناً حيث تُطلّ ذيول سجق، وجـزَرٌ وعلب كونسروة، وفي آن واحـد، بقايا عباءة ذات نسيج مطبوع أو خرقة ما هربت من الباب المجاور الذي كان مغلقاً دائماً وفيه مرآة مشقوقة شقّين. وشرعنا إزاء مرآة بوليفيمو هذه، نتناول حليباً مجّففاً، ولا أدري إن كان ذلك سخرية من العملاق ذي العين الجريحة جرحاً سّيئاً أو من أنفسنا، فقد تسلّق الموكوس دروج بطنه كما كيرك دوغلاس الذي عزم على طعن المسخ بالرمح، كيما يحصل على علبة ذلك المسحوق الأبيض الذي كنّا نلتهمه بالملعقة بينما كنّا نرى وجهينا في المرآة، وكنّا نتظاهر ونحن نحرّك رأسينا من جانب إلى آخر أنّنا ننشر عنقي صورتينا بالشّقّ الذي كان يخترق الزجاج من جهة إلى جهة عند مستوى غلصمة صورتنا الأخرى بالضبطِ.

سئمنا من قصّ أعناق صورنا بمقصلة الخزانة العوراء، فانتقلنا بعد ذلك، كيما نتذوّق على شكل أفضل ذلك المسحوق الأبيض المبارك، إلى مكان آخر في المنزل، إلى نوع ملحق بالغرفة معزول عن البقية بستارة خضراء اللون. لم يصل إلى هنا كما يبدو، غضب الأوغاد، أو غضب الإعصار الذي كان يقتحم البيت كلّ يوم. إنما كان يوجد زوج من علب الكرتون، وصندوق وبعض الكراسي المبعثرة، ومنضدة كان يوضع عليها دائماً لعبة بناء ميكانيكية كان الموكوس يغرق فيها حتى ساعات متأخّرة من الليل منتظراً عودة أمه من العمل، ويغلبه النوم

٢- أحد الجبابرة وابن نبتون. أسر أوليس وبحارته، لكن أوليس استطاع أنْ، يفقأ عينه الوحيدة، ويحرّر نفسه ورفاقه.

أحياناً، فيضع وجهه بين صمولات وشاحنات ذات سيور معدنية ما كانت تشبه شاحنات ولا شيئاً. وهكذا كنّا وسْط الرافعات والجسور المبنيّة نصف بناء، نغرز ملعقتينا في ذلك المسحوق الذي كانت ترفض أمّي أن تشتريه لي، والذي كان يسبب الكساح وليس مغذّياً كما الحليب الحقيقي ويلتصق بسقف الحنك كما كريّات خبز القربان، لكن من غير أن يكون خطيئة تقليبُ عجينة الخبز باللسان، ومن غير أن يبدو المرء عند مضغها طفلاً يحملِ على كتفيه حمَلاً، طفلاً ذا رأس لمّاع وكأنّه يحمل على رأسه مصباحاً كهربائيّاً مشتعلاً.

ظلّ ترومبيتا بضعة أيّام متتاليات يعزف في حجرته من غير أن يأكل أو يذهب إلى الملهى. و لم يكن يسمح لدونيا آنخلينس أن ترتّب سريره، وما كان يأكل ما كانت تأتيه به إلى غرفته ولا البرتقال ولا البسكويت ولا الحساء الذي كان يكفّ عن التبخّر ويبرد على المنضدة الليلية، بينما كان يعزف على ألته بنغمة خفيضة جدّاً تكاد تكون همساً. وكانت دونيا آنخلينس تسمعه والدموع في عينيها مستندة إلى إطار الباب، لا تطاوعها القوى كيما تذهب وتتخلّى عن سماع هذا النحيب المتناغم جدّاً. وكان يعزف أحياناً في منتصف الليل فتصير ذبذبة البوق عواء حزيناً، عواء ذئب جريح في ظلمات الثلج في فوضى حقل ملاءات الترومبيتا الذي كان يظلّ مسهّداً أخرس، والذي لم ينطق خلال تلك الأيام إلا بسبع كلمات:

he visto la sonrisa de la muerte: لقد رأيت بسمة الموت.

كفّ النزُل عن أن يكون الجنّة. إذ كان واضحاً قبل موت ليلي

أن ذلك المكان كان الجنّة، على الرغم من أنّ الصينيّ بونيّا كان ينام بالمكياج ويترك على الملاءات أثراً منه بلون الزعفران،كان يثير غضب رفاقه، وعلى الرغم من أن ترومبيتا كان يدفع حسابه متأخّراً دائماً سبعة أشهر أو ستة أو تسعة، أو على الرغم من أن المصعد ما كان يعمل، فقد كان يبدو لهم جميعا جنوناً أن يملأ الدارسون قصبات رئاتهم بالغبار لكثرة تقليب الكتب القديمة، أو أن يسعى علماء الآثار في العالم باحثين بمعاولهم وحدائدهم عن أيّ عصر وفي أيّ مكان كانت جنّة عدن، إن كانت منذ خمسمائة واثنين وثلاثين ألف عام، أو منذ أربعة وعشرين ومليوني عام، أو إن كانت بين دجلة والفرات أو في قلب الصين، لأنّ الجنّة الحقيقية الأرضية التي خلقها الله كانت نزل ريّوس – إسبانيا في برشلونة، وهكذا، كان ينبغي لكتب التوراة وكتب العهود القديمة كلها أن تضع: خلق الله الجنّة الأرضية وأن هذه الجنّة كانت في نزل ريّوس – إسبانيا وفيها ملاك حارس ويد الله اليمنى، وكان اسمها دونيا آنخلينس كورتس اسبلا.

أمّا الأفعى الوحيدة التي كانت في هذه الجنّة، فهي أفعى الغيرة وأفعى الجنون والهوى، وكلها سواء. وكوسمه كوسمه قابيل جنّة عدن تلك، كان قابيل غير مختار، وقد طار صوابه من غير إرادة منه. وإذْ بدا أن الممرّات في النزُل قد استطالت، والكلمات صار لها صدى لم يسمعه أحدٌ من قبل، وقطع الأثاث لها ظل ما كان رآه أحد من قبل، كذلك أثار في الملهى موتُ ليلي بالطريقة ذاتها جوّاً حزيناً كان يلاحظ في الإيقاع الناعس الذي كانت تسجله الأوركسترا من غير الحيويّة الضرورية لحجب غرغرات آرثورو ريّس وانزلاقاته. وكان الحزن يُلحظ في الخطا التي كان يخطوها الخدم، وفي قلّة حركة الصواني،

حتّى لا نتكلّم عن وجوه الراقصين ونظراتهم التائهة أو عن الدموع التي كانت تهطل صامتة على وجه آلمودينا فرناندث مثيرة فيضاناً من المكياج، بينما كانت ترقص وتثير الإعجاب بساقيها.

وإذا كان من شيء يزيد في التّوتر في الملهى فقد كانت الخصومة الصّماء التي استقرت بين روبيرا ودون موريثيو ثسيبدس. وكان دون موريثيو يقضي الليالي ذاهباً من هذا الطرف إلى الطرف الآخر في المحلّ، طائفاً بحجرات الفنّانين ليحثّهم ويقول لهم: إن أكثر ما كان سيرضي ليلي، وإن أكثر ما يرضيها الآن أن تراكم من عليائها من فوق الأضواء والتراموي، تؤدّون أدواركم بفرح وترقصون في ذكراها خيراً من أيّ وقت مضى. وإذْ لم يكن يرى حماسه مُعدياً، فكان يبدّل بالبسمة تعبيراً مرّاً ويُطلق بشكل مُبطّن التهديد: أن المحلّ من غير جمهور لا يمكن له أن يدوم، ومن غير المحلّ ينتظرهم جميعاً الجوّ العاصف والعراء. وكان دون موريثيو يهرب من الحجرات إلى الأوركسترا، وعند كلامه إلى الموسيقيّين كان يضرب الطبل ضربات ليدعم كلماته التي كانت شبيهة جدّاً بالكلمات التي كان يقولها في الحجرات، إلا أنّ الابتسامات كانت أقلّ، والتهديد أكبر، ومن هناك كان يجري حتى الحاجز ويقف شبه مختنق عند موائد الزبن المعروفين، فكان يبتسم لهم ويربّت على أكتافهم، ويتظاهر أنه سيجلس، لكنّه كان ينهض قبل أن تلمس إليتاه الكرسيّ، ليتابع طريقه المتعرّج نحو الحاجز حيث الخطاب الذي كان ألقاه على الاوركسترا قد انحلّ، فيفقد دون موريثيو كل لمحة من اللطف، فكان يجفّف عرقه بالمنديل ويأمر الخدم أن يكونوا أكثر نشاطاً ويقول أنه لا يريد أن يرى أحداً نائماً، لأنهم كلّهم نيام، بل هم أشدّ موتاً من الموت، وأن أحداً لم

يحزن كما حزن على ليلي، لكن لِيْلي في دنيا المجد، وهم في باب الجحيم، وكان يسأل إن كانوا لا يعرفون الابتسام، ويقول: الابتسام شيء هكذا، وكان يجعل وجهه كوجه صينيّ، فيضع أصابعه في فمه ويشدّ من طرفيه إلى فوقُ حتى كان يبدو سمكة متعرّقة ابتلعت شصَين. وظلّ الخادم البارِث ينظر إليه بلا مبالاة، وبوجه الضجَر ذاته الذي كان ينظر به إلى الأفلام التي لا يظهر فيها غريغوري بيكْ. أمّا آنسَلمو الوكيل، حتى ما كان يقف ليسمعه، بل يظلّ يسير خلف المنصّة منصرفاً إلى شؤونه، بينما كاماتشو وهو من غلْكادَنو، كان يجيبه: أنا خمّار، حذارِ، أنا خمّار ومن غلْكادَنو. وما كان ينصت إلى موعظة صاحب الملهى سوى التوءمين بِيْنيتز لأنهما متعاقدان بصفة مبتدئين.

وكان هذا التهديد الذي كان يمارسه دون موريثيو ثسبِدس على عمّاله، والذي أُعفي منه المغنّي المنفرد آرثورُوريّس لقدمه ومكانته، يتبع مدرجاً منحدراً يبدأ من الراقصين حتى الخدم وتستقرّ نقطته الأدنى عند المصوّر روبيرا، لا لأنّ روبيرا لم يكن يلتقط صوراً أقلّ، أو أنّ هذه الصور كانت أسوأ ممّا كان يلتقطه قبل أن تسقط ليلي على المسرح بالضوضاء ذاتها التي كان يُحدثها تاتين إذا تصدّى لركلة جزاءٍ يطلقها لاعب من غرانخا سوارِث، بل على العكس، كانت صور ذلك العهد كلّها جديرةً أن توضع ضمن أطر، لأن الكارثة والحبّ جعلا حساسية روبيرا رقيقة، صور وإن لم يكن يظهر فيها غيرُ راقصة جالسة إلى جانب زبونين، فقد كانت تبعث على الرغبة أن يظلّ المرء ناظراً إليها طيلة نصف حياته، وما كان بمستطاعه أن يراها رؤية كاملة، فقد كان يظلّ فيها شيء معلّق، وكأن روبيرا لم يضعها في سائله المثبّت المشهور، وكانت الأشكال والظلال الممثّلة فيها تغيّر من تعابير الوجه والمكان، وفي كلّ لحظة كانت تفسح

المجال لرؤية صورة جديدة وأكثر جمالاً أيضاً. «أنت تسير في طريق الفنّ بحرف كبير، ياروبيرا»، كان يقول له في النزل الشحّاذ بوبيدا، وهو ينظر إلى تلك الصور من فوق كتف المصوّر. «لا تضعفْ، المجد اللاحق بانتظارك، مجد المختارين»، حكم بوبيدا قبل أن ينطلق إلى الشارع على درّاجته بأدوات السنّ مع حلول الليل.

لكنّ روبيرا ما كان ينتظره أيّما مجد سوى وجه دون موريثيو ثسبدِس المحتقن، موريثيو الذي إذا فاجأه برفقة صولداد روبي، كان يسيل لعابه ويأمره أن يكمل عمله وهو يرطن بالمصائبِ التي تتربّص بالملهى إذا لم يبذل الموظّفون جهداً في أداء مهامّهم، «كلٌّ ومهمّته». وكان المصوّر روبيرا يُخرج ظرفاً فيه الصور التي قام بها اليوم السابق، وكأنها ورق قديم أو شيء لا يصلح لشيء ويلقيها على المنصّة، أو على منضدة، أو فوق مقعد، أو حسب المكان الذي يوجد فيه بذات عدم الرغبة التي يُلقي بها لاعب على البساط ورقَ اللعب الذي كان سبب خسارته، ويجيب صاحبَ الملهى ومن غير أن يتبدّل فيه شيء ويكاد لا يرفع صوته:

لا تسئِ التصرّف، يا دون موريثيو، لا تسئ التصرّف. ولا تنتهز موت امرأةَ لتثير الصخب ولتستغلّ الناس.

وكان روبيرا يلمس غرّته، الآن نعم، كبطل في خطر، ويفتل شاربيه ويضيف ونظره يبرق:

لا تشتّت لعابك معي، ولا تضع وقتك. وما تقوله وما تفكّر فيه خرْء عندي.

وقبل أن ينطلق دون موريثيو لإجابته، يكون المصوّر قد أدار له ظهره بعد أن يودّع بنظرته صولداد ويتّجه مع آلته المعلّقة بالشريط إلى الحاجز لو حجرات الفنّانين، أو إلى قاعدة خشبة المسرح، حسب المكان الذي كان حدث فيه اللقاء، وحسب النقطة الأبعد عن ذلك المكان. وكان أشخاص الملهى جميعاً معلّقين بتلك الخصومة، وكانت لابيّا مانوليتا معلّقة بها أكثر منهم جميعاً. فحيثما تكن صولداد روبي، وحيثما يسرْدون موريثيو تتجهْ عينا لابيّا مانوليتا اللتان ازدادتا سواداً بالغيرة، عيناها كانتا كهفين، أو سردابين أو بئرين من غير ماء ولا نهاية.

في الزيارات العرضية التي كانت تقوم بها دونيا آديلا ومعاطفها الجلدية لدون موريثيو، كانت لابيّا مانوليتا التي طالما كانت متحفّظة طيلة أعوام كثيرة إزاء السيدة تسبدس، تقترب من طاولتها وهي تهزّ ردفيها كثيراً وتطلب من صاحب الملهى أن يُشعل لها السيجارة، وهي تخاطبه من غير كلفة. وكانت تمصّ سيجارتها بأناة كبيرة وتظلّ واقفة عند حافّة الطاولة وهي بالبكّيني ذي الحجارة الرخيصة والبدلة البنيّة الفاتحة، وسرّتُها العارية عند مستوى عيني الزوجين، من غير أن تأبه بتكشيرات دون موريثيو ولا بطلب دونيا آديلا أن تجلس معهما، ناظرة إلى زوايا الملهى كمن يحلم بأفق بحري ذات يوم شتوي، نافثة الدخان من انفها. وحينما يصبح دون موريثيو على شفا الاحتقان، وتتجمّد بسمة دونيا آديلا كانت تشير لابيّا مانوليتا بذقنها إلى صولداد روبي متوجّهة بالكلام إلى زوجة دون موريثيو وكأنهما كانتا وحيدتين ولا يستطيع أن يسمعهما أحد، وتقول بصوت جافّ خشن.

ها هي هناك البعوضة الميتة ذات الخرقة الخضراء، هي عاهرة

كبيرة خطرة. لقد امتصّت المستجدّة روح كثيرين إن لم نقل فتحات بناطيلهم، أو أيّاً تكن.

هيّا إلى المسرح، يا أماليا! – كان دون موريثيو يحاول أن يفرض نفسه.

سبق أن رقصت. ألم تريني؟ – سألت لابيّا مانوليتا دونيا آديلا، وهي تنفث مزيداً من الدخان.

إذاً، إلى الحجرات، أو إلى «الدردشة مع الجمهور».

هي عاهرة كبيرة، يا سيّدتي، ما عليك إلا أن تريها. – كانت تؤكّد الراقصة ببطء شديد، وهي تلوك الدخان الذي لم يكن يكفّ عن الانطلاق من منخريها بينما كانت تبتعد عن الطاولة وبندول ردفيها يذهب من الشرق إلى الغرب فحسب – هي وطواط!

لكنّ غضب لابيّا مانوليتا كان يبلغ ذروته إذا ساور دون موريثيو الضعف فيحدّثها عن إحدى فضائل الراقصة الجديدة أو يوحي لها بشكل ما أنها كان يجب أن تشتري هذه البدلة أو تلك التي كانت لائقة بصولداد، حينئذ تتحوّل عشيقة دون موريثيو إلى جبّار بحر حقيقي يصبغ بالسواد كل شيء أمام أعدائه، كما حدث ليلة دخل صاحب الملهى حجيرة لابيّا مانوليتا بدعوى الصلح فيما بينهما، فقبّل عنقها ببطء شديد وهي تنظر إلى وجهه في المرآة، ووضع إلى جانبها وسْط علب الكريم، وفراشي المكياج، علبة صغيرة ملفوفة هديّة. فانقضّت أظفارُ الراقصة، المسنونة كسحابة من العصافير ذات مناقير حادّة، على

ورق الغلاف وأخرجت من حشاه قارورة عطر صغيرة، إن أثارت في البداية فرحها ودفعتها إلى أن تقبّل عَرَق دون موريثيو، إلاّ أن البسمة صارت مرارة، والصوت كهفاً، والعينان والوجه كله ليلاً مظلماً ذا رياح باردة ورعود وبروق تجلد وجهها، لمّا نزعت السدادة ولمحتْ في ذلك العطر الرائحة التي تخلّفها صولداد روبي عند مرورها. فطارت الزجاجة من فوق دون موريثيو ثم تحطّمت على مرآة أخرى من مرايا المكياج. ومرّت أظفار لابيّا مانوليتا في طيران خفيض كعشرة نوارس ونسور وطوقانات، فوق وجه رجل الأعمال الذاهل الذي استطاع بألم قاس أن يتحاشى الهجوم، وقد سال الدم خطوطاً على وجنته.

كانت رائحة العطر المسكوب تزداد وتغمر كلّ شيء في حين كان صراخ الراقصة يسيطر على الحجرة وما حولها. وكان أثر ذلك البخار عليها كأثر السمّ الذي يُطلق في الأفلام الأمريكية في غرفة الغاز، وأخذ وجه لابيّا مانوليتا يحتقن بالطريقة ذاتها التي يتقلّص بها وجه المحكوم عليهم بالموت بالغاز حينما يصبحون بلا هواء. فقد غُصّ حلقُها بالشتائم وتشنّجت عضلاتها ولمّا ينجلِ عن وجهها الرعد الذي كان انفجر فيه. وفجرّت العاصفة مجاري لابيّا مانوليتا قبل أن تركع على ركبتها، ونبعت من عينيها دمعتان سوداوان وطويلتان كانتا تبدوان مكوّنتين من مادّة عينيها ذاتها، وقد ماعتا من الاختناق بدلاً من البكاء والمسكرة.

هُرع فوراً لمساعدة آماليا مورينو الأكثر شهرة باسم لابيّا مانوليتا، آنسلمو الوكيلُ وموسيقيان جلبهم الصراخ، فنقلوها إلى صوفا استطاعوا فيها أن يعيدوا النفَس إلى الراقصة بوساطة الترويح عليها

بالمراوح، ووضْع ساقيها ويديها في إناء فيه ثلج من ذاك الذي يُستعمل للحفاظ على برودة الشمبانيا، وإذْ أزيل انسداد القصبتين وانحلّ غاز العطر السّام، أبدت لابيّا مانوليتا بعد جشْأة طويلة متلويّة، دلائل واضحة على استعادتها الوعي بصيحة كهفيّة جعلت دون موريثيو أكثر التصاقاً بالحائط الذي كان يستند إليه:

لوطيّ كبير!

كفّ دون موريثيو ثسبدِس صاحبُ الملهى الذي كان حتى ذلك الوقت عشيق لابيّا مانوليتا، عن جسّ وجنته بالمنديل الأبيض وراح ينظر ببطء كبير إلى تلك الخطوط الثلاثة الباهتة من الدم التي تركت علامتها في المنديل كنوع من سلّم موسيقي مختصر. ذَهِل لهذه الرؤية حتى لم يبدُ عليه أنه سمع صيحة لابيّا مانوليتا الجديدة التي عمّها فيض من الدموع الحزينة، ثم أنّت ناقمة وهي شبه جالسة على الصوفا معتمدة على كتف آنسلمو الوكيل.

قاتل! سوف تدفع الثمن. مجرم!

لكنّ دون موريثيو، أكرّر لكم، ما كان يسمع شيئاً، وقد كان أولاهم ظهره. وكان ينظر شبه منوّم إلى خدوش وجهه في قِطع المرآة المتصدّعة، التي ظلّت لاصقة بإطار المصابيح الصغيرة، ثم غطّاها بمنديله. وهكذا خرج من الحجرة وقد امتلأ منديله الملازم له بخطوط ومربّعات صغيرة ملوّنة، وسار ببطء شديد وهو ينظر إلى تلك الممرّات المظلمة وكأنه يعبرها أوّل مرّة، وجلس على الدرجات الظليلة التي تصعد إلى مخزن الملابس، تلفّه تلك الرطوبة التي كان لها رائحة جعَة

فاسدة، ورائحة حجرات مغلقة ومرفقاه يستندان إلى ركبتيه، وفمه مفتوح مع إحساس بالتعب جدّ كبير حتى لم يكن يستطيع إبقاء عينيه مفتوحتين إلا بصعوبة كبيرة، كما كان يحدث للويسيتو سانخوان كلّما شرع في كتابة الصفحة، ويتحوّل جفناه إلى غطاء، وإلى شعرية نافذة قُطع حبلها كيوم حدّثني عن عمليّة ابن عمّه،ورفع وجهه في الحال ليقول لي بعد أن كتب أربعة أسطرٍ أو خمسة في صفحة ورقته ثمّ محاها بكثير من الرصانة العدد ذاته من المرّات.

وبيتراكو أجريت له عملية أيضاً.

ماذا؟

عمليّة لاستئصالناميات في الأنف – أجابني – لكن، يبدو لي أنه لم تُحمل إليه حلوى، ولا أدري إن كان بصق دماً أو تقيّاً.

ونظر إليّ لويسيتو مرّة أخرى، بعد أن نظر إلى الصفحة وتأكّد أن الورقة شبه الشفّافة أصبحت لا تحتمل محواً واحداً آخر من غير أن تُحدث ثقباً كان يعادل جواز مرور أكيداً كيما يُقاد أمام دونيا كارمن ويعاني غضبها.

على الأغلب، أهدي إلى بتركو كتاب عن الآلة الطابعة، أو اشتراك في مدرسة آلمي.

وانجلى الضباب عن عيني لويسيتو لمّا تابع قائلاً لي أن أكثر ما يعجب به إلى جانب الحلوى والآيس كريم من محل ميرا، هو أن يُهدى إليه سكين من تلك السكاكين الموجودة في محل خردوات مَلْدونادو

مقابل دكان سيرّانو. سكين ذو نصل ضخم يحوي في داخله سكّيناً متوسّط الحجم ونازع سدادات ومبرداً وسكّيناً صغيراً ومقصات صغيرة ودبوساً ومنشاراً مصغّراً وما لا أدري من أشياء أخرى. وكلّ أحد مساء كان لويسيتو سانخوان يظلّ لاصقاً بواجهة محلّ خردوات ملْدونادو، الزجاجية، ريثما تصر العاملة في محل خيخونا الحلويات التي اختارها هو، ناظراً إلى السكين المعلّق هناك بخيط من النايلون وذي المقبض الصدفي، وقد أُخرجت منه هذه الأشياء كلّها حتى بدا قنفذاً. لكن السكين الذي كان أكثر إعجاباً به هو سكين صغير جداً داخل المحلّ ذو نصل أحمر. حتى تمكّن من أن يضعه في يديه لمّا رافق أباه ذات مساء لشراء مسامير معقوفة. فبينما كان أبوه يقدّر مع صاحب محلّ الحدائد أي نموذج من المسامير ملائم لتعليق لوحة، كان لويسيتو سانخوان قد طلب إلى عامل شاب يكاد يكون بشبابه وإن يكن له شارب ذو زغب أسود، ويلبس عباءة زرقاء تجعله أكبر سنّاً، أن يُريه سكاكين فيها نازع سدادات ومقصّات. وهناك كان السكين الصغير ذو المقبض الأحمر الغامق الذي فُتن به لويسيتو سانخوان، في علبة من الكرتون مختلطاً بسكاكين أخرى ومفكّات براغي. لكنّ أباه لم يشأ قطّ أن يشتري له لا هذا السكين ولا سكيناً آخر مهما يُتعب نفسه لويسيتو أن يشرح له أنه لا ينوي أن يعمل بالسكّين شيئاً لا قصّاً ولا وخزاً، وإنما يريده فقط ليحمله في جيبه وليشعر بثقله مركّزاً على فخذه، وليفتح بحذر كبير مساء الآحاد أدواتِه ثمّ يطبقها مرة أخرى حتى الأحد التالي.

وظلّ لويسيتو سانخوان ذو العينين الناعستين يكلّمني من غير أن يريد النظر إلى صحيفته والثقب الذي يهدّد أن يطلّ منها عند أدنى

حركة، عن السكين ذي النصل الأحمر الذي حفظه الموظف ذو الرداء الأزرق في علبته مبتسماً بسمة انتصار. لكن، حدث لي ما حدث لدون موريثيو مع لابيّا مانوليتا بعد أن خمشت وجهه، فما كنت اسمعه إلاّ بصعوبة، لأن اهتمامي كان متجهاً إلى زاوية أخرى في الصفّ، إلى شكل بيتراكو، وأنف بيتراكو الذي يكون في هذه الأوقات أنهى كتابة الورقة التي لا اكون كتبتُ بعدُ نصفها، وبصعوبة يكون لويسيتو سانخوان تجاوز بعد المحو والثقوب السطرين فيها.
وإذْ كنت أرى بيتراكو جدّ رزين في مقعده، مكبّاً على حلّ عمليّات الحساب الطويلة التي كانت فرضتها علينا دونيا كارمن، فقد اكتسبت صورته منذ تلك اللحظة قيمة جديدة في نظري، لا لأنه أُعطي الكلور فورم وأجريت له عملية، ولا لأنّه كانت لديه الشجاعة لمواجهة فصيل من الأطبّاء الملثّمين مع أجهزتهم كلّها، وإنّما بسبب الناميات في أنفه. وشعرت فجأة أن بيتراكو بذهابه إلى الآلمي وإيابه منها وبجمود وجهه ولونه الأصفر الشاحب وبحبّه كونتشي كانكا وسرعته في كتابة صحائفه، كان كائناً وجدت نفسي مرتبطاً به على شكل سرّي، كان أحداً يحاول أن يهرب من ذاته من خلال متاهة الآلات الطابعة، وهو يرشّ المفاتيح طرْقاً محرّكاً الحاملة فوق الحاضن. ولم تكن ناميات بيتراكو تلك المتسلّقات التي كنت أتصوّرها خارجة من منخريه، مادّةً أذرعها وأغصانها إلى داخل جسمه، لا أكثر ولا أقلّ من لمحة من الغابة المتمرّدة التي أخذت تنمو في كهوف رئتيّ وأقبية حشاي منذ اللحظة التي ظهرت فيها اسبرانثيتا وبنت خالتها كيني على ناصية دييغو برغارا، وقد تحوّلتا إلى نوع من الحوريّات ذات شعر ناعم و كنزتين على وشك أن تنفجرا.

وبالطريقة ذاتها التي غيّرت فيها نظرتي لبيتراكو بكلمة واحدة من رفيقي، كذلك لابيّا مانوليتا حاولت على بُعد يزيد عن ألف كيلو متر من مدرسة دونيا كارمن وبيتي وربّما بينما أكون نائماً وأحلم أنّي لن أضطر بعد اليوم إلى كتابة صحائف، أو أن أطباء لا وجه لهم ترعاهم خالات تأتين كلّهن يُجرون لي عملية بنازعات سدادات سكين ذي مقبض من صدف، و مقصات ومناشير صغيرة، على بعد يزيد على ألف كيلو متر من حلمي حاولت لابيّا مانوليتا أن يغيّر كلّ من في الملهى نظرتهم لها وان يكفّوا عن النظر إليها على أنها امرأة غيور وجافية الطبع. ولا يعني ذلك أنها امتنعت عن تقويض الصورة التي لدى الآخرين عن صولداد روبي لكنها أصبحت لا تتكلم بسوء كلّ ساعة عن رفيقتها ولا تشير إليها أنها الفتاة برائحة الحظيرة ولا تسمّيها ثعلبة ولا عاهرة كبيرة. وكما تبحث الشرطة السرية في الأفلام عن كتاب مزوّر في مكتبة النذل، كتاب ليس كتاباً وإنما هو مفتاح يفتح باب القبو أو غرفة التعذيب، كذلك انهمكت لابيّا مانوليتا منذ ليلة معركتها مع دون موريثيوثسبدس في البحث عن الكلمة السرية، عن المفتاح السرّي الذي يمكن أن يغير فكرة عمال الملهى عن صولداد روبي بالطريقة ذاتها التي تغيّرت فيها نظرتي لبيتراكو.

كان عملاً باطلاً، وكذلك الرغبة التي راودتها في أن تحدّث المصوّر روبيرا عن فتنة تلك المرأة ذات الوجهين. لكن المصور كان على معرفة كافية بهذا الخصوص. لأنه إذا كان إلى جانب تلك الراقصة الشابّة، كان يشعر بنفسه معظم الأحيان أنه فقد القوى ليكبح ذلك الإغراء بأن يغرق وجهه في تلك الرائحة التي كان يطلقها جسم صولداد روبي، كان يحسب أنه بين لحظة وأخرى سيُغمى عليه فوقها ويدفن

شفتيه في ذلك النسيم بعطر الفريز الذي كان يلفها. وإذ كان يراها شبه عارية إزاءه بذلك البكيني ذي الخرز والصُفيحات اللامعة، كان يحس بين وقت وآخر أن ذراعيه قد يفرّان من غير إرادة منه ويتحرّكان من ذاتهما ليطوّقا بكثير من الهدوء واللطف صولداد روبي. ولسوف يعانقها ويحبها ببطء ويمسح جسمها بذات الحنان الذي تُداعب به طفلة ضعيفة، وبذات التقوى التي يُصلّي بها للعذراء، وبالشهوة ذاتها التي تجامع بها عاهرة. بهذه المشاعر كلّها وبمشاعر أُخَر كثيرة قد تلتمع في قلبه ثم تختفي كأسهم نارية تاركة في روحه أثراً من رماد حارق، بها كلها وبمشاعر أُخر ذائبة في نفَس واحد وفي خفقة واحدة سيُحب المصور روبيرا صولداد روبي، سيُحب صونصوليس آرانغورين وكل النساء اللاتي يلمحن في ذلك الجسم وفي تلكما العينين من لوزٍ وشمس.

كان روبيرا يعلم أن تلك اللحظة قد تعني نهاية الأزمنة، وأن حياته ستنتهي لحظة يتم ذلك الفعل، لأنه لا شيء ممّا سيأتي سيكون له قيمة، ولا يمكن لشيء أن يُقارن بتلك اللحظة المنشودة التي ستكون قمّة الوجود والسبب الحقيقي الذي كان خُلق من أجله،والذي من أجله هام في الدنيا حتى ذلك الحين من غير أن يدري. كذلك تاتين كان يبدو أنه يعيش فقط من أجل ذلك اليوم الذي يقرر فيه أطباء أن يهتموا به اهتماماً عميقاً، ويشغّلوا على جسمه أدواتهم وحدائدهم كلّها. و لم يخطر في أية لحظة ببال حارس مرمانا التفكيرُ انه قد يظلّ حقاً في غرفة العمليات إلى الأبد، وأنه لن يعود من ذلك السفر الغامض، من ذلك النفق الذي كان من كلوروفورم وجدرانه تتاخم جدران الموت من غير أن يستطيع أن يلعب أبداً حارس مرمى،ولا شيئاً، إنما يظلّ ساكناً

دائماً ووحيداً دائماً. لأن كونه حارس مرمى يساوي على الأغلب في نظره، في نظر تاتين، الموت ذاته، وأنّ عدم الركض كان عدم استطاعته الحياة ذاتها.

لهذا السبب عينه لم يكفّ المصوّر روبيرا عن الرغبة في الراقصة صولداد روبي من غير أن يهتم بما قد يحدث بعد نيله رغبته. وكذلك كان يحسّ أن فقدانه صولداد روبي يعني فقدانه الحياة. كان روبيرا جثة متجوّلة، كان ميتاً بُعث حياً كأولئك الذين يظهرون في أفلام الموتى الأحياء، سوى انه بدلاً من أن يلبس ثوباً صار مزقاً، والجسم شبه مسترخ، كان له غرّة فنان ويلبس قميصاً كوته حديثاً دونيا آنخلينس ويحمل آلة تصوير تتدلّى على صدره، كانت عيناً مفتوحة دائماً من غير رفّة جفن ولاشك، كانت النظرة التي ينظر بها قلبه. كان روبيرا ميتاً يشرب سوائل كحولية،ولئن لم يرَ أحد عليه قطُّ لحظة ضعف، فإنه حينما كان يتسكع أثناء الليل مع أخي مطيلاً دائماً طريق العودة إلى النزل، راشحاً كحولاً من نَفَسه ومسامه ووجهه إلى البحر،كان يتكلّم عن شبابه في الدار البيضاء وعن حبّ بعيد لامرأة كان يسميها في هذيانه المنفرد مراكشيّتي، مراكشيّتي الحلوة.وكان يضيع منه في منتصف الليل مضمونُ ما كان يحكيه، فما كان يقول غير كلمات مهلهلة مردّداً دائماً اسم صولداد روبي: صونصولِس أعطني الضوء، فأنت ضوئي. صونصولِس أعطنيه،أعطني،صولداد:هذه الوحدة[٣] هي الحياة، روبي، يا ياقوتة[٤] الدم، قلبي حجر غارق، آرانغورين،

٣- صولداد Soledad = تعني الوحدة = العزلة أيضاً.

٤- روبي Rubi = تعني ياقوتاً أيضاً.

ياعينان من زبرجد وندى، روبي صونصولِس صولداد آرانغورين غومِث، يا زهرة من ندى.

وما كان ينفع في شيء أن يترنم أخي الذي بقي له قليل كيما يظل اسمه رامون، بأعذب الألحان في هدأة الليل من أجل المصوّر. وكان صوته يكبر وسط همس النخيل طائراً مع احتكاك الريح بأغصان الشجر كغلالة شفافة رقيقة: «سأقول لك لَمَ تهتف باسمك أغنيتي من غير انقطاع». كان روبيرا يبكي في الرَامبلاس، كان يبكي في ميدان اسبانيا، وميدان كاتالونيا، وفي مونته كارمل وعند قدم تمثال كولومبس، وإزاء التيبِيدادو، وعند سفح مونته جويش ووسط أول حركة في البوكيريا وقد غمر قدميه في شواطئ برشلونة وروحه ترتعش كصوت أخي الذي لن يدعوه هو نفسه رامون ولا صوله: «كلما هبّت الريح أخذت معها زهرة».

وأنا، لمّا كنت أرى هذه الرسائل والبطاقات البريدية التي كان يرسلها أخي، كنت أحاول أن أقرأ ببطء كبير ذلك المسلسل الذي كان يتحدث فيه وسط قُبلٍ يبعثها لأمي ونكات لأختي وأبي وذكريات لكانديدا وعمّاتي، عن رقصاته وعن دور السينما، وعن لوحات الإعلان في برشلونة عداك عن قيامه بالتعليق على رفاقه في الملهى وعلى دون موريثيو وحزن المصور روبيرا، وعن بعض المسائل الأخرى التي باختلاطها هكذا كانت كقِطع شكل سوف أعيد تركيبه بشكل سيّء متصوراً سحابة ضباب من وجوه وكلمات وحتى مشاعرَ وضّحها لي أخي بمرّ السنين وبصوته الحي بعد عودته من برشلونة وتخليه عن مهنته الفنّية. لكني كنت أظلّ حينئذ بعد اختتامي القراءة، ناظراً إلى

الحروف من غير أن أقرأ ما كانت تقوله لاصقة ببعضها البعض، بل ملاحظاً رسم الكتابة وكيف أن تلك الحروف الجليّة والمرحة كانت تبدو أنها أُصيبت بعدوى رقص أخي، فكانت ترقص عبر السطور وكأنها،أي الحروف، كانت تلبس بناطيل سوداً أو قمصاناً مشمورة عند السرّة، وكنت أتخيل بشكل غامض ما كانت ستفكر فيه دونيا كارمن بصدد تلك الحروف، وما كان سيكلّف أخي جلداً بالعصا إذا قدّم للمديرة صحيفة مكتوبة بذلك الخط.

أما ما كنت مفتوناً به حقاً فقد كان تأمّل البطاقات البريدية التي كان يرسلها رامـون. بطاقات كانت كبيرة أحياناً،وبحجم تقويم تقريباً، بطاقات لامعة لم أرها قطُّ، وما كنت أملُّ من النظر إليها، مطلاً منها كما أطل من شرفة كانت تتيح لي أن أرى على مسافة تزيد على ألف كيلو متر، كنت أرى شوارع ونوافير ليلية مضاءة بأضواء تتّجه نحو السماء شبيهةً بالأضواء التي كانت تطارد الطائرات في ليالي القصف في السينما، سوى أن بطاقات أخي لم يكن فيها قنابل ولا طائرات، وإنّما جادات ملأى بعربات وبناس مجهولين صغار تلبسون معاطف وثيابا مضى عهدها تنقلهم عبر فيض حياة كانت ترشح من كلّ جانب، أسراراً وأسماءً رنّانة. وإذ كنت أدرك ذلك كله فكان يخيّل إليّ أني ألمح في عمق هذه المناظر أيضاً حضور المصور روبييرا،وكأن أثراً من نحيبه، وصدى أغاني أخي كانت بشكل ما عالقة بتلك الصور منجذبة إلى داخلها، وما كان يهم أنها التُقطت منذ زمن بعيد. وقد كان الافتتان الذي أحس به كبيراً حتى أنّي لمّا ذهبت مع أبي إلى حانة ٢١، وبينما كان هو يُرى بفخرِ المقدّمَ بيغاس والتوتو والخدم وبقيّة أصدقائه رسائل أخي، كنت أستلّ البطاقات البريدية من جيب سترته

و أنظر إليها مرّة أخرى بإمعان كبير وأنا أتناول جرعات من زجاجة غازيّة كانت تجعل عينيّ تدمعان لحدّة فقاعاتها غافلاً عن تعليقات أبي الذي كان يبالغ دائماً بنجاحات أخي ويخترع أنشطة لم يقم بها رامون، وعقوداً مزّقها في وجه رجال أعمال أهمّ وفاء منه لدون موريثيو وملهاه. رجال أعمال ظلّوا على الرغم من الازدراء يرجونه أن يعمل لصالحهم.

وما كنت أرفع بصري عن البطاقات البريدية حتّى لمّا كان أصدقاء أبي يسألونه بينما يشربون الجعة ويتذوّقون أرجل الأخطبوط تلك الملأى بالمحاجم الشائطة، عن الراقصة المقتولة بإطلاق النار عليها، وعن الرجل الذي رمى بنفسه تحت القطار. وكان بيبِه وابن أخيه النادلان في حانة ٢١ - التي لم تكن في ملاعب٢١، ولا أدري لِمَ سُمّيا بهذا الاسم، لا البار ولا الملعب - يقفان عن العمل وقطعةَ الطباشير على أذنيهما وهما يجففان أيديهما بالصدار، ويمكثان ليسمعا ما يقوله أبي والتفاصيل التي كان يخترعها عن إطلاق النار الذي حدث في الملهى، وكيف مرّت رصاصة محتكة بأذن أخي حتّى سببت له حرقاً، وكيف جنَّ ذلك الرجل عشيق الراقصة، وخرج إلى الشارع يطلق النار، وكان يحكي كيف أخرج أخي ورفيق له كان يعزف على البوق الراقصة السمينة من قاعة الرقص ووضعاها في عربة، وكيف جلس أخي الذي لم يكن قاد سيّارة قط، وراء المقود وجرى بأقصى سرعة في شوارع برشلونة وكأنّه كان يقود كلّ حياته سيّارة شفروليه كالتي كان يقودها مطلقاً شرراً عبر انبوب الدخان، ومن غير توقّف عند التقاطع، وأن الراقصة إذ رأت نفسها تموت قالت له: اجرِ بسرعة أكبر. وكان أبي يقف ليرطّب لسانه بالجعة، وبينما

كان المقليّ يشيط في المقلاة وأحد الزبن الطارئين يطلب عبثاً حضور بيبه وابن أخيه خوان،كان أبي يخمّن أنّ تعلم أخي للقيادة تلقائياً كان سببه يقيناً رؤيته له مرّاتٍ كثيرة يقود شاحنة الليلاند. وكان يوافق على ذلك معاونه دوبلاس، وإذ كان أبي يروز نرفزة النادلين،والصمتُ وشياط المقلاة قد بلغ منتهاه، وبعد حركة استنكار منه برأسه، ولما دار قدما بيبه وابن أخيه خوان ليهرعا إلى النار أو إلى الشرّيب النافد الصبر،والصمت على وشك أن ينفجر بسبب تعليق ما أو سعال، استأنف كلامه ليقول أنه مهما تكن سرعة أخي فما كان بمستطاعه صنع شيء، لأن الراقصة انقطع نفسها في غرفة العمليات على الرّغم من أنّ أخي وصديقه ترومبيتا قدّم كلٌّ منهما ليترين من الدم، وأنّ أخي شعر بحزن كبير لرؤيته صديقته تموت حتى قال للطبيب الذي كان ما يزال يضع إبرة سحب الدم على جسمه، أن يسحب ليتراً أخر خشية أن تأتي منكوبةٌ أخرى فتدعو الحاجة إلى دم إضافي لإنقاذ حياتها.وبعد صمت جديد، وبعد أن أكد دوبلاس بهزِّ رأسه ما حكاه أبي، أساغ المقدّم بيّغاس صوته بجرعة ليقصّ قصّة جنديّ من أليكانته أصيب بطلقة في رأسه إبّان الحرب، فسار في الخندق كأنه مسرنم والدم يتدفّق كصنبور أو كنافورة تخرج من قمّة رأسه ومعه مجنّد يشبهه من سَبَدَيل، أخذ بجمع الدم في دلو عسى الأطباء يستطيعون من ثمّ أن يعيدوه إلى جنديّ أليكانته، إلى المصاب بالطلقة. والآن انطلق النادلان بيبه وخوان راكضين من اجل النار والزُبن اليائسين منهما، ومن غير رغبة في أن يعلما، أو أنهما سبق لهما أن علما بإفراط أنّ مجنّد سَبدَيل ملأ ما يزيد على دلو ونصف الدلو من الدم الذي لم ينفع شيئاً،لأن جنديّ أليكانته قال لمّا توقف عن السير وبعد أن استطلق بطنه لوباء لم يستطع

تحمّله، أنه متعب جدّاً وسقط ميتاً، كأنما أُطلقت النار عليه هذه اللحظة على بعد نصف كيلو متر من المكان الذي أصيب فيه حقّاً. والآن أخذ التوتو يقصّ قصّة صيد الترغلّة التي وجدها في دغل على بعد شبر من قدمه، فظلت ساكنة بعد أن تلقّت طلقة من قرب، إلى أن ضغط التوتو على الزناد مرّة أخرى، فقفز الحيوان بضع قفزات من غير ريش ولا جلد ولا رأس، وشرعت تطير وكأن الطلقات لم تكن فيها، وراحت تسقط منها بضع قطرات حمر ناعمة جدّاً مثل دم ينزّ نزاً، ولم يوافق دوبلاس بل كان ينظر إلى المتكلمين وهو ينظف أسنانه بعود صغير، وأخذت الجوقة تتبعثر، وأخذوا هم يتوزّعون المحادثة أزواجاً، وكانوا يطلبون قريدساً مغمّساً بالدقيق وبوسان وزيادة في كمية الأخطبوط. وإذ ظلّ كلّ منهم يتحدَّث عمّا يخطر في رأسه، فقد ظللت أنظر في بطاقات أخي إلى نافورة مونجويش، وجبال مونسرّات، وأمعن النظر في الطفل الذي كان يجري بعيداً وراء كرة في حديقة غويل، وفي كلب صغير موجود على ناصية شارع مونتانير، وفي درّاجة نارية ذات مقعد جانبي مركونة في البَراليلو.

وسرت وأبي في شارع مرمولِس وأنا أتجشأ بسبب المياه الغازية، وفيّ شيء من دوار بسبب رائحة الجعة ودخان تبغ بيزونتهِ الذي كان يدخّنهُ أبي. وإذ كنت أفكر في طفل حديقة غويل الذي ربما ما عاد طفلاً وصار له على الأغلب شاربان ويشرب الجعة في حانات برشلونة، أفكّر في الكلب في شارع مونتانير، وفي درّاجة البَراليلو، ربما مات الكلب منذ مالا يدري أحد والعربة علاها الصدأ مفككة في أي مكبّ أو تركت في الأرض الخلاء في الكارميلو، فقد امتلأ رأسي بالطلقات، وكنت أسمع بما يشبه قرع طبل دمَ جنديّ آليكانته المصاب

بطلقة يسقط في دلو المجنّد، المعدني، وترتادني أفكار مضطربة حول الترغلّ والأرانب المفلوقة، وحول الرقص وناس الملهى الذي كان يتكلم أخي عنه بحرفه الجلي وحول نقل دم لا ينتهي. وبهذه الحال من الضعف وصلت مع أبي إلى باب بقاليّة سيرّانو حيث الفاكهاني كان يسألني كل يوم عن اسمي، وكنت أجيبه من غير رغبة متّبعاً صيغة كانت تبدو لي ما قبل تاريخية: مثل اسم أبي. وما اسمُ أبيك؟ أنطونيو. إذاً، ما اسمك أنت؟ أنطونيو مثل اسم أبي.

وبينما كان سيرّانو يضحك مقهقها مبدياً صلعته ولحية لم تُحلق منذ يومين وكانت تنزل ملأى بأشواك بيض على لغده الذي كانت تضيع ياقة قميصه تحته مثيراً الانطباع أن جلده كلّه ملآن بإبر بيض، كنت أنظر إلى عقب السيجارة الجافّ والمطفأ وكان يضعه دائماً لاصقاً بشفته العليا، وهو لم يكن عقباً ولا شيئاً، إنما ورقة شبه خضراء وشائطة مع ورقة تبغ في داخلها، وكانت تثير رغبتي في أن أتقيّأ المياه الغازية فوق البندورة اللامعة وفوق عصير عنبه، أتقيّأ كما تقيّأ ابن عم لويسيتوسانخوان، أتقيّأ كينبوع، أتقيأ الغابة والجداول ذات المياه الغازية الخضر، مياه غازيّة مستنقعيه كنت أحملها في داخلي، أتقيّأ الأدغال والجذور والمتسلقّات وأوراق الشجر ورمالاً متحرّكة ملأى بكلاب ميّتة، ودرّاجات نارية ذات مقاعد جانبية صدئة، ودلاء دم، وجنود اخترقهم الرصاص كانت تطفو في داخلي على شكل سيء، لكني بدلاً من التقيؤ، كنت أنظر إلى الأرض الملأى بأغصان الفليفلة التي داستها الأقدام وإلى تراب خلّفته حبّات البطاطا وإلى زبل قذر، وأتحمل قهقهات سيرانو، وأتابع الرحلة بصحبة أبي في شارع مرمولس، والمياه الغازية والغابة في داخلي ومع نباتاتي.

وأنا كما روبيرا، كنت أشرب لأنسى، ولأفقد الحس أكثر ممّا أنا فاقده، وكيما أتقنّع، إلا أنني كنت أشرب عوضاً عن الكحول، مياهاً غازية متمرّدة وحارقة، أشرب زجاجة مياه غازية في حانة ٢١، كانت تتيح لي بينما أنظر إلى البطاقات البريدية وصور أخي ورسائله، آن أطلق الدموع، وأبتلع مخاطاً وأكشر تكشيرات بغياب الفقاعات. وإذا كانت زجاجة المياه زائدة عن الحد وأنذرتني مثانتي أثناء النوم ليلاً، أنّها على وشك أن تنفجر، كنت أنهض كميت حيّ، وكما كان روبيرا يسير في الدنيا مسرنماً، وكما سار جنديّ أليكانته في المعسكر مصاباً برصاصة والدم يسيل ينبوعاً من رأسه، وعند مروري في غرفة المعيشة كنت ألقى ذلك الضوء الصادر من داخل صوان الخزف، وقد صار فمي قطعة عجين جافّة. وكان يجلس حول قطعة الأثاث أبي وأمي وأختي الذين كانوا ينظرون إليّ باسمين بسمات غريبة جدّاً وكأنهم كانوا خلف مرآة وقد أضيئت وجوههم بوهج أصفر، ومُلئت بالظلال المستطيلة. وكان يرقص على سطح الصوان كدمى ميكانيكية أخي وكل الأشكال الخارجة من الصور الموضوعة هناك، دائرين حول رفيقاتهم في الملهى، محيطين بالفناجين والخزف المزخرف بثيابهم البنية الفاتحة وصفيّحاتهم اللامعة. لكن، ما كان يقول لي أحد، حتّى أمّي شيئاً، سوى أنهم كانوا ينظرون إليّ لحظة، ثم يظلون ثلاثتهم في الظلمة، يضيئهم بريق الأثاث مستمعين إلى خفق الليل وقطر صنبور وفكوك الديدان تلتهم تراب سياج الفناء، وإلى رعشة في الجدران وكأنها كانت تتنفس أيضاً. وعند عودتي من الحمام كنت أراهم مرة أخرى حول الصنوان، فيما أنا راجع إلى سريري تاركاً بقدميّ العاريتين أثراً فوسفورياً على البلاط. وكنت إذا مررت بأبواب مخادعهم أتوهّم

في العتمة أشكال أبويّ وأختي وكأنهم نيام، وإن كنت أعلم أنها في الحقيقة حقائب يد فارغة تحت الأغطية وسترات كان تركها أصحابها ليتأملوا ذلك الوهج وذلك الرقص من غير موسيقى الذي كان يحدث في قلب الليل في صوان خزفيات منزلي الواقع في شارع أنطونيو خيمينيث رويث رقم ٣٦.

كان الصوان يمتلئ كلَّ آن بصور أخرى، وزبن آخرين وأصدقاء من الملهى، وراقصات مكرّرة: فاطمة كومبادوس،إنما كولا داغلبان، آلمودينا فرناندث، ماري كارمن مولينا أو الخلاسيّة لا فويغو الجميلة جداً حسب تعليق أبي وعدم تصديق أمّي، حتى ماكان بقدرة أي مكياج في الدنيا أن يخترع تلكما الساقين ولا تلكما العينين اللتين كانتا تبدوان في الحقيقة أنهما ستسعران بين لحظة وأخرى وتحرقان الصورة التي صوِّرتا فيها. لأن المصور روبيرا ظلّ إلى جانب الشرب والحديث عن مراكشيّة الدار البيضاء والهمس باسم صولداد روبي، يلتقط الصور مشتغلاً في مخبره وسوائله ومركّبا تلك الأشكال الخادعة التي طالما أُعجب بها أخي.

لكن المصور وأخي أصبحا لا يضحكان كما كانا يفعلان من قبل. وأول شكل مخادع عمله حينئذ كان دمج ليلي بصديقتها آلمودينا فرناندث، ذلك إن المصور روبيرا كان يلصق رؤوساً وأجساماً لناس مختلفين من غير أن يَلحظ الدمج في أي جانب. كان يلصق أذرعاً وسيقاناً من صور قديمة،وشوارب وملابس مصارعي الثيران، وقبّعات عالية، وأي شيء آخر كان ضمّه إلى مجموعة كليشهاته،وكان يتسلى في أزمنة سابقة بأن يضم إلى وجه دون موريثيوتسبدس جسم عجل

بحر أو تمساح ينتعل حذاء من جلدِ لمّاع، أو أن يضع للابيا مانوليتا ساقي قزمة،مقطوعتين، بدقّة كبيرةٍ حتى كان دون موريثيو وعشيقته يظهران حقيقييّن وأصلييّن حسب تركيب روبيرا، أكثر مما يبدوان عليه في الواقع، فقد كان الدمج والرتق اللذان كان يقوم بهما روبيرا في ذلك الوقت مصنوعين من المادة الكئيبة ذاتها التي كانت تزهق روحه. ولئن ظلّ يظهر في صور ريبيرا أناس، فما كان يرسم حينئذ وجوهاً ولا أفواهاً بل كان يصوّر رغبات وأشواقاً ومخاوف وقلقاً ومطامع. وكان الشيء ذاته يحدث مع مركّباته.

وقد ركّب ذلك الشكل المخادع الذي أوقف النبض في قلب أخي تكريماً للماضي، وتكريماً لليلي والزمن المفقود الذي ذهب بذهابها. فكان وجه ليلي السمين يستقر على جسم صديقتها آلمودينا فرناندث الرشيق وعلى ساقيها الرائعتين اللتين كان بالإمكان التعرف إليهما ليس من كمالهما فقط إنما من السلسلة الذهبية الصغيرة ومن القلب اللذين كانا يطفوان حول عقبها الأيمن. لكنّ ما أفقد أخي النبض والصوت لم يكن نقاء المونتاج، وإنما سيمياء ليلي وتلك البسمة التي كانت طبق بسمة الراقصة لحظة موتها لمّا توقّف الرقص والموسيقى، ودار أخي دورةً ورآها تسقط على ظهرها وسط المسرح وهي تبتسم تلك البسمة التي كانت تبدو غريبة عن الطلقة التي جرحت صاحبتها، والتي لمّا يأتِ وقت لتفسد، تشبه في ذلك اليابانييّن اللذين كانوا باسمين لمّا سقطت على رؤوسهم قنبلة ذرّية وظلّوا والبسمة لاصقة بأفواههم وقد انقسم تفكيرهم قسمين. ولا ليلي استطاعت أيضاً أن تُنهي على الأغلب التفكير في مقدار إعجابها بالموسيقى التي كانت ترقص عليها، أو في المكان الذي ينبغي لها أن تضع قدمها فيه

في هذه اللحظة أو في عينيّ الرجل الذي كان ينظر إليها من الطاولة الثانية، أو ربّما كانت تفكّر أنّها ستترك الملهى حقاً، وتتخلى عن اسم ليلي لتتزوج كوسمه كوسمه، وظلّت دغدغة التفكير على وجهها باسمةً ذات البسمة التي وضعها روبيرا على جسم آلمودينا فرناندث. وقد كانت ملامح الرّاقصة جدّ شبيهة بملامحها ساعة تلقّيها رصاصة كوسمه كوسمه المتهافتة في دماغها، حتّى قلب أخي الصورة باحثاً في جبهة ليلي عن الفتحة التي خلّفتها الرصاصة،أو عن أثر من دم،سائلاً في الوقت ذاته روبيرا وقد استردّ النفس والكلام.

وهذه الصورة؟

وأنت أيضاً؟لكني لم ألتقط هناك أية صورة سوى صورة كوسمه كوسمه وهو يصعد الدرج. و لم ألتقط لليلي صورة.

حقاً – أجاب أخي ممسكاً الصورة بأنامله، باسطاً ذراعه ليبعدها عنه جانباً وإن لم يتخلّ عن النظر إليها. – لكنني أفضل ألاّ تريها أحداً. هي مؤثرة.

وعلى الرغم من ذلك كلّه، على الرغم من غياب ليلي غياباً لا رادّ له، وحزن آلمودينا فرناندث، ويأس دون موريثيوثسبدس، وخطط لابيّا مانوليتا، ونواحي النشاز التي تزداد امتداداً لدى المغنّي المنفرد آرثورورتس، وعلى الرغم من كآبة المصور روبيرا، على الرغم من ذلك كلّه وأشياء أخرى لم أقصها الآن، ظلّ الملهى يبهر أخي بتلك الحياة الصاخبة من البلّورات اللامعة والموسيقى والستائر والدخان والمكياج، تلك الحياة التي كانت في نظر أخي هي الحياة، كانت شيئاً

مختلفاً جداً عن شاحنة أبي الليلاند، وعن رائحة المقالي في الحانة ٢١، وعن ورشات اوليبيروس وصوت الجارات يضحكن في الشارع أو الثياب المنشورة في فناء بيتنا. الحياة كانت برشلونة والملهى وإمكانيّة أن يدخل المحل ذات يوم أحد عمالقة الشّاشة ويستطيع المرء أن ينظر في عينيه ويقول له: أهلاً، شارلتون، لشدّ ما أعجبني «بن – حور»، وما كان أجملِ قيادتك عربة الخيل الرباعية، أوِ خسارة ياجينا أن يموت تيرون باور ولمّا ينهِ (سليمان وملكة سبأ) مشكّلين كليكما ثنائيّاً جميلاً وما كان أجملك وأنت ترقصين رقصة الشيلان أو المناديل.

وريثما يقرر أحد هؤلاء العمالقة أو هدي لامار، أو ربّما جينجر روجرز أن يزوروا ملهى دون موريثيو ثسبدس، كان أخي الذي صار حسب صوره الأخيرة، أقلّ نحولاً وغرّته أهدأ شيئاً ما، وأقلّ جموحاً، يوسع دائرة أصدقائه. فقد صار صديقاً لنصف الزبن، وصديقَ محامٍ يدعى العم توم، وزوج من الدراويش يدعى سانشيث وعمل بهلوانياً في السيرك، وصاحب معمل دقيق وسمسار عقارات ما كان يفهم منه ما يقول، لأنه كان كل الوقت سكران، وفوق ذلك كان يتكلم من ثقب في حلقه يغطيه بمنديل كلاماً كالشخير، حتى أنه استطاع أن يحظى بثقة الملاكم آبلينو باديّا أحد مشيّعي دفن كوسمه كوسمه، في الواقع كان المشيّع الوحيد. لأن أحد المرافقين الآخرين كان ممثّلاً لجمعية دفن الموتى بانتظار ما لا أدري من توقيع، لا يريد أحد أن يضعه خشية إمكانية دفع نفقات، والآخر صديق باديا ويدعى آلبرتو تيسان الذي كان ميّالاً إلى قصص الغرام والدراما لأنه شاعر. فقد رضي أن يرافق باديا لإلقاء تحيّة الوداع الأخير على القاتل الغيور المنتحر على سكّة الحديد.

كان أخي يمدّ صداقاته في كلِّ الاتجاهات، وكان نشاطه الجمّ الحسن يرسو عند الطاولات كلّها في محادثات كانت ملأى دائماً بالضحك والتربيت على الكتف كاشفاً عن غرّته، تلك الغرّة التي كانت غابته الشخصيّة، والتي نمت غزيرة إلى الخارج بدلاً من إزهاق روحه، كأنها راية وكأنها علمٌ لفرحه ذاته وللملهى كله الذي كان مايزال يحظى بحضور الترومبيتا في الفرقة، والذي شهد تلك الأيام بسبب من ضياع صوت المغني المنفرد آرثور وريّس حفلة أخي الافتتاحية الثانية المغفلة كمغنّ في البراليلو في هذه المناسبة.

جاءنا الخبر ذات ضحى صافٍ كانت السماء فيه جدُّ زرقاء حتّى كانت تغري المرء أن يرفع يده ويَقطع بأصابعه ذلك الغاز السماويّ الذي كانت ترتسم عليه أشكال أغصان شجرة الخوخ وأوراق الزعرور بدقّة كبيرة حتى كان النهار والسماء يبدوان رسماً إنجيلياً رسمته كونتشي كانكا بطباشيرها الملوّن. وصلت الرسالة من غير بطاقة بريدية ولا صور، كانت خالية إلا من كتابة أخي. ووقفت أمي إذ ذاك بصدارها والثوب الذي كانت تغسله مختنقةً في الطشتِ، وسط الفناء بين أوراقِ المرغريتا والجيرانيوم والياسمين، وابتسمت بسمةً حانية جدّاً في ظلِّ الدرّاقة وهي تقرأ رسالة أخي. وبينما كنت أنظر إلى الظرف وقد تركت أصابع أمّي آثاراً من بللٍ على زاويته، وأشم رائحة الورق الذي سافر من نزل ريّوس – اسبانيا في صناديق بريد وأنفاق وسكك حديدية خلال ما يزيد على ألف كيلو متر، كانت أمي تقرأ أنّ الخلل الذي أدخله المغني المنفرد آرثورويّس في أغانيه الأولى والنشاز في مخارج النغم والأجزاء الخرس كانت كبيرة جداً حتى عدّ الجمهور بعد لحظات من الشك، ذلك كلّه برنامجاً مضحكاً جديداً. وإذ غُمر

المغني المنفرد ريّس بالقهقهات تقريباً والصفير والتصفيق، استشاط غضباً كاشفاً الآن من غير حذر عن لثّته الخالية من الأسنان في محاولة أخيرة ليتابع مسار اللحن الذي كان يُحضر إحضاراً أو يهرب كحصان وحشي من أمام صوته. وحكى أخي أن آرثورورِيّس المشاكس وشبه الأخرس لم يرض إلا بعد إلحاح كبير من دون موريثيوثسبدس أن يكمل رامون دوره الغنائي المتردّي، وإن يكن في هذه المناسبة فقط. وكما في المرّة الأولى لمّا رقص في الملهى كان ذلك الافتتاح شبه سرّي. وهذه هي ثاني مرّة لا يُعلن أحد عن أخي في الميكروفون ولا يذكر اسمه الذي كان مايزال رامون، حتّى لم يلحظ أيّ تغيير في البرنامج. وكان أخي يلبس مثل سائر الرّاقصين، وخطا ببساطة خطوة إلى الأمام، وانحنى على المكروفون وشرع يغنّي كأنه متطوّع. كان قسم من الجمهور ما تزال عيونه غارقة في الدموع بسبب القهقهات، وكانت ما تزال ضحكة ما تعلو على الموسيقى مذكّرة بأداء آرثورورِيّس، وكالعادة دائماً كانت تسمع عند الحاجز قعقعة الأقداح، وأصوات الخدم وذهاب الزبن وإيّابهم ضجراً من تلك الوصلة الغنائيّة.لكن كلّما كان صوت أخي يتصاعد وسط تلك السحابة الكثيفة من الضوضاء والدخان كان الخدم يكفون عن تحريك الآنية، ويختفي صدى القهقهات الأخيرة وتبرق العيون مرة أخرى من إطلالة بكاء لم تكن بسبب الضحك وإنّما بسبب فيض من السعادة، ونفَس رنّان كان ينشأ في حلق أخي وينثره المكروفون في كلّ أنحاء المكان. وحتى الأشخاص الذين كانوا في تلك اللحظة في المنتفعات،وفي ممرّات الحجرات أوفي عمق مخزن الثياب، توقّفوا عنْ شغلهم، وتعلّقت نفوسهم بذلك اللحن الذي أفسح المجال لَمَا انتهى إلى تصفيق خجل ومتردّد، لكنّه سرعان ما تحوّل

إلى تصفيق كثيف لم يكن مع ذلك موجّهاً بالضبط إلى أخي وإنما إلى صوته، إلى ذلك الصوت الذي قد كان نبع من المكروفون مثيراً مشاعر أهل الملهى كلّه والذي لم يطابقه أحد مع صورة رامون المتخفّي بشكل بحّار قديم، وبنطاله مشمور، رامون الذي كان مايزال محنّي الكتف على المكروفون من غير أن يرى شيئاً آخر سوى بسمة المصوّر روبيرا المضيئة، وعينيه البراقتين وهو يصفق مبدياً غرّته، غرّة الأسد الجريح.

وكذلك أمي ظلت صامتة وسط الفناء مرتدية صدارها،و السماء الزرقاء طافية فوقها وكأنّها سمعت صوت أخي عبر الرسالة، صامتة مثل أبي لمّا جاء ظهراً وشرع يقرأ الرسالة باسماً بسمة كانت خلافاً لبسمة أمّي تتسع كلّما تابع القراءة. وظلّ القوم صامتين هذا المساء في حانة ٢١ لمّا نقل إلى أصدقائه بعد أن قرأ الخبر بصوت عالٍ إن تلك البداية كانت خير بداية يمكن أن يحصل عليها مغنٍّ ما وقد تمّ التغلب على شك أصدقائه وتحفّظهم جميعاً ما عدا دوبلاس الذي وافق بتأكيد كبير، بتقديم الأُخطبوطات المقلّية والقريدس، ويقرع كؤوس الخمر والجعة التي كانوا يشربون فيها وسط ذلك النهار المضيء نخب مستقبل أخي الفنّي، ونخبه في مساره المهني في ذلك الملهى الذي بدأ يستردّ إيقاعه القديم على الرغم من أنّ الناس كلّهم كانوا يلتفتون إذا كُسر قدح أو قرع الطبل قرعاً مبالغاً فيه، بحثاً عن مسدس، أو ينظرون بإمعان إلى الراقصين خشية أن يسقط أحد على الأرض مع فتحة بجسمه. لكن، لمّا ماتت فاطمة كومبادوس لم تطلق أيّة طلقة و لم يقرع طبل. فاطمة كومبادوس ماتت حتف أنفها.

كانت السماء ما تزال زرقاء في المساء وإن فقدت شيئاً من بريقها،

وكانت توحي بأنه سيظهر بين لحظة وأخرى مثلث الآلوهة في وسطها، وبالعين داخله، أو بالطفل ذي الشعر المجعّد مع حمَل على كتفه، أو أي شيء آخر ممّا كانت ترسمه كونتشي كانكا من الأناجيل أيام السبت صباحاً. كذلك كان تاتين والآخرون صامتين وكأنما سمعوا لتوّهم أخي يغنّي سوى أنهم لم يساورهم أي فرح و لم يشرعوا في التصفيق ولا في التهام الأخطبوطات والجمبري، بل كانوا يستندون إلى الجدار أو جالسين على درج البيت ووجوههم كوجوههم إذا فجّرت الكرةَ شاحنةٌ، أو إذا سقطت الكرة في المؤسسة الخيرية من فوق السياج يوم السبت مساء،وما كانت توجد طريقة لاستردادها حتى يوم الاثنين. حتى باريّا ما كان يتكلم عن ألمانيا. إلا أن بيبيتو كان يبدو مسروراً بعض السرور بصفاء المساء، ناظراً بمتعة كبيرة إلى رماد السيجارة وإلى تقدم الجمرة، الذي كان يساعده بنفخات صغيرة.

وكنت أنظر إليهم من غير أن أتخلى عن مضغ شطيرتي وأنا أتسلّى بصمتهم. وكان كلّ صمت يختلف عن الصمت الآخر، صمت الموكوس الصاخب والمكظوم،صمت باريا المركّز، صمت الغيّه المرفرف والعصبيّ، صمت دييغو مانويل الدهِش والضخم، الصمت – الصامت، صمت تاتين، وقت انتصب هذا الأخير واقفاً لمّا نظر إلى الموكوس بعينين جد مفتوحتين، وحرّك يده اليمنى بسرعة كبيرة نافخاً، وكأنّما احترقت أصابعه. وبينما كان تاتين يضرب الكرة على الحائط ضربات أخذ صمتهم يتكسّر شيئاً فشيئاً – ما عدا بيبيتو الذي كان يدخّن الآن وعيناه نصف مغمضتين كشرطي داخل عربته بانتظار أن يخرج اللصوص من وكرهم. وقد قصّ عليَّ هؤلاء وأولئك بتعثّر وتقطّع ما كان حدث منذ هنيهة من أن تاتين والموكوس كانا

جالسين وحدهما على الدرجِ، وأن كاستيو مرَّ ثم مرّت بعده كيني وصعدت الدرجات التي تطلّ على شارع أوخينيوغروس، ثم ظهر كاستيّووكيني معاً، وأن تاتين ضحك لمّا رآهما من بعيد، لكنه كفّ عن الضحك بعد ذلك، وأنّ لونه قد شحب وصرّت أسنانه وطقطقت حدائد ساقيه، وكأن لثتيه علاهما الصدأ، وأنّه ظلّ صامتاً كما الموكوس ناظرين كليهما إلى كيني وكاستيّو، وأن يد كيني اليمنى ويدّ كاستيّو اليسرى كانتا معقودتين وقد شكّلت أصابعهما جديلة، ثمَّ وصل الغيّه وباريا اللذان وإن جاءا يسيران ببطء فقد كان وجهاهما يبدوان كأنما وصلا راكضين، وما كانا يعرفان ماذا يقولان، وأن الغيّه صار شبه أخرس، لكنّ باريا قال أنه شاهدهما، شاهد كيني وكاستيّو على ناصية شارع قطالونيا، شبه مختبئين بين أغصان الياسمين التي تهرب من محلّ الكهربائي، وأن كاستيوّ كان يضع يده على صوف كنزة كيني، يضعها على جنبها بالضبط قرب نتوء كيني الأيسر، في مكان لم يكن ظهراً ولا صدراً ولا خصراً ولا شيئاً، وأنها رفعت ذراعيها محركةً أصابعها ببطء شديد على عنق كاستيّو ونقرته والتصق وجهاهما واحتكت الشفتان ببعضهما أولاً، ثم التصقتا كمحجمين تتنفّس كيني برئتي كاستيّو، وكاستيّو برئتي كيني.

إذاً، بكلام هؤلاء وأولئك أخذت أضع في مكانه الصحيح ذهاب كاستيو وايابه في الأيام السابقات وحرقة وجهه بسبب البثور الهائجة وكأننا في الربيع، والركلات التي كان يركل بها الكرة حتى كان يبدو أنّه وُلد في غرانخا سوارث. كنت أضع كلّ شيء في مكانه سواء أكانت جولات كيني وبنت خالتها الطويلة وهما تدوران في الشارع من غير توقف، وضحكاتهما، أمِ الرسائل التي كان ينقلها مانوليتو

تيخادا على درّاجته، أمِ المرّات التي كان يذهب فيها كاستيو إلى الكشك في أوخونيوغروس كيلا يشتري شيئاً، ومن بطئه في العودة ببنطاله الطويل. و بينما كنت أعيد تركيب ذلّك كله ما كنت أكفّ عن النظر إلى تاتين، كنت انظر إليه يركل الكرة محاولاً أن يضربها مرّات عدّة متتالية من غير أن تلمس الأرض كما كان يفعل كاستيو الذي كان يوقفها على جبينه ويضربها بكعبه ويمررها مرّة أخرى فوق رأسه وبعشق للكرة حتى كانت تلتصق بجسمه، على عكس تاتين الذي كانت تنفر منه الكرة و لا تريد أن تعرف عنه شيئاً ولا عن نعلي قدميه التعويضيّتين.

لكن عزيمة تاتين لم تنهر بهذا العائق.وإذ راوده الأمل من خلال السفر بالشاحنة الصغيرة،كان يبدو أنه على ثقة أن كلّ شيء سيتغير منذ اللحظة التي يخرج فيها من باب غرفة العمليّات. وكان على ثقة من أن قلب كيِني سيكون أوّل شيء يغيّر مسار خفقاته. وهكذا كان هو – بعد تفكك العصبة هذا المساء–، أوّل من سخر من الحرص الذي اتخذه كاستيّو وكيني ليختبئا عند حلول المساء بين أغصان محل الكهربائي. وكان تاتين يضحك كما رجال العصابات في الأفلام العتيقة. كان يضحك كما يضحك هؤلاء قبل أن يُربطوا إلى الكرسيّ الكهربائي، أو إلى المقعد في غرفة الغاز، وليس كما كان يضحك بيبيتو الذي كان يقلّدهم بدخانه وبعينيه شبه المغمضتين. كلاّ! لأنَّ ضحكة تاتين كانت تصدر من داخله، كانت ضحكة خاصّة به،بل إنّ رجال العصابات كانوا يقلّدون ضحكة تاتين. وكان يشتم مانوليتوتيخادا مباشرة، ويقول له إذا رآه يعبر بدراجته: لوطي! وعليه ألاّ يمر مرة أخرى من هناك. لكنه ما كان يقول ذلك غاضباً، بل كان يقوله باسماً

تلك البسمة كاشفاً عن أسنانه وكأنّ العمدة وخوريّ السجن والحرس كانوا على وشك ان يصلوا كيما يضعوه على الكرسيّ الكهربائي لصعقه. وكان يبعث على الخوف.

أهمل تاتين حدائد ساقيه إهمالاً كاملاً من غير أن يشحّمهما ومن غير أن يدهن السيور الجلدية اليابسة والصارّة وكأنه صار جد جداً. إلا أنه كان يرغب حينئذ في الذهاب إلى ملاعب الصم والبكم. وهناك كان هو من يفاوض مباشرة بشأن حجم المرمى، فيركل الحجر الذي كان يستخدم قائمة ليصغّر طول المرمى، وكان يقول لفريق غرانخا سوارث: هكذا هي القواعد، وإنه متى تجر له العملية الجراحية التعويضية الداخلية، وتنزع عنه الحدائد، فليجعلوا المرمى كما يشاؤون حتى لو أرادوا أن يضعوا قائمة في تياتينوس، وقائمة أخرى في بوينته ده أورورا، فلا أهمية لذلك عندي، لأني لن ألعب بعد ذلك أبداً حارس مرمى. وكان يقف هناك بين قائمتين وضعهما على مقياسه، واضعاً نظّارته على أنفه ويديه على خصره متأهباً ليصدّ ضربات الكرة كلّها التي يريدون أن يسدّدوها إليه. وكان ينظر باحتقار إلى فتيات غرانخا سوارث اللاتي كنّ يتكومن عند طرف الملعب، أما هنَّ فقد أخذن يهتممن به ويمددنه بالماء إذا طلبه بعد أن يرتمي على الأرض ويصدّ كرة محدثاً ذات الضوضاء التي أحدثتها ليلي والتي ستحدثها سريعاً جداً فاطمة كومبادوس عند سقوطهما ميتتين. وكن – أي فتيات غرانخاسوارث – يضحكن منه إذا رأينه يسقط أو يتلقّى ضربة بالكرة وسط وجهه، ناظرات إليه شزراً لا لحَوَلٍ في العيون وإنما لحَولٍ داخل العيون وفي الفكر والأفكار الملتوية التي كانت تجول داخل رؤوسهن، كما كنّ يضحكن إذا سقط أصدقاؤهم فرانثيس وكاني وإسكوبا متدحرجين مثيرين سحابة من الغبار بإحضارهم الفوضوي.

وإذا كنّا قليلي العدد ذات مساء، وليس لدينا فريق كافٍ للعب في ملاعب ٢١ أو الصم والبكم كان تاتين يقرّر قبلل أن نجلس علي الدرج، أو يخطر لأحدنا أن يصعد إلى شاحنة كويكورتو ويظلّ هناك يتحدث وسط بقايا الشعرية والحمص المفقود، الذهاب إلى مكبّ الحدائد من غير ان يهتم بالغجر الذين كانو يطوفون هناك، والذين اضطرّونا أكثر من مرّة إلى أن نخرج شبه هاربين أو ملاحقين بالحجارة لتصميم تاتين على أن يدحرج مغسلة كان الغجر الأشرار ينزعون محتوياتها، أو يندسّ داخل عربة مهجورة كان الآخرون يعدّونها من ملكيّتهم. كنّا نقضي نصف المساء هناك ناظرين إلى الرافعة وهي تعمل وكنا ننهمك كغجر البايّخا أنفسهم في البحث وسط الحدائد والقفز فوق غطاء العربات شبه المفككة وأسقفها، أو ننزع أبوابها ضرباً بالحجارة أو بالمخل كثيراً، غير أننا لم نكن نحصل على شيء وما كان الحرس يفتشوننا بحثاً عن النحاس إلا أنهم كانوا ينتهروننا إذا رأونا من قمرتهم نتسلق قمّة تلك الجبال من النحاسيات وصفائح الحديد المؤكسد. وكانوا يصيحون بنا الصيحة ذاتها: «يا صبي! اخرء على أمك. أنت تبحث عن خرابنا». وكان الخرء دائماً تقريباً على أمّ تاتين الذي كان يشرع، بعد أن يمكث هنيهة جالساً وراء المقود متظاهراً أنه يقود، في تسلّق قمّة إيفرست تلك سائراً بيسر أكثر من الآخرين وكأن حدائد ساقيه تتعرّف إلى بنيتها ذاتها، فتقودانه في تلك الحدائد. وكان يودّعه الحرس دائماً الوداع ذاته: إنه الأعرج ولا بدّ. خرء على امّك.

كان للراقصات دائماً تقريباً خطّ درز في قفا الساقين، أو في الجانب الخلفيّ من جواربهنّ. كان نوعاً من نهرٍ غامض ومن غير روافد، يجوب الجانب الخلفيّ من سيقانهنّ ويقسمها إلى قسمين لم

يكونا قطّ متساويين. وكانت تُرى خطوط الدرز تلك إذا درنَ دوراناً أو إذا رفعن في إحدى رقصاتهنّ أقدامهنّ جدّاً حتى يرى المرء ذلك النهر الغزير الذي كان يصبّ بصمتٍ في نهاية الفخذ تحت الموجة البرّاقة لشبكة حجارتهنّ الرخيصة. وكان يبعث على الرغبة ركوب ذلك النهر والإبحار فيه والطواف بترسانة ربلات سيقانهن وانحدار منعطفاتهن ومياه أفخاذهن الساكنة. وإذ لم أكن رأيت في حياتي أيما راقصة ترقص، ولم أر إحداهن تدور أمامي، فقد اكتشفت النهر في صورة كانت تبدو فيها المودينا فرناندث بشكل جانبي معانقة أخي في رقص التانغو. ولو كنت تلك الليلة في الملهى، لما عرفت أيضاً أنّ ما كان معكوساً هو ساقا فاطمة كومبادوس أورأسها. لقد صارت كبّة غزل، كتلة خيطان من تلك التي كانت تأتي بها أمّي من الدكّان ملفوفة، ثمّ تضطرّ إلى فكّها بلفّها على مسند كرسيّ. وهذا ما حدث لفاطمة كومبادوس التي صارت لفيفة خيوط. لقد كانت الأقراص ما جعلها هكذا، الأقراص التي كانت تتناولها الرّاقصة كلّ ساعة، الأقراص ذات النقاط الزرق التي كانت تهدّئ أعصابها صباحاً والكبسولات الخضر والبنفسجية التي كانت تجعلها في مزاج رائق من أجل الرّقص والخروج ليلاً، والأقراص البيض لعلاج القلق، وأقراص أخرى أقلّ بياضاً من أجل النوم من غير أن تسمع مواء القطط وهمس أقدام الفئران التي تزعم أنها كانت تسمعها في أوج النوم، والمسحوق الأصفر من أجل الدوار، وكلّ ذلك يذوّب دائماً في روم قصب السكّر، لأنّ الماء يثير خوفها، والماء – كما قيل لها – كان ملآن بأفاعٍ دقيقة وبدويّيات وهوامّ ما كانت تُرى وليس لها لون، لكنها موجودةً فيه سابحة.

تلك الليلة تناولت فاطمة كومبادوس كبسولة خضراء واحدة وكبسولتين بنفسجيّتين مع روم القصب كان يقدّمه لها الخادم البارث ما إن يراها مقبلة نحو الحاجز من غير أن ينطق كلمة واحدة أو يأتي بحركة. كانت تتناولها ببطء لأنّ معدتها حسبما شرحت لآنسلمو، كانت مضطربة ومملوءة بكلّ الأقراص التي تناولتها ذلك اليوم؛ ثمّ ذهبت إلى حجرتها لتزيل الهالتين السوداويين حول عينيها، وبينما كانت تحاول إزالتهما، يقال إنها كانت تضحك مع لوليتا برويثو والخلاسية ده فويّغو، وكانت تضحك كثيراً من نفسها ومن هالتيها. لكن الضحك فارقها لّما خرجن ليرقصن، وإن اضطرّت إلى أن تقف في الممرّ مرتين متشبثة بالجدران، جالسة القرفصاء وهي تقهقه قهقهات مخنوقة وباكية من الحسن الذي كانت تضفيه عليها هالاتها، حتى كانت على وشك أن تعود لتذهب إلى المنتفعات بسبب الضحك. لكنها، ما إن سمعت موسيقى الفرقة حتى صارت جادّة جدّاً فوضعت القبّعة ذات الريش في مكانها، وعدّلت وضع ثدييها في البكينيّ الذي وُشمت عليه أزهار منٍ حجارة زرق كانت زهرتين أو ثلاث زهرات، لأنّها كانت تختار البكينيّ الأصغر، كان جدّ صغير حتى ما كان يسع ثديي فاطمة كومبادوس الصغيرين، فكانا يفرّان دائماً إلى هذا الجانب أو ذاك الجانب الآخر مطلّين من المنحدر، على قول دون موريثيوثسبدس،أو يتعلّمان الطيران مثل حمامتين خجلتين كما كان يؤكد الشاعر آلبرتوتيسان ذو العينين الحالمتين والمشيّع الفذّ في جنازة كوسمه كوسمه.

وبدأت الرقصْ جادة جدّاً، أكثر جداً من أي وقت آخر. وكان نصف جسم فاطمة كومبادوس بعضلاته التي ما كانت تشبه عضلات

راقصة وانما عضلات رياضيّ أو بهلوان، في حالة هرب رغبة في الخروج من الجلد. وإذ كانت تدور رافعة ذراعيها وتطوف في المسرح على إيقاع الأبواق والغيتارات والأكورديون والكمانين، قافزة على صوت أرثورورّيس الأبّح حتى أرادت عيناها أيضاً أن تخرجا من محجريهما وبدأ زبد أخضر يخرج من إحدى زاويتي فمها ثم من الزاويتين كلتيهما. وراودتها رغبة في الضحك. لكن، لحظة سقوط ضوء المصابيح على رأسها، صار رأس فاطمة كومبادوس - أو هكذا شعرت - بؤرة ضوئية، وكان الضوء يفرّ منها انطلاقاً من داخل رأسها، كان مدفع من الضوء يمسح وجوه الجمهور وضحكاته وأجفانه وأسنانه، لكنّها استمرت راقصة، وحذت حذو الإيقاع الموسيقي الحمامتان المرتعشتان وطعم مر في الفم، واللعاب الأخضر والفقاعات وبقيّة الأقراص وهي تتساقط على أزهار الحجارة الزرق في البكيني الأزرق، أزرق كثوب هيدي لامار الأزرق وعينيها الزرقاوين في آخر مشهد لها في شمشون ودليلة، وكالبحر في أشد أيامه زرقة إلى أن انفجر الضوء وصار كلّ شيء أبيض عند فاطمة كومبادوس ورآها الجمهور تطير فجأة وترتفع عن الأرض ثمّ تسقط مدفوعة بقوّة غير مرئيّة ثلاثة أمتار إلى الخلف، أسفل الستائر يرافقها مواء قطّ مذعور، أطلقه المغنّي المنفرد آرثورورّيس لمّا رآها تطير وقد انفجرت أقراص الدنيا كلها في داخل فاطمة كومبادوس، وانفجرت الأعصاب كلّها وفرّت أوتار جسمها ومفاتيحه من مقابضها مرّة واحدة، وتحولت إلى شبكة من الأسلاك التي تركت رعشة في الريشة الزرقاء فوق رأسها، وتكتكة جهاز مورس كان يقرع أيضاً على جفنيها الأبكمين، وكان يهتزّ فيها جانب من جسمها لا يُعرف جيداً جدّاً أي جانب هو، لأنّ

جسم فاطمة كومبادوس، وقد سبق لي أن قلت لكم، كان كبّة خيطان مبرومة وما كان يعرف جيّداً إن كان الرأس أو الجذع مادار،ولالِمَا كانت ذقنها تستند إلى الظهر وساقاها بالمقلوب كاشفتين عن خطّ درز الجوارب فيهما أو النهر الغامض الذي كان يبحر فيه الموت حينئذ وقد انبطحت على بطنها من غير نفس ولا تقلّصات.

كانت فاطمة كومبادوس ثاني راقصة تموت على مسرح ملهى في برشلونة. لقد سقطت بضوضاء صاخبة، كما قال أخي في رسالته،ضوضاء زجاج وحدائد وعظام، أي كالضوضاء التي كان يسقط فيها تاتين خمس عشرة مرة أو عشرين مرة كل مباراة،وأربعين مرة ونيّف إنْ كنا نلعب مع لاعبي غرانخا سوارث. وعلى العكس ما حدث مع ليلي لمّا شرع الناس كلّهم بالجري وسط صياح لم يخمد إلاّ بعد نصف ساعة من ذلك، لم يقل أحد شيئاً، و لم يتحرّك أحد من مقعده لمّا تفجّرت فاطمة كومبادوس أسفل ستائر المخمل الأحمر. سكتت الموسيقى، وحده النادل البارث الذي ما كان يتكلّم قطّ قال بصوت خفيض جداً: يا يسوع! وكان الصمت شديداً حتى التفتوا جميعاً لينظروا إليه، وكأنما كان له علاقة ما بطيران الراقصة وموتها. وشيئاً فشيئاً أخذت رفيقاتها وأخي وخيرونيمو القرطبي وعازف الكمان أنغولو يقتربون منها سائرين على رؤوس أصابع أقدامهم خشية أن تكون أنفاس المسكينة فاطمة كومبادوس لمّا تخمد. صرّ كرسيّ دون موريثيو صاحب الملهى لمّا نهض. صرت خشبات المسرح، وحلْق أرثورو ريّس المرتعش،وحذاء دون موريثيو وهو يتقدّم وسط الطاولات. وكان مصباح المصور روبيرا، الومضي يقبق من غير أن يصمّم هذا على رفع الآلة ليصوّر المتوفاة. آي! قالت بصوت

خفيض جداً الخلاسية ده فويغو لمّا رأت نصف كبسولة خضراء تطلّ من أنف رفيقتها. يا للمسكينة! تأوّهت ألمودينا فرناندث. فاطمة، فاطمة! همست بصوت واحد تقريباً معاونة الصيني بونيّا، صونيا ستوبال، ولوليتا برّويثو. تسارع صرير حذاء دون موريثيو ثسبدس لمّا عبر خشبة المسرح: وهذا، أيّ شيء هو؟ قال مقطّباً وجهه من غير أن يدرك وضع جسم فاطمة كومبادوس: أيّ شيء هذا؟ كرّر، ثمّ مرة أخرى: لكن، أيّ شيء هذا؟ وأخذ ينشأ داخل الجمهور همس وضوضاء ازدادت بجرّ الكراسي وابتلاع الريق وخطا عمال الملهى. فاطمة كومبادوس! صاح خيرو نيمو القرطبي فارغ الصبر ليحذو حذو ذلك الإيقاع السائد هناك والبطيء جداً. أخافت الصيحة الممثّل كارمونا فتعثّر بالطبل: بوم!لقد ماتت! أنّ زاعقاً الخادم رامونا مستغلّاً صوت الآلة، وتلك كانت الإشارة الأخيرة كيما يتحوّل الجمهور والموسيقيون والراقصات إلى مدّ كانت ضوضاء موجته تذهب وتجيء في قاعة الاحتفالات، مثلما كانت الحاشية تركض في شمشون ودليلة من جانب إلى آخر لمّا رأت الجبّار يشرع في هدّ الأعمدة ويُلقي أرضاً بتمثال إله لم يكن الآله. كانوا جميعاً يسألون عن طبيب، عن شرطيّ، عن قاتل، معلنين صياحاً عن هشاشة الوضع البشري، وكانوا يطلبون كما يحدث عادةً وكما أخذ يصبح مألوفاً بين روّاد الملهى، توضيحاً وعللاً من القدر،من الإله آله الأناجيل الذي كانت ترسمه كونتشي كانكا لنا فوق مرج شبه أخضر بعين ومثلث.

وسط تلك الفوضى التقى وجهاً لوجه، صولداد روبي الخائفة، وروبيرا المعذّب عند مخرج المسرح بين الحبال والستائر والبقايا المتكوّمة من ديكورات قديمة، لمّا أخذا كلاهما ينظران إلى بعضهما

وكأنما وجدا نفسيهما فجأة عاريين إزاء بعضهما من غير أكاذيب ولا مشاعر يخفيانها. البريق في العيون، والخطا واقفة وفم الرّاقصة منفرج ومن غير كلمات على اللسان سوى نفَس المصوّر وصوته ينطقان اسمها:صولداد، ثمّ خطوة واحدة إلى الأمام وصار الاثنان متعانقين، روبيرا غارق في الرائحة والبحر والمياه التي كانت تحيط بصولداد روبي، غائصاً في شعرها، وطحالب جمّتها متشابكة في فم روبيرا الذي وجد نفسه لّما طفا من غوصه المديد، مرّةً أخرى إزاء وهج تلكما العينين اللتين كان يتراقص في داخلهما بريق الريش الأزرق، والبلّورات الزرق التي كانت تلف صولداد روبي كما كانت تلفّ فاطمة كومبادوس وكما كانت تلفّ هيدي لامار. وهناك رأى روبيرا في العينين، بل في أفق العينين لون حقل القمح الأصفر في الصيف وخضرة الأشجار المثمرة الموجودة في عمق حقل القمح، في عمق العينين. رأى لون النهر. وأمام شفتيه كانت شفتا صولداد روبي، شفتا صونصولِيس آرانغورين المنفرجتين وعمق أو نفق القبلة المظلم. وإذ هرب المصوّر روبيرا وصولداد روبي من الملهى عبر باب قبلةٍ، سرّي بعيدين عن نحيب الناس، وجري الناس اللذين كانوا يزيدون في الضغط بهما على كلس الجدار القاتم منزويين، إلى أن شعر المصوّر بيدي الراقصة في صدره وعلى كتفيه يدفعانه إلى الخلف ويبعدانه عن جسمها ومدّها وقلبها.

وكانت دمعة مغشّاة بندى حقل قمح عينيها وإشارة رفض منها أوّل ما رآه المصوّر روبيرا لّما فتح جفنيه وعاد إلى الدنيا. كانت صولداد روبي ترفض صامتة وفي الوقت الذي كانت تبسط ذراعيها، كانت تخطو خطوة إلى الوراء مبعدة المصور وتقول هامسة:

لا، يا فيليكس.

أمّا المصوّر روبيرا المختنق وكأنما غاص فعلاً خلال مالا يُعرف من دقائق إلى أعماق البحر، والمتعثر برجل يزعم انه طبيب وبراقصتين كانتا تركضان خلفه، فقد لفظ أو كاد يتوسل اسم صولدادروبي: صولداد، ثمّ مدّ يده كأعمى، ولم يستطع أن يلمس الراقصة، وبينما كانت هي ترفض مرّة بعد أخرى: لا، يا فيليكس، أبداً! كان المصور يحس كأن جانباً من جسمه لا يعرف جيداً إن كان الكبد، أو الأمعاء أو جانباً من جانبيه قد انهار وسقط على الأرض وقد تحوّل إلى رماد، وكأنّ في داخله شمشون مصغّراً يهدّ قناطر جسده. فتح جفنيه مواربةً وتلمّظ على شفتيه وفي لسانه طعم الراقصة، طعم جسم الرّاقصة وشفتي صونصوليِس آرانغورين التي يسمونها جميعاً صولداد روبي، ثمّ فتح عينيه مرّة أخرى ببطء شديد بأمل أن يكون رفض صولداد وهماً. لكن صولدادروبي ظلّت تتراجع، تلفها موجة الناس الذين كانوا يذهبون من هذا الجانب إلى ذاك الجانب، وقالت له مرّة أخرى أن لا، من غير صوت الآن،وإنما بحركة الشفتين فقط، شفتين كان يقبلهما منذ قليل، بالشفتين اللتين كان مايزال يبرق فوقهما لعاب المصوّر روبيرا، لا، وارتعشت الأزهار الزرق على صدر صولداد روبي مرافَقة بإطلالة بكاء، وتأرجحت في حركة أخيرة من الرفض. وامتدّت في تلك اللحظة يد أحد المشاهدين الضائع في دوّامة الناس، فضغطت على آلة تصوير روبيرا، فأضاء وهج الضوء الومضي بالبياض وجه الرّاقصة وقفا خيرونيموالقرطبي ووجوهاً مشدوهة لزبن شتّى، وصدر دون موريثيوثسبدس الذي كان يتجه نحو المصور البائس المترهّل، مستعجلاً سابحاً بشكل سيّء وسط تلك الموجة من

الأشخاص الذين كانوا يزدحمون عند مدخل خشبة المسرح وعند باب خروج الفنّانين.

أمسك به دون موريثيو من طيتيّ قبة سترته وهو يرشح عرقاً وعلى وجهه الإشمئزاز، وكأنّ دون موريثيو قد أُتخم أيضاً من الأقراص الملوّنة، وكان يكبح الغثيان بألم كبير. لكن الغثيان لم ينتب دون موريثيو لرؤيته فاطمة كومبادوس وقد صارت كبّة خيطان متشابكة وإنما بسبب ما حدس به لمّا لاحظ الطريقة التي كان يودّع بها روبيرا وصولداد روبي بعضهما. وأحس المصوّر بنفسه مزعزعاً ورأى امام وجهه وجه دون موريثيو هامساً بكلمات مختنقة كانت تبدو كصاحبها أيضاً متعرقة لاهثة، وتقول له ألا يزعجه بعد اليوم، ألا يزعجه هو ولا راقصاته، وأن يظلّ بعيداً عنهن، وهو سوف يطرده إلى الشارع قبل أن يدمّر تجارته وخرء عنده السنوات التي قضاها هنا يلتقط صوراً، فالناس كلهم يعرفون أن يلتقطوا الصور ويرسموا الفنانين لذلك هم فنّانون،كيما يظهروا جيداً في الصور أيّاً يكن من يلتقطها، ولقد كان غفر له أشياء كثيرة، وسأله مشيراً إلى المكان الذي توجد فيه كبّة خيطان فاطمة كومبادوس في ما وراء السدّ البشري إن كان يدرك ما هو حادث، إن لم يكن قد أدرك ذلك.

لكن الشيء الوحيد الذي أدركه المصور روبيرا لمّا عاد من دهشته، ومن بخار حلم يقظته، هو أن دون موريثيو كان يعكّر بنفسه النَفَس والطعم اللذين كانت تركتهما في فمه صولداد روبي..وقد عرف الهزّة والأصوات التي كان يعامله بها صاحب المحل معرفة غامضة تلاشت بسبب الغضب الذي أثاره ضياع روائح صولداد روبي، وكان شعوره

بالسرقة والانتهاك سوطاً يجلد ضميره. فأرجع روبيرا إلى الوراء غرّته غير المسرّحة كما يخرّب الأبطال في نهاية الأفلام تسريحة شعورهم فعلاً، وأطلق وهو يحني جسمه من اليمين إلى اليسار لكمة على بطن دون موريثيو ثسبدس الضخم والرخو. وراح الذراع يضرب مرّة أخرى كمنجل، كمقضاب يعمل في نصف دائرة وكله أوتار وعضل، يضرب القميص المتهدّل والرطب، قميص صاحب الملهى الذي انهار من غير كلام ولا نفس ببطء يتصبّب منه عرق برُد فجأة.

لم يسقط رجل الأعمال سقوطاً كاملا بل كان جالساً نصف جلوس وساقاه مبسوطتان مستنداً إلى كوعيه في وضع مستحمّ في مغطس. وكانت تتأرجح آلة التصوير على صدر روبيرا من جانب إلى آخر كبندول أعرج أو قلب من غير صدر، لكنّ نظرته صارت من غير سخط ولا نار لمّا رأى دون موريثيو في ذلك الوضع. وبعد أن رفع روبيرا بصره ورأى ريشة صولداد روبي الزرقاء تضيع وسط الحشد، نظر مرّة أخرى إلى دون موريثيو، نظر إلى وجه صاحب الملهى الشاحب والممتقع، فمدّ له يده، اليد نفسها التي ضربه بها للتّو، كيما يساعده على النهوض، لكن دون موريثيو الذي كان مايزال بلا نفس ولا لون رفضها بصفعة من يده قائلاً له وهو يتلعثم غضباً واختناقاً:

اخرج، روبيرا أخرج من ملهاي، لا أريد أن أراك بعد الآن تتسوّل هنا. سوف يدفع لك آنسلمو أجرك. انتهى الأمر. اذهب إلى خرء منزلك ولا تعد. أتسمعني، روبيرا؟ لا أريدك هنا أبداً.

وهكذا قال أحد ما ثاني مرّة هذه الليلة للمصوّر فيليكس روبيرا في

برشلونة أبداً. وظلّ لحظات باسطاً يده وهو يعض على شفته السفلى باحثاً عن بقية ما من طلاء الشفاه أو طعم صولداد روبي، إلى أن أخذ يسحب يده بكثير من البطء كيما يرفعها إلى جبهته، إلى الغرّة المخرّبة ويرفعها بلمسة سحرية ودار على عقبيه من غير أن يستمع إلى احتجاجات دون موريثيو الذي تركه جالساً وقد أحاطت به فجأة حلقة من الناس كانت تريد بأيّ ثمن أن ينهض صاحب المحل على الرغم من أنه ظلّ يصفع بيده صارخاً: أتسمعني روبيرا؟أتسمعني، يا مشاغباً خرءاً؟ لكن روبيرا كان يصعد الدرجات بخطا واسعة وما كان بمستطاع صوت موريثيو أنْ يمسّ صوت صولداد روبي التي كان روبيرا يضعها داخل رأسه،يضع العينين وحقل القمح الناضج وورق الشجر المثمر الذي كان في نظرة الراقصة، وتهزه ريح هوجاء رطبة إنباء بعاصفة ومخطط صاعقة بعيد، أو عِرْق يشتعل في إنسان العين.

ولمّا وجد المصوّر روبيرا نفسه في هواء الليل شعر أنه كان له رئتان وشعر أن أنفاسه قد كانت تقطعت من قبل. وإذ وقف على درج الملهى وصورة ساقي آلمودينا فرناندث قد تحوّلتا إلى إعلان وراء ظهره شعر بقشعريرة في كليتيه وفي قفا رأسه، ولمّا التفت رأى بضعة رجال يلبسون البياض كانوا يسحبون من باب الشحن محفّة مغطاة بملاءة ربما كانت في عهدها الأوّل بيضاء أيضاً،لكنها صارت الآن بلون أصفر فاتح مائل إلى الخضرة تقريباً، صارت بلون الموت. كانت تبرز تحت الملاءة عظام فاطمة كومبادوس وهيكل عضلاتها السيركي، وكان النسيج يرسم على مستوى الوجه شكل الرّاقصة كأنها مومياء حنّطت حديثاً. وكانت الريشة الزرقاء تبرز من المحفّة متمايلة وتلوّن لوحة الملاءة وزيّ الناقلين الصحيين، الرسمي. وخلّفت الرّاقصة عند

مرورها هامدةً (برودة)[٥] في الهواء، وعلى الأرض أثراً من كبسولات صغيرة وأقراص ملونة خضر في معظمها، استمرّت في الخروج مع الحركة من جسمها والانسكاب من المحفّة.

ولمّا شرعت سيارة الإسعاف في السير، رفع حينئذ روبيرا الآلة إلى مستوى عينه اليمنى وضغط على الزرّ لالتقاط صورة، هو وإن يكن صوّر الشارع أكثر من تصويره سيارة الإسعاف إلا انه كان يوجد ضوء في الخلفيّة إذا نُظر أليه جيّداً يرى أنه كان ضوء الإسعاف، وعواء صافرة تشق الفجر شقين. وبعد أن التقط الصورة ونزل درجتين أو ثلاث درجات من درجات الملهى وابتعد عن وهج النور والمصابيح الصغيرة والملوّنة، شرع يسير في الليل حتى سمع وراءه قعقعة كعاب صاخبة وصوت أخي يناديه. وصل أخي إلى جانبه مختنقاً من الركض وعلى وجهه بقيّة من مكياج،وما يزال يرتدي سترة قصيرة ذات بلّورات زرق لامعة، وبنطالاً على جانبيه شريطتان ضيقتان مزدانتان بقطع معدنيّة زرق لامعة، كالحذاء ذي العنق الطويل الذي أثار الضوضاء على بلاط الرصيف. قلب أخي عينيه نصف قلب، متشبثاً بكتف روبيرا ومبالغاً في اختناقه، و فتح فمه كالأسماك التي يدعها السمّاكون تموت على ضفّة الماء، وأخذ يقول له وسْط الاختناق والهزل أنه ما إن علم بالحدث الثاني في الملهى، لأنّ الحدث الأول كان موت فاطمة كومبادوس، وليتك رأيت المسكينة فاطمة كومبادوس والقفزة التي قفزتها! أرأيت القفزة التي قفزتها؟ اسمع، كانت تبدو كأنما أطلقت

٥- Helor، هكذا هي في الأصل. وأخشى وقوع خطأ مطبعي في كتابة الكلمة التي ربما كانت،HEDOR أي رائحة نتنة. المترجم

عليها طلقة مدفع، كان أخي يلهث ويمسح عرقه و المكياج بقفا يده. إذاً، ما إن علم بما حدث له، بما حدث لروبيرا، حتى خرج إلى الشارع راكضاً وشرع يبحث عنه، وأنّ دون موريثيو لم يكن له حقّ أن يفعل ما فعل. هو سوء تصرف لكن روبيرا ما كان عليه أن يأبه له، هي أزمة وتنقضي، هي مسألة أعصاب بسبب ما حدث لفاطمة كومبادوس المسكينة. ولمّا رأى أخي نظرة روبيرا الحزينة، تخلّص من اختناقه وقال له بعد لحظة صمت من غير أن يرفع يده عن كتفه – ثمَّ قضيّتها هي –. شك أخي قبل أن يلفظ اسم صولدادروبي –. ثمّ هي.أنت تعلم.

نعم.

لقد جعلته مجنوناً. لكن، من الخير ألا تهتمّ به. – حاول أخي أن يبتسم، وأخذ يتنفّس مرّة أخرى بقوّة. – إني أختنق، ياللمسكينة فاطمة كومبادوس، كيف طارت بالهواء!

كلنا مجانين، يارامون؛ بعضنا بسببها وبعضنا الآخر لأسباب أخرى. لكن، كلّنا مجانين. وأنا كنت دائماً مجنوناً، والآن صرت أدرك ذلك. – ظلّ روبيرا يمعن النظر في بلّور واجهة محلّ غامقة، كانت بصعوبة تنعكس فيها بلّورات أخي اللامعة –. أنظر إلى الوراء فلا أعرف نفسي. ولا أعلم من كنت... – حاول أن يبتسم أيضاً –. والحقيقة أن ذلك لا يهمّني.

هكذا هي الأشياء. قال له أخي. نعم، هكذا هي الأشياء، أجابه المصوّر روبيرا، نعم. حينئذ ابتسما كلاهما نصف ابتسامة حقّاً. وبدأ أخي يشكو الألم الذي كان يسببه له الحذاء الذي كان يقلّ درجتين

عن مقياس قدميه. إنّه تقتير دون موريثيو، قال بينما كانا يتقدّمان في الشارع، مثيراً ضوضاء حصان أعرج بقرقعة كعبه. والمسكينة فاطمة كومبادوس، أتصدق أنها لا يمكن أن تفارق رأسي، يافيليكس؟ وكل شيء راح يتحوّل إلى سواد فيما حول الصديقين، وخبا صوتهما، وكانا يُريان فقط وسط حلقة كانت تصبح أصغر فأصغر حتى انغلقت تماماً. ولمّا أخذت الحلقة تنفتح من جديد، صار المصوّر روبيرا وأخي في حانة ضيّقة وطويلة جدّاً أو فارغة تقريباً، وعلى جوانبها كلّها مصابيح صغيرة حمر، وكان سبق لهما أن مرّا بحانات أخرى كثيرة وبأوكار ليلية، أخي بسترته الزرقاء القصيرة ذات الصفيّحات ومن غير قميص، وهو يعرج في البداية ثم يحمل الحذاء بيده، ويضعه أسفل المنصّات أو فوق الطاولات وسْط القناني وكؤوس الفودكا التي كانا يأتيان عليها بسرعة هو وصديقه روبيرا – خلال فجر برشلونة كلّه، وأخي يقول لروبيرا دائماً: تذَكّر الحذاء، لا تجعلني أنسه، تذكره.

كانا يضحكان للحظات، ويتحدّثان عن الملهى، وكان روبيرا يقصّ قصصاً قديمة ويتذكّر أزمنة كانت فيها امرأته تُدعى لينا، وكانت ما تزال ترقص، وكان هو عرفها بُعيد تركها الملهى بسبب قصص، وكانت خير امرأة وضعت قدميها في برشلونة. وكانت تستعر عينا المصوّر. ثم يصمتان للحظة ويذهبان إلى جهة أخرى، ويبولان في الزاوية، وكان أخي يطأ قطع زجاج ويشكو وينظر إليه زبن المكان الذي كانوا يصلون إليه، ويهزّ رأسه قائلاً: لا، بدوّامة شعره، ويتمتم، ياللمسكينة فاطمة كومبادوس، أيّ شيء لم تدخليه جسمَك حتى قفزت هذه القفزة، أرأيتها، ألم ترها؟ ومن غير أن ينتظر جواب صديقه، كان يلوي فمه ويبدأ الضحك، كان يضحك كما كانت

تضحك فاطمة كومبادوس قبل ظهورها على المسرح، و لم يستطع الكلام لاختناقه نصف اختناق بالضحك حتى رفع يده شبه المرتعشة، وببطء شديد قدح الفودكا بالبرتقال إلى فمه، ثم يأخذ بالقول كمريض تناول الدواء لتوّه، ياللمسكينة، ياللمسكينة فاطمة كومبادوس، ما كان أجمل رقصك المامبو! وهكذا حتى وصلا إلى تلك الحانة التي كان صاحبها ضخماً وأمرط الحاجبين وأصلع، وكان يمسح عرق جبهته بشعره المستعار ذي اللون الضارب إلى الخضرة، ويدعك به، وكأنه ممسحة، عنقه ذا الغضون وقفاه، قلقاً من صمت المصوّر وضحكات أخي المستمرّة. لئن لم يكن المحل يقفل أبوابه قطّ، فقد انتهى الأصلع إلى القول لهما بعد أنْ ظلّ للحظة ينخر كما تنخر الحيوانات.

أنتما لكما هيئة الأموات.

ماذا؟ ماذا تقول؟ ؟ – قال أخي وقد ليّنت الفودكا لسانه.

كان الساقي يوجه الكلام إلى المصوّر وإن يكن يستعمل صيغة المثنّى.

وهكذا من الخير لكما أن تذهبا –.. ووضع الشعر المستعار الذي كان يبدو أنه من برونز ملقياً به إلى الخلف كاشفاً كثيراً عن جبينه... – تدفعان لي ثم تذهبان من هنا.

ونظر أخي فيما حوله ووراءه متشككاً باحثاً عن شهود لكنه إذْ لم يرَ غير رجل وجههُ وجه مجرم يداعب فخذي شابة شقراء على طاولة في الخلف، سأل مرة أخرى.

ماذا؟ من سيذهب؟

نحن! – قال روبيرا وهو يسوّي طيّة قبّة سترته، وكأنه اعتاد أن يُطرد من كل الأمكنة – نحن ذاهبان، نعم.

لكن، هذا الرجل.... الأصلع. – كان أخي يتلعثم.

الحذاء! – أشار روبيرا بحاجبيه إلى الحذاء الأزرق الذي كان وضعه أخي عند إحدى زوايا الحاجز.

ولّما أخذه جذب مدفوعاً بالإهانة والسكر، أحد المصابيح الصغيرة الموجودة في كلّ أنحاء المكان. ولّما انكسر المصباح الصغير على الأرض، قفز الساقي قفزة إلى الخلف واستلّ من بين قناني مغبّرة جداً سكيناً فتحه ببطء شديد صارّاً صريرَ لوالب كثيرة. وسعل الرجل ذو وجه الشرّ والموجود في الخلف، وإذ علم أخي أن ذلك السعال كان إشارة دعم للساقي وتحذيراً لهما، فأمسك بسرعة إحدى الزجاجات من عنقها، وبعد أن ضرب بها منصّة الحاجز ضربتين أو ثلاثاً من غير أن يستطيع كسرها، وصوّبها كأنها رمح أو مسدّس جهة الساقي، كما صوّب هذا الأخير إلى صدر روبيرا، السكين الضخم، باسطاً ذراعه وصائحاً به في آن واحد:

هيّا! الآن ستخرجان إلى الشارع العاهر! لا أريد أن أراك بعدُ هنا. أفهمت؟ لا أريدك هنا أبداً، أبداً!

كفّ روبيرا عن إزالة الوبر عن سترته ونظر إلى أخي.

لم يصح الدّيك بعدُ، أليس كذلك، يارامون؟

أصبح أخي الذي كانت الزجاجة تهتزّ في راحته، لا يفهم شيئاً. ونظر إلى الرجل في الزاوية ليرى إن كان يُلمح ثمة ديك هناك. ونظر أيضاً إلى الشابّة الشقراء التي كانت عيناها معتكرتين، ثمّ إلى روبيرا ليسأله الآن.

أي ديك؟

الديك! – وأشار روبيرا إلى النوافذ الصغيرة التي تكاد تلتصق بالسقف والتي أخذت تُضاء في هذا الوقت وتلوّن جوّ المحل بلون أحمر –. لم يصحِ الدّيك بعدُ، وقد أنكروني ثلاث مرّات. وهذي كانت الثالثة.

زاد الساقي في فتح جفنه خشية حيلة لا يعرفها ونظر بمؤخّر طرفه إلى النوافذ الصغيرة التي كان أشار إليها روبيرا، والتي كانت تبدو في هذه اللحظة جمرة حمراء. وسُمع في قاع المحلّ صوتُ جرّ كرسيّ، وانتصب الرجل ذو وجه الشرّ واقفاً، وكانت الشقراء تنظر إلى المشهد باسمة بسمة ملتوية، وأخي يلوّح مع شحوبه وصفيّحاته اللامعة، بالزجاجة من جانب إلى آخر، والساقي يراقب وهو يؤرجح السكّين ببطء كبير، روبيرا الذي كانت أزرار قميصه تكاد تلامس طرف السكين، يرفع آلة التصوير برزانة كبيرة، حتى عينه اليمنى وشرع وهو يصوّبها إلى الساقي، يحرّك من جانب إلى آخر مسنّنات التشغيل إلى أن أحدث صوت: كليك! وانفجر وميض الضوء.

هذا هو! – قال روبيرا لأخي فاغر الفم، بينما أخذ يضع الغطاء الجلدي على الآلة – هذا هو ابن القحبة الذي أنكرني هذه الليلة للمرّة الثالثة.

ماذا حدث يافيرمين؟ – سأل صوت الرجل في الخلف.

لقد صوّرني!

وتحرك الساقي خلف الحاجز من جانب إلى آخر كما تتحرك الحيوانات في أقفاصها.

ماذا عمل لك؟ – سأل الرجل وهو يقترب. وضرب أخي مرّة أخرى بالزجاجة التي ظلّت سليمة لكنها جعلت الحاجز كلّه يرتجّ.

لقد صوّرني!

وانقضّ الساقي الذي طار شعره المستعار بفعل الاندفاع، على روبيرا بالضبط لمّا وضع هذا الأخير الآلة في غمدها وابتعد عن الحاجز. لكن أصابع الأصلع الثخينة تمكنت في اللحظة الأخيرة من ان تتشبّث بطرف ربطة عنق المصوّر وجذبها. وتقدّم ذو وجه الإجرام، ونهضت عن كرسيها الشقراء ذات العينين المعتكرتين بسبب الخطر، ولوّح أخي بالزجاجة كأنها سيف، متأهباً للقذف بها. لكنّ سكّين الأصلع قد كانت طعنت طعنتها باتّجاه وجه المصوّر وقطعت شفرتُها وهي تلامس أنف روبيرا وشفتيه، ربطة العنق على بعد إصبعين أو ثلاثة أصابع من العقدة. ولبثوا جميعاً صامتين يتبادلون النظرات من غير ان يعلموا أية خطوة يجب أن يخطوها الآن. كانت ربطة العنق

المقطوعة حديثاً تتدلّى من يد الساقي وروبيرا يحاول أن يعرف الضرر الذي لحق بصداره، وأخي كان ينظر شزراً إلى زجاج الزجاجة القويّ، والرجل ذو وجه الشرّ كان يخفي يده وراء خاصرته، لا يُعرف إن كان بسبب اللومباغو، أو إن كان يتحسّس سلاحاً ناريّاً يحلّ به ذلك الأمر. وهكذا ظلّوا دقائق معدودات إلى أن قال روبيرا للنادل.

حسن، يا رجل! لقد قبضت الحساب بربطة العنق، وأنا سأرى كيف طلعت الصورة.

ولئن غُصّ الرجل السمين بشتيمتين أو ثلاث شتائم أرادت أن تخرج معاً من فمه، خطا مرّة أخرى وهو يعصر ربطة العنق خطواتِ ضارٍ في قفص في حين انحنى أخي الذي كان ساهياً تقريباً عما كان يحدث هناك، لَيدّقّ بنوع من الفضول الزجاجة على الأرض، وقضت كلمات روبيرا ومناشدةُ الشقراء الرجلَ ذا الخاصرة: ميدينا اتركهم وشأنهم، على الزميم والكهرباء التي أشاعتها الكلمات الأولى من النزاع في الهواء.

احذر، يارامون، سوف تجرح نفسك، قال روبيرا لأخي. وهكذا خرج من الحانة ذات المصابيح الحُمر المصوّر روبيرا مع ربطة عنق طولها أربعة سنتمترات ونصف السنتمتر، وقطرة دم أطلّت من عرنين أنفه، وأخي مرتدياً ثوباً أزرق بصفيّحات لامعة وفي يده زجاجة لا تنكسر، وحذاؤه تحت ذراعه المقابل ملتَقَيْن أوائل الناس الذين كانوا يخرجون من بوّاباتهم، وشاربَيْن خمراً يترجرج في الزجاجة، ومتوقّفَيْن بين حين وآخر ليلتقط روبيرا صورة ما للشوارع المبلولة حتى وصلا أسفل

نزُل ريوس – إسبانيا الذي كانت تقف على شرفته الرئيسة محاطةً بدم الجيرانيوم ومُخمله الأخضر، ومُضاءة بضوء النهار الأوّل دونيا آنخلينس كورتس إسبلا بانتظار وصول زوجها، قلقة من الأخبار التي كانت وصلتها من الملهى متغلّبة على جَمَد الصباح واضعة طرحة صغيرة بلون وردي، وبرفقة الترومبيتا والشحّاذ الليلي بوبيدا والصينيّ بونيّا الذي كان يستند بمرفقه إلى الشرفة وما يزال يلبس رداءه المطبوع عليه تنّينات، ويضع شاربه الصيني الذي خرّبه السهر والتثاؤب.

لقد جلب موت فاطمة كومبادوس فرحاً صاخباً إلى الملهى، ونشاطاً فائضاً من شرب الأنخاب والكؤوس ما كان لأحد أن يراهن عليها إثر الكارثة الثانية التي حلّت بين الراقصات. لأن الناس كلّهم في برشلونة كانوا يحكون أن الراقصات في ذلك الملهى في البَرَاليلوكنّ يمتن على خشبة المسرح، وأنهن عند موتهن كنّ يقمن بعمل لطيف فيدرن دورات لا تُصدّق، أو يسمحن أن يطلق عليهن الرصاص أحد العشاق، ويظللن والرصاصة في الجسم يقفزن ويضربن بأحذيتهن على إيقاع الموسيقى. إنها إحدى لطائف المحلّ، وتفصيل فيه. وأصبح الناس يقصدون الملهى، وما كان أحد منهم يلتفت إلى الرقص، وإنما كانوا ينتظرون دائماً موت أحد ما ويبلّلون الصبر بزجاجات الشمبانيا والسوائل الكحوليّة التي ما كان الخدم يَنوْن لفرح دون موريثيوثسبدس عن نقلها، وإنما كانت بضع راقصات فقط وبضعة رجال يلتزمون الحداد في داخلهم، وإن لم يكن الحزن على موت فاطمة كومبادوس عامّاً إن قلنا الحقيقة، كالحزن الذي أثاره موتُ ليلي في الملهى كلّه، حزن كان كطَبَقةٍ من القار طُليت به روح العمّال وجدران الملهى ذاته.

وسط تلك التدابير وذلك الحبور شبه الجنائزي جاءت الفرصة الكبرى وحفلة أخي رامون الافتتاحية، رامون وإنْ ظلّ أخي، أصبح منذ تلك الليلة بكنية غير كنيتي وصار لا يُسمّى رامون، وأخيراً، لم تكن آلاف ولا ملايين الساعات التي قضاها في ظلمة دور السينما، ولا الدراسة في أكاديمية دون برَاوليو، ولا في أكاديمية آترَاثاناس ولا درْس الخطا التي خطتها جينجر روجرز في الأفلام بعدسة مكبّرة ما وضع أخي على قمّة المسارح في برشلونة، وإنّما هي طلقات كوسمه كوسمه وأقراص فاطمة كومبادوس الخضر والبيض ومسحوقها الأصفر، لأن المغني المنفرد آرثوروريّس إذ صار من ذاته يتلعثم في الغناء وتبرز من جوانب أغنياته كلّها العثرات والاختناق منذ أن سقطت ليلي ميتة وراءه، كانت تبدو له ألحان وصلاته الغنائية زحافةً ومدرجَ تزلجّ مملوءاً بالمخاوف، مع قرع طبول يشبه الطلقات ولهاث موسيقيّين كان يتصوّره المغنّي المنفرد حشرجات، وطرق أكعاب راقصات كانت في نظره توطئة للموت.

منذ حادثة فاطمة كومبادوس والمسكين آرثوروريّس ما كان ينجح في شيء إلاّ في النظر بمؤخرّ طرفه إلى فريق الراقصين، وينسى ما كان يغنّيه، ومن كلّ جانب كان يرى ظلّ المنجل. وقد بلغ النشاز في أدائه حدّاً حدا بدون موريثيو ثسبدِس على الرغم من السنين الكثيرة وحساسيّته من التغيير، إلى التسليم بالحقيقة الواضحة. وأخيراً، قرّر وقد أقنعته قهقهات الجمهور التي كانت تزداد عدداً كلّ مرة، أن يعقد محادثة طويلة مع المغنّي المنفرد الأدرد. وبعد هذه المحادثة التي رأى صاحب الملهى نفسه مضطرّاً فيها إلى أن يستعمل كثيراً من الحركات والهرج، وحشداً من الإطراء، وعلى الأقل ثلاثة مناديل أشبعت عرقاً،

وصار شبه منهك، أعلم أخي أنه منذ السبت التالي سيكون بديل آرثورروريّس، النهائّي، وأنّ عليه أن يذهب إلى خيّاط أزياء ليُوصي على بدلة هو نفسه سيدفع ثمنها، وأنْ يتذكر دائماً تواضع آرثورروريّس وكرامته وأريحيّته، آرثورروريّس الذي تنحّى وهو في أوج مهنته ليفسح المجال للشبيبة. إنّه مثال جدير بالاقتداء، قال دون موريثيو وهو يزيل قطرات العرق التي تسيل على وجهه كالدموع.

هكذا افتتح كارلوس ديل ريّو حفلته الأولى في برشلونة وفي ملهى ملآن بالدخان وله ستائر من مخمل أحمر ويقع على بعد يزيد على ألف كيلومتر من بيتي وبيت تاتين ومدرسة الصمّ والبكم. وقد كان كارلوس ديل ريّو أخي، وهكذا ذكرته لوحات الإعلان الموجودة عند باب الملهى أو في البرَاليلو كلّه: هذه الليلة حفلة افتتاح المغنّي المنفرد كارلوس ديل ريّو، وهذا ما أعلن عنه موريثيوثسبدِس ذاته في الميكروفون، وإن يكنْ ما عمله صاحب الملهى، إطراءَ صورة آرثورروريّس الذي انضم منذ هذه الليلة إلى الفرقة الموسيقية ليعزف البانغو، أكثر مما كان تقديماً لأخي. لكن لمّا تعب دون موريثيو من الكلام عن سنوات الماضي الصعبة لكنها الجميلة جدّاً، لمّا كان الغناء يتمّ من غير ميكروفون، وكان الناس كلّهم في ريعان الشباب، صار الضوء في الملهى ضعيفاً جدّاً وظلّت بؤرة ضوئية تضيء المسرح الفارغ، ولمّا سُمع وسْط الصمت عزفُ كمان إنباءً بلحن ظهرت وسْطه صورة أخي، صورة كارلوس ديل ريّو يلبس سترة من الحرير المفضّض، وبنطالاً غامق اللون، فيه شريط أبيض، وكان صوته يتقدّمه عذباً جدّاً، صاعداً مع بؤرة الضوء، منتشراً كالدخان في الملهى، وإلى جانب الصوت كانت الموسيقى تصّاعد في أركان القاعة كلّها، وكأن الفرقة تناثرت في كلّ الزوايا،

وباتّحادها مع الصوت صارت نباتاً متسلّقاً، ولبلاباً وغابة كانت تخضّر داخل الجمهور، غير أنها كانت غابة من جذوع حلوة وأوراق نظيفة كالصوت المتسلّق، كصوت أخي الذي رافقته في الحال ستّ راقصات كلّهن بالبكيني ذي الحجارة البيض البلوريّة، ولهن قنزعات بيض كلها عذوبة، وكانت ستّ سحب تتموج في قطن الدخان، وكان أخي الذي يبدو أنه كبر بالبدلة وبالنحافة المفقودة والغرّة الهادئة، يفتح ذراعيه كيما يمتدّ صوته، كيما يستطيع دفء اللحن أن يوسع الآفاق، وكانت الياقة الصنعيّة البيضاء تصعد وتهبط على عنقه على إيقاع تثنّيات الصوت، وكان هو يلطّف أشعار الأغنية بالإيقاع المتقن، حتى كان يبدو أن الراقصات ينزلقن على صوته، وأنهنّ تعلّقن بحباله الصوتية بواسطة شرائط غير مرئيّة. ذلك كان الانطباع الذي كان يوحي به عند رؤيتنا الصورة التي وصلت ذات صباح إلى بيتي.

وكان أخي الذي أصبح لا يُسمّى رامون وتعزّز وضعه بالافتتاح، يظهر في وسط ورق الصورة الرقيق فاتحاً ذراعيه كخوريّ يقدّم القدّاس، وحوله وجوه آلمودينا فرناندث، والخلاسية ديفويغو، ولوليتا بِرّويثو، وماري كارمن مولينا، ولابيّامانوليتا وصولدا دروبي، أجسامهن مفضّضة أيضاً وكلّهن يبتسمن ابتسامات متطابقة، وسيقانهنّ كلها ترتفع في آن واحد، وإلى المستوى نفسه، ونظراتهنّ جميعاً تشخص إلى سقف الملهى وكأنهنّ يتبعن حقّاً مجرى الصوت الذي كان يصعد من حلق أخي إلى قنّة ذلك الهيكل المقدّس في البَراليلو.

وكانت الدمعتان اللتان أطلتا من عيني أمّي لامعتين شفافتين كحجارة الراقصات. كانتا ماستين أقامتا توازناً في مؤقتي العينين

وتدحرجتا من ثمّ فرحاً على الخدين: إنه في صحّة جيدة جدّاً، وهو جميل جدّاً كانت تقول أمّي بينما كان أبي يراقبها وهو يتصوّر الحديث الذي سيطلقه ذلك المساء في حانة ٢١، يرقب الصورة ببسمة حالمة وكأنه يستمع في هذه اللحظة إلى الأغنية التي كان غنّاها أخي منذ ثماني ليالٍ أوعشر سابقات، ويساهم في ذلك الباليه من البسمات التي تطفح بها وجوه الراقصات. الآن، اسمه كارلوس ديل ريّو، قال أبي من غير أن يشيح ببصره عن الصورة، لدوبلاس معاونه، الذي وافق وهو يمضغ أسنانه، وكان ينظر من فوق كتفَيْ أبي بإمعان كبير إلى سيقان الفنانات وحاملات أثدائهن اللامعة.

وكان أبي وأمّي يقولان دائماً في الأيام التي تلت وصول صورة حفلة الافتتاح، القول ذاته لكلّ من يُريانه الصورة، سواء أكانت العمّة أنطونيا، أم التوتو، أم آنيتا بنت بلبائينوس، أم ابن العم باكو الحارس، أم كانديدا وفورتس، انظروا آخر صورة لرامون، ها هو يغني، وصار اسمه كارلوس ديل ريّو، وكلهم يقولون: آه، نعم، أو لا يقولون شيئاً ويظلون ناظرين إلى الصورة، وذلك حسب كلّ منهم، وكانوا يقولون مرّة أخرى بعد أن ينظروا إليها هنيهة، آه، نعم، ما أجمله! وما أطوله! وكم صار طويلاً! لكن ما أعجب الفتيات في برشلونة! نعم، نعم، أرى أنه يغنّي جيدّاً، ما عليك إلاّ أن ترى الصورة ؛ هذا ملحوظ، يمكن للمرء أن يُحسّ بما يغنيه، يقيناً هي أغنية: عينان خضراوان، تلك التي في الزاوية، يبدو لي أني سقتها إلى محكمة القاصرين، إن لم تكن هي نفسها، فهي تشبهها. فقد وضعت السمّ لأبيها في العدس. يا للضخامة! والبدلة، ما أجملها؛ مع ذات الساقين يمكنني أن أرقص حتّى يوم دفني، كلّهن لهّن سيقان، لكن ذات الساقين لها ساقان حقّاً.

كانوا يقولون هذا كلّه وأشياء أخرى كثيرة لمّا رأوا أخي أمام الميكروفون، لكن، لم يعلّق أحدٌ بشيء على اسم أخي، لأن الإخوة جميعاً يكونون بكنية واحدة، وليس أحدهم مارتينيث والآخر كينتانا. وكان يبدو للناس طبيعيّاً ألاّ يُسمّى بعد اليوم رامون ولاصوله، حتى أنه كتب على طرف الظرف: كارلوس ديل ريّو، ولمّا ودّعنا في الرسالة قال: ابنكم الذي يحبكم كثيراً، كارلوس. وبدا على أختي وحدها أنها لمحت التغيّر، لكنّها تلقّته باحتفال كبير بدلاً من أن تُصاب بالذعر، وتخلّت هي ذاتها منذ ذلك الحين عن اسمها ماري كارمن، وعمّدت نفسها باسم: أولغا. وكان أوّل ما عملته ما إن خطرت لها الفكرة، هو أنها جلست إلى المنضدة في غرفة المعيشة ومكثت هناك مدة تزيد على ساعتين وهي توقع جبلاً من البطاقات باسمها الجديد حتى طلع لها توقيع فخم مع حرف O نصف مفتوح وله هدّاب إلى فوق، أو غرّة مجنونة. ومنذ ذلك الحين ما كانت تجيب إذا ناداها أحد باسمها الذي عُرفت به دائماً. وإن أقصى ما كان يرضيها أن يُقال لها: ماري أولغا. وصارت صديقتها ماري كارمن لابادو تناديها من النافذة منذ مساء هذا التوقيع وتبنّي الاسم الجديد: أولغا، في أية ساعة ستخرجين، لا تنسي الاسطوانات، أولغا: أعيريني المنديل الأحمر، وكل كلمتين كانت ماري كارمن لابادو تضع الاسم الجديد وسْط الكلمات الأخرى، وكأنما كانت تُكثر من استعماله لتستهلكه حتى لا يُلاحظ أنّه جديد، وكانت تخترع شيئاً ما تقوله لتذكر الاسم: إنها الساعة الرابعة، يا أولغا، أولغا، اليوم لن تمطر، اسمعي أولغا: الدّراقة في فناء بيتكم عالية جدّاً، أولغا.

وإذ كنت أرى أختي تعمل بهذا الشكل، كنت أخشى أن تقول

في أية لحظة أنّها ستذهب هي أيضاً وتخرج راكضة وتستقلّ أحد هذه القطارات التي تسير خلال الليل كلّه متلوّية فوق سكك تزيد على ألف كيلو متر إلى أن تصل برشلونة، حتى أن أختي كانت تتكلّم بطريقة مختلفة وقد زادت جنوناً وغرابة عمّا قبل لمّا كانت تُسمّى ماري كارمن. وكانت تُلقي برأسها إلى الخلف إذا ضحكت كما تضحك (الأولغات)، أو كما يجب أن يضحك الأشخاص الذين يحملون اسم أولغا حسب تفكيرها هي، وكانت تضع أزهاراً على ثوبها المخملي، وتحتبس كلّ الوقت في حجرتها تستمع إلى الموسيقى وتتحدّث إلى صديقتها ماري كارمن لابادو أو تركب درّاجة أحد أصدقائها النّارية وشعرها وأزهارها في الريح، وإذا جاءت البيت كانت تسأل أمّي وهي تمضغ جزرةً نيئة، أو شيئاً آخر كانت تكرهه من قبل، إن كانت وصلت رسالة من كارلوس، أو تتجه مباشرة إلى خزانة الخزف إن كان ثمة صورة جديدة انضمت إلى ذلك الملهى من الكرتون الرقيق الذي أخذ يغمر شيئاً فشيئاً الفناجين والبورسلان وكل ذلك مملوء بالصفيّحات برّاقة وبناس لا يُسمون بأسمائهم الحقيقية.

ولمّا رأيت أن مقايضة الأسماء تُقبل بهذا الشكل الطبيعي، فكّرت إنْ لم يكن ذلك الهوس مرضاً يلاحق عائلتي، وبدأت أسأل نفسي باهتمام كبير أني متى كبرت في السنّ، سوف تأتي لحظة يُخيّل إلي فيها أيضاً أن أبدّل اسمي، وأني سأستيقظ ذات يوم بكنية بديلة وبرغبة في البدء بالرقص والذهاب إلى برشلونة. وكنت أرى نفسي في أعلى مسرح أخطو خطوات إلى الأمام وخطوات إلى الخلف هازّاً بطني ومشكلاً ثنائياً مع لويسيتو سانخوان ويداه في جيبي معطفه من الفانيلا، ووجهه حالم وغرّته عالية جدّاً، وأنا ألبس سترة حريرية

وأضع ياقة صنعية بيضاء من غير أن أعرف أيّ اسم أُطلقه على نفسي، إن كان ماركوس ماكيث، أم غوليات خيمينيث، أو ليبرْتوغارثيّا، وليس مثل لويسيتو سانخوان الذي لمّا سألته أي اسم كان يعَجبه إنْ لم يكن يسمى لويسيتو سانخوان، رفع بصره عن ورقة الكتابة بعد يومين من ذلك وظننت أنه لم يسمع السؤال أو أنه نسيه، وقال لي وعيناه تبرقان وكأنما وضع السكين ذا المقبض الأحمر في يده، أو أن عاملة المحلّ اختارت له بملقطها حمولة من الحلوى، قال لي بدقة كبيرة أنه كان يعجبه حقاً أن يُسمّى ليونارد.ت.كِمبرلي الذي بدا لي في الحقيقة اسماً قليل الملاءمة جدّاً لراقص في البَراليلو. والتاء هي الحرف الأول من تيودور.

أمّا تاتين فكان يُسمّى دائماً تاتين، وكان الناس كلّهم ينادونه دائماً باسم تاتين، وإن كان يكتبه: فارّاآنغلادا في لوائح المدرسة وعلى ظروف الأشعّة البنيّة التي كان يتجوّل بها في شاحنة خالته الصغيرة. وربّما كان عليه هو الذي كان يُسمّى دائماً بالاسم ذاته، أن يُغيّر اسمه، لأنه منذ بداية زياراته للأطباء أخذ يتحوّل شيئاً فشيئاً إلى شخص آخر. لا لأن تاتين تخلى عن العناية بحدائد ساقيه فقط، أو كان يجعل شعره مشعثاً أو يرجم مانوليتو يتخادا إذا مر هذا على درّاجته في الشارع، إضافة إلى ذلك كلّه وإلى غرامه بمكبّ الحدائد في البيخا، بل لأنه كان يقضي في الأوقات الأخيرة مدّة طويلة من غير كلام، وإذا تكلم فقد كان كلامه كلّه صياحاً، وفي مباريات الكرة كان يبدو له أنّ المهاجمين يركضون قليلاً جدّاً، وأنّا نحن – المدافعين – صرنا موتى من الخوف.

لكن تاتين كان أكثر الناس خوفاً. فقد صار مرفق خالته التي كانت

تبدو أنّها خاله، يقلّ بروزه أكثر فأكثر من نافذة شاحنتها الصغيرة، وأخذت رحلات تاتين تتباعد بشكل غامض، وأصبحنا لا نرى تقريباً شاحنة خالته الصغيرة تمرّ من أمام مدرسة دونيا كارمن، ولا في أعلى شارع مرمولِيس أو أسفله، وإذا ما التقى أحد العربة مصادفة، فإنه كان يختصر بسمته إلى النصف، ويده واقفة في الهواء حين يتحقّق أنّ وجه تاتين لا يظهر أو لا يظهر أحد في أضواء البلور الخلفي، ليقول له وداعاً. ولقد لمحت هذا الخوف لمّا جئت بيت تاتين ومعي رزمة من مسلسلة «الملازم الأسود» المصوّرة، ودخلت حجرة صديقي بعد أن اجتزتُ ضوضاء الخالات، التي كانت تنتشر بكثرة في الممّرات. وقد كان تاتين هذا اليوم، هذا المساء نصف مستلقٍ على سريره مرتدياً بزة حارس مرمى بكنزة زرقاء فيها نتوءان أبيضانِ على الصدر، وبنطال قصير ذي وسادتين على الجانبين ما كانتا تنفعان في شيء من أجل تخميد السقطات الصاخبة لحارس مرمى مصاب بالشلل. ولئن ظلّ تاتين مدّة ما منكبّاً على رسوم المجلّات، فقد كان يرفع وجهه في كل لحظة جهة الباب ويصيح منادياً إحدى خالاته. أمّا أنا فظللت صامتاً ناظراً إلى العربات الأمريكية في واجهة زجاجية وقد زال عنها نصف طلائها. وشعرت شعوراً مسبقاً أن في تلك الأندية انعكاساً لاحتقار ما، وعنفاً ربّما كانا هما نفسهما ما حوّل تلك العربات إلى خردة تقريباً. إلى أن ظهرت إحدى الخالات في إطار الباب وسألت ابن أختها بهدوء كبير عمّا يريد، وإذ قال هذا من غير أن يرفع بصره عن المجلّة أن وقت الذهاب إلى الطبيب قد حان، وبيّنت لي خالته وهي تنظر إليّ باسمة بسمة حانية، وكأني أنا من ناداها، أنه لا ينبغي لهما أن يذهبا اليوم ولا خلال أسبوع أيضاً إلى أي طبيب، ولقد قالوا لك

ذلك الليلة السابقة، والليلة السابقة على السابقة، ياتاتين، يابني، وأنت تعلمه، همست خالته بحنان كبير حتى فكّرت أن المرأة ليست خالته، وإنّما هي أمّه على الأغلب: نحن قلنا ذلك، ويقول الدكتور كوبيرو أنّه لا بدّ لنا من الصبر ورؤية ظهور التقدّم. وكان الملازم الأسود يرتعد في يدي تاتين وكأن المسلسلة المصوّرة كانت ملأى برسوم فيها زلازل وكوارث.

نعم، حينما أموت.

وإذْ كان الصوت زميماً أكثر مما هو صوت، وصرير أسنان وشرراً تحدثه أسلاك عارية وتنقل التّيار بشكل متعثّر، سألت الخالة مرتعشة:

ماذا؟ ماذا قلت لي، يابني، يا تاتين؟

أريد عصير الدرّاق من غير تفل. من أجلي ومن أجل صديقي.

نعم، يا بني. قليل من العصير.

واختفت الخالة عبر الباب خشية أن تسمع مرّة أخرى حماقة جديدة تنتقل بوساطة المدّ الذي كان يطفو في تلك الغرفة شبه المكهربة. ولّما صارت خطاها تُسمع وهي تخبّ في الممّر، رفع حينئذ بصره عن المجلة المصوّرة وأخذ يقوم بحركات وتكشيرات ويتمتم بشتائم، ويقطّع كمّه بغضب كبير حتى صار جسمُه كلّه يرتعد ونظّارته تضرب مجنونة على أنفه، وصارت كهرباء الغرفة وصريرها داخل تاتين الذي كان يرتعد كبطل ذلك الفيلم، لمّا حُلق شعر رأسه وأُجلس على الكرسي الكهربائي، وكان يقفز قفزات جدّ كبيرة حتّى جعل الحجرة

والآلكاتراس كلّه وسينغسينغ في الظلام ومن غير تيّار، ويُطلق دخاناً من تحت إبطيه بينما الصحفي صاحب القصّة الذي كان يحذّره دائماً من أنه سيُصعق بالكهرباء، كان ينظر إليه بعينيه الزرقاوين من خلال الواجهة الزجاجية الموجودة في حجرات الغاز، الحجرات الفارغة والخالية من اللوحات والستائر والصوفات وحيث يوضع الكرسي الكهربائي دائماً.

لكن قصة تاتين ليست كقصة الفيلم. إذْ تظهر في الفيلم بعد أن يُرى قميص الرجل الرماديّ يطلق دخاناً أبيض ويُضاء وجه الصحفي، حروف ملأى بالشقوق تقول – The End – النهاية، ويعمّ الظلام كل شيء للحظة واحدة، وكأنّما يُصعق أحدُهم في أي قبو من أقبية السينما، ثمّ تُشعل الأضواء في الحال وتنطلق الموسيقى من مكبّرات الصوت، ويبتسم كل واحد من الناس إلى صديق أو إلى خطيبته أو إلى أبيه، وينهض من مقعده لا ليُصعق بالكهرباء، ويسير ببطء شديد في الممّر الملآن بأصدقاء آخرين، وخطيبات أخريات، وآباء آخرين. أمّا في بيت تاتين، فما كانت تنطلق موسيقى من أي جانب، وكان يبدو لتاتين على الرغم من وجود ستائر كثيرة وصوفات ولوحات، أنهم لا يكفّون عن صعقه بالكهرباء فتصّر الحدائد، حدائد نوابض الفراش، المعدنيّة، وحدائد الساقين مختلطة ببعضها، وترن المفصّلات التي كانت تشبه جلجلاً، وأنا كنت أسمع الراقصة ليلى تسقط على الأرض وكنت أسمع طلقة كوسمه كوسمه، والأبواق الناشزة، كنت أسمع صوت خبط بلّورات فاطمة كومبادوس وصفيّحاتها اللامعة وهي تنفجر على الأرض، وصرير المصيبيح الكهربائي وأسلاكه الملتهبة فوق رأس تاتين. إلى أن أخذ صديقي يهدأ ممسكاً بالمجلّة مدعوكة بين يديه، بعد

أن نضب عداد الضوء في بيته وفي الشارع كلّه وفي كتل الأبنية كلّها، وظلّ جسمه طافياً فوق الفراش المرتعش كغريق تهدهده الموجة العذبة التي تعقب الأعاصير. وسألني وهو يمسّد تجعدّات المجلّة متى اشتريت هذا العدد من الملازم الأسود الذي أعجب به كثيراً، وكأنّما استطاع خلال تلك الغيبوبة أن يقرأ المجلة. فقلت له أن أبي جلبه لي منذ يومين، أو ثلاث ليال من كشك قرب المحطّة لأن مكتبة فورتس لا تبيع الملازم الأسود.

– حقاً – قال تاتين وقد انتهى من كيّ صفحة الغلاف – لقد تجعّدت..

– لا يهمّ.

– لكنها لم تتمزّق – تابع تاتين وهو يمسّد صفحة الغلاف.

– لا يهمّ.

– يمكن أن تُقرأ جيداً. حروفها واضحة.

– لا يهم، قلت مرّة أخرى، ذلك على الرغم من أني كنت أهتمّ أن تظلّ مجلاّتي مُلساً من غير طيات ولا بقع، فما كنت أبالي تلك اللحظة بما حدث للملازم الأسود ولمسلسلة الملازم الأسود. وقد كفّت أسنان صديقي عن الاصطكاك، ووضعت خالته على طاولة عصير الدرّاق وبعض البسكويت السويسري الذي يُباع في محلّ إسبيغا ده أورو، وعليه كثير من المسحوق الأبيض، وهو نوع من قشرة حلوة تلطخ الأصابع وحوالي الفم، لكنّي كنت راغباً في الخروج من ذلك البيت،

وكنت أقسم مرة بعد أخرى إني لن أعود إلى هنا، وما كان يهمني أن يضحك تاتين مقهقهاً إذا تحدث عن مانوليتو تيخادا، ولا أن تبدو عيناه المجنونتان أقلّ جنوناً ولا أن يفتح الواجهة الزجاجّية أيضاً بمفتاح يحمله معلّقاً بخيط في رقبته، ولا أن يُهدي إليّ عربة حديديّة كُتب على هيكلها بنتلي كونتننتال، بل كان يبدو لي تاتين كلّ مرة أقرب إلى الرجل الذي حُلق شعر قمة رأسه، وكل مرة كنت أراه بشكل أوضح. وكان تاتين سجيناً يتسلّى في زنزانته بتناول عصائر من غير تفل ويتلقى زيارات بانتظار يوم إعدامه. وأنا كنت الصحفيّ الذي كان يرى أخيراً كيف يضعون الصابون على رأسه بينما خوريٌّ له وجه حَمل يقرأ أشياء من الإنجيل إلى جانبه، سوى أني ما كنت أحذّر تاتين من أنه سيُصعق بالكهرباء وما كنت أقول له شيئاً إلاّ أني كنت أضغط بقبضتي على البنتلي كونتننتال وأحاول أن أبتلع بسكويت إسبيغا ده أورو لأذهب أسرع ما يمكنني، وإنْ لم أخرجْ هذه المرّة راكضاً ولم أترك تاتين والكلمة في فمه كما فعلت ذلك المساء الذي كان يرافقه فيه طفل مهندم يُسمى رامون. أمّا هذا المساء فقد تحمّلت رغباتي في الركض وتركته يتكلم عن كيني التي كانت أقل جمالاً حسب رأيه، وتعاني بثرةً ملأى بالقيح على جانب فمها عداها بها كاستيو الذي كان ملأن قيحاً، ودمه ملوّثاً، وإن الناس يموتون أحياناً من ذلك، ومن كثرة القيح في داخلهم، قيح لا يكفي لظهور بثورهم فقط، بل يسبب لهم شيئاً آخر يُسمّى تعفّن الدم، فيُضطرّون إلى دفنهم في كلس حيّ. على الأغلب، كاستيّو لا يعاني ذلك، أو على الأغلب، نعم، وهذا غير معروف.

كان البسكويت السويسري ينزل منزلقاً ببطء إلى معدتي كالسلّور،

وأنا كنت أنظر إلى عيني تاتين الزرقاوين، إلى السجين الذي كان يحمل قضبان سجنه في ساقيه. وأخذت أقترب شيئاً فشيئاً من باب الحجرة وقلت له: إني ذاهب، ولا يهمّ أن تظلّ مسلسلة الملازم الأسود معه، فسوف يعطنيها في يوم آخر، لكن، عليه أن يحاول ألاّ يدعكها أكثر مما دعكها. وسرت في الممشى ببطء شديد، كما يسير في ممرات السجون مرافقو المسجونين الذين سيُعدمون، والسقوف عالية كسقوف السجون، وضوضاء خالات تاتين تنطلق من كلّ الأركان، وكأن الخالات كنّ صراصير قد دخلن شقوق الجدران موسوسة بمجسّاتها الممدودة؛ وأطلّت إحدى الخالات من أحد الأبواب وهي ليست تلك التي تقود الشاحنة الصغيرة مُخرجة كوعَها من النافذة الصغيرة، ولا تلك التي فتحت لي الباب، ولا تلك التي جاءت على صياح تاتين، ثم سارت إلى جانبي فيما تبقّى من الممّر متكلّمة باللاتينية كخوري الإنجيل وأنا أبتسم لها من غير أن أفهم شيئاً حتى أطبقت الباب المطل على الشارع، واستطعت من خلال قضبان الابتسامة التي ودّعتها بها لتّوي أن أتقيأ على درج بيتهم ذاته بسكويت محل إسبيغاده أورو، وعصير الدرّاق وتفلاً إن لم يكن في العصير فقد نما في معدتي، وكان له طعم مرّ ربّما كطعم لعاب كاستيّو، السامّ.

وسرت إلى بيتي الواقع في الطرف الآخر من شارع أنطونيو خيمينث رويث مترنّحاً تحت بداية خفق مصابيح الليل. وكان مبنى الهاتف المتلألئ ببرجه الحديدي الضائع في السماء كأنه فخذُ عملاق مصاب بالشلل، مرآةَ وحدتي، وكانت خطاي أيضاً خطا سجين استطالت بسبب الظلال وضمتت بسبب الريح التي تهزّ قميصي وروحي. وأسرعت في السير خشية ألاّ يكون بيتي في مكانه متى وصلت إليه،

خشية أن تمرّ الأعوام فأجد نفسي عند وصولي إلى البيت، أمام أرضٍ جرداء تنمو وسْط ركامها شجرة درّاق ذاوية. كنت أريد أن أرى أمّي وأرى يدي أبي، اليدين اللتين كانتا تمسكان برسائل أخي، اليدين اللتين كانتا تمسكان بتبغ البيسونتهِ وبأقداح الجعة، اللتين كانتا تداعبان كمحراث لطيف حقل قمح رأسي، الأصفر. وها هنا وجدت بيتي كطيف، وكأنّما مرت الأعوام حقاً ودخلت في عملية سحر: فها هو زجاج الباب الأخضر والأحمر يخفيه الليل وممّر الزُليجات الزرق، والمخادع كلّ منها بنَفس مختلف، وغرفة المعيشة بسجّادتها المرسوم عليها أسد متكبّر، وها هي أمّي وسْط المطبخ. وكانت أمّي هذه الليلة أمّي أكثر من ايّ وقت آخر، بصدارها وصوتها، وعيناها تسألانني وقد امتلأتا بالحنان أين كنت؟

– مع تاتين الأشلّ. كنت في بيته.

– ياللمسكين!

– نعم، مسكين تاتين بحدائده، من غير أمّ وسْط كثرة من الخالات، مسكين تاتين السجين المصعوق بالكهرباء كلّ الأيّام، وكلّ الأيّام في ممرّات الموت، مسكين تاتين المحتبس حقّاً في غابة لا يستطيع المرء الفرار منها وليس كغابتي ولا كغابة البيتراكو التي طلعت في أنفه وكان بمستطاع الأطبّاء تقليمها كجنائنيّن مرحين، و لم تكن غابة فيها برك ماء وشمس وحيوانات وإنما هي غابة معدنية وباردة، وسجن مظلم ذو نوافذ ملأى بقضبان من خلالها يمكن أن تُرى غابة الحياة، سجن منكّل كلّه. وكان تاتين سجين زنزانة فارغة كغرف الغاز ذات البراغي

حيث يشدّ الكرسيّ الكهربائي ولا يوجد فيها غير صليب عُلِّق على أحد الجدران.

- ياللمسكين!

- نعم.

إنها رائحة أمي، رائحة بيتي، رائحة الجنّة الأرضيّة قبل أن يكون تفّاح على الأشجار، قبل أن يصبح الزمن زهرة بيضاء تذهب الريح بتويجيّاتها. وقد شعرت لمّا تدثرت بأغطية السرير كيف كانت تلفني الروائح الذكيّة والنقيّة الطافية في الدنيا كلّها، ولمّا صرت في أبواب النوم وتواردت إلى ذاكرتي المتلاشية مناظر ووجوه أشخاص لم أرها قط من قبل - وجوه متخيّلة في عتمة الصور التي يرسلها أخي والتي كانت تتراكب مع وجوه أخرى سألتقيها بمرّ الزمن وكان بينها أيضاً وجهي ذاته في المستقبل -،وصلتني ضوضاء قويّة تعرّفت فيها وأنا بين اليقظة والنوم إلى نفثات سيّارة أبي الطيّعة، وكان همس المحرك، همس محرّك الليلاند ترجيعاً حارّاً وخفق قلب قويّ ملأني فوراً بالهدوء وغشّى جسمي وحلمي بحرارةٍ مداعبة.

وقد كانت أوّل صورة حقيقية لحفلة أخي الافتتاحية مغنّياً من عمل روبيرا على الرغم من أن دون موريثيو قد طرده من الملهى، وتخلّى هو عن أن يكون مصوّر الملهى الرسمي إلى الأبد. وهذا ما عرفته بمرّ الزمن لمّا تحوّل وجهي إلى هذا الوجه ناتئ العظام الذي كنت ألمحته أحياناً في أحلام طفولتي. لأن روبيرا وإن ظلّ أياماً عدّة بعد المشادّة مع دون موريثيو ثسبدِس، من غير أن يظهر في الملهى محتبساً في حجرته،

خانقاً أحزانه في أحواض التظهير والتثبيت، قائماً بتجارب ومختلقاً مسوخاً ومصوّراً أجساماً و رؤوساً مختلفة عن بعضها كأنه عالم مجنون يضع أرجل جرذ على جسم ضفدع، ورأس زرافة على حصان، فقد قال لأخي لمّا علم أنه سيكون المغنّي المنفرد في الملهى: إن أوّل ما يجب عليك عمله أن تُسمّي نفسك كارلوس ديل ريّو؛ وأكّد له أنه سيكون في حفلته الافتتاحية وأن جهاز الضوء الومضي سيكون أول جهاز يسكب ضوءه عليه. فعانقه أخي منفعلاً قائلاً له: نعم، كارلوس ديل ريّو. وكأن روبيرا كان من سيُسمّى بهذا الشكل وليس هو.

وكان دون موريثيو تعاقد مع مصوّر من الرمبلاس بدلاً من روبيرا. إنّه المصوّر بوربّتا الذي اعتاد أن يصوّر في مرسمه على خلفيّة جبل مونسرّات أو العائلة المقدّسة، والناس في حالة سكون والأضواء متعادلة دائماً والمسافات أكثر من ثابتة، ولمّا جاء الملهى ورأى ناساً كثيرين يذهبون من جانب إلى آخر، ودون موريثيو يطلب منه أن يلتقط له صورة مع هذا الزبون أو ذاك من غير أن تهمّه الجهة التي يُسلط منها عليه الضوء، ولا التباين بين الظلّ والضوء، شعر بشيء من الدُّوار، بدوار كان يجعل أصابعه وعينيه أكثر بطئاً. وكان بوربّتا بالفعل كارثة كاملة على الراقصات، لأن الراقصات كنّ يرقصن وهن غير ساكنات، ويدرن دورات ويختلطن ببعضهن بعضاً، ويدخلن وسط الظلال ويخرجن فجأة إلى دائرة الضوء وهنّ يطلقن من كل الجهات ومضات وزخّات مضيئة بصفيّحاتهن وحجارتهن اللامعة. وكانت صور الراقصات كلها تظهر ملتوية وكأنما التقطها من على ظهر التيتانيك لحظة غرقها.

بوربّتا: أيعني هذا أنك لا تعرف أن تلتقط صوراً؟ أيُّ خُرْءِ عمِل

تلك الصور التي أريتنيها في بيتك؟ تلك كانت جميلة جدّاً، والناس معروفون فيها بوجوههم ذاتها، وهنا لا يُعرف من هم.

ذلك أنّهم، سيد دون موريثيو، لا يكفّون عن الحركة.

إذا لم يتحركوا فسوف يكونون تماثيل ولن يعملوا في الملهى، وإنّما في حديقة عامّة، يابوربّتا.

لا تزعج نفسك يا سيدي. بالممارسة سوف يسوّى كل شيء.

إذاً، سوِّ ذلك فوراً، وليس صعباً أيضاً هو مجرد ضغط على زرّ.

لكن بوربّتا ما كان يسوّي شيئاً في ذلك الوقت، وما كان يريد أحد أن يلتقط له صورة كيلا يُضطر بعد ذلك إلى أن يظلّ هنيهة وهو يخمّن إن كانت هذه صورته أو تلك الأخرى، وإلى أن يتعرف إلى نفسه من ربطة العنق أو من الشامة الموجودة إلى جانب السرّة، لأن الوجوه كانت تطير مع العيون، أو تكون كلّها مظلمة، والأسوأ من ذلك هو أن يتعرّف المرء إلى نفسه أحياناً من أوّل نظرة، لكنه إذا نظر إلى الصورة بإمعان يدرك أن خدّيه الممتلئين صارا مضغوطين والجسم مدّوراً، أو أنفه مفرطاً في حدتّه. لكن الحقيقة هي أن بوربّتا حتى لو التقط صوراً ملائكية وواضحة تمام الوضوح وفيها تظهر الراقصات كلّهن بأشكال ملائكية، وسيقان طويلة وتامة كساقي آلمودينافرناندث لّما أراد أحد في الملهى أيضاً أن يلتقط له صورة. وكانوا كلّهم يفتقدون روبيرا، ليس صوره فقط، وإنّما حضوره وعينيه اللتين كانتا عدستين بؤرتاهما مركّزتان جدّاً وتلتقطان كل شيء.

لذلك لمّا حلّت ليلة حفلة كارلوس ديل ريّو، أخي، الافتتاحية ونزل روبيرا لتوّه سلّم المدخل بغرّته، غرّة المغامر، وشاربه كسوط قصير أسود، وآلة التصوير متأرجحة على صدار قميصه المكوي حديثاً وظهر في عمق القاعة، طافت الملهى كلّه ضوضاء انتهت بأن انفجرت تصفيقاً واخترقت الجمهور منطلقة من المسرح ومن الفرقة، حتى وصلت روبيرا نفسه الذي حيّا الحضور بابتسامة مكبوتة وغمزة عين خفية جدّاً بصعوبة بدأها، بينما كان إِمليو بلا تَكِث تشيسباس يدير وهو في حالة تمّرد، المصباح وسلط ضوءه على الحضور، في حين كان الخادم ألبارث يصيح وقد فقد خرسه: يحيا روبيرا! عاش روبيرا! وكان آنسلمو الوكيل يصفّق مبتهجاً وهادئاً من خلف منصته والبشكير على كتفه، وكانت الراقصات يخرجن من الحجرات بنصف مكياج وقنزعات الريش ملويّة على رؤوسهنّ وبوضع سيّء. وظهر أخي كارلوس ديل ريّو بقميص لمّاع من غير حزام حريري ولا ياقة صنعية، وأخرج تشين لومن كمّيه المطبوعين وهو يرفع يديه وسط المسرح، حمامتين بيضاوين انطلقتا في طيرانهما بخفق مرِح وسْط التصفيق نحو قبّة الملهى. وحده دون موريثيو ظلّ أخرس ومن غير أن يصفق ناظراً إلى هؤلاء وإلى أولئك، لأنه حتى بوربَتا نفسه الذي ما كان يعرف ماذا يحدث ولا لمن يوجّه التصفيق، وضع آلته على إحدى الطاولات وانطلق في تصفيق خجل تضاءل للحظات لمّا عرف أنه مكرس للمصوّر روبيرا، ثم استؤنف مباشرة وبتصميم أشد تمجيداً لنقابة المصوّرين.

ولا صولدا دروبي صفّقت من بين أطر المسرح، وقد أطلت من أحد جوانب الستائر مزدانة بالبكيني ذي الحجارة الشفافة، وإن

كانت تطير من عينيها أيضاً حمامتان وبسمة حالمة علت شفتيها المطليّتين بالأحمر القرمزي. وراح روبيرا الذي كان ما يزال واقفاً في مدخل القاعة، ينظر للحظة إلى تلك البسمة التي كانت تنظر إليه إلى أن سقط مخمل الستارة ببطء كبير كذؤابة امرأة واختفت الراقصة صولدا دروبي التي كانت نعم، تحمل في داخلها أيضاً امرأة أخرى تدعى صونصولس آرانغورين، ظلت مختبئة وراء تأرجح المخمل الحلو.

لئن أخذ التصفيق يخفت وسط الجمهور، و ظلّ دون موريثيو يوزّع البسمات وهو يجفّف عرق جبينه بالمنديل، وكلّهم يعلمون أن تلك البسمة مسمومة وأسوأ من أية صيحة أو لعنة، فقد أطال العاملون والراقصون خبطاً بالأحذية وتصفيقاً بالأيدي في استقبال المصوّر فيليكس روبيرا كرِسْبو الذي مرّ من جنب صاحب المحلّ سائراً ببطء كبير وقد احتكّ كتفه بكتف دون موريثيومن غير أن ينظر إليه. وكان جو المسرح الذي خلقه ظهور روبيرا ملائماً لحفلة أخي الافتتاحية كيما يصّاعد صوته وسْط صمت حماسي على شكل دخان وينتشر في المكان كلّه كما كنت قصصت عليكم بتفصيل أكبر في صفحات سابقات. واقترب روبيرا كأنّه في احتفال مقدّس، من أسفل المسرح لمّا كان أخي يُطلق دخان وصلته والموسيقى تذهب وتجيء والراقصات يدرن كعباد شمس من بلّور، فرفع الآلة ببطء كبير إلى وجهه وأبقى إصبعه مدة طويلة محتكّة بزّر التشغيل إلى أن أخذ أخي وقد كبُر بالموسيقى، يرفع ذراعيه ضامّاً إلى الأغنية بسمة وعمّده ضوء روبيرا الومضي بهذا الوضع مباعداً ذراعيه عن جسمه ومضاء بشعاع إلهي.

وصار الملهى كلّه تصفيقاً. والآن، نعم، كان روبيرا يبتسم وكأن

التصفيق كان تصفيقاً له. ولقد وُلد كارلوس ديل ريّو تلك الليلة التي ربّما كانت الليلة التي كانت أمّي تسير فيها في المطبخ وسْط قعقعة المقالي مفكرة في ابنها، بينما ابنها الذي كان يضع ياقة بيضاء صنعية ويرتدي سترة حريرية رماديّة بلون اللؤلؤ يتلقى وسط بؤرة ضوء قبلات الراقصات وعناق الموسيقيين الذين كانوا بدؤوا لحناً جديداً، أو حركة مرحة من الأبواق والطبل كانت طلباً من أجل تصفيق وهتافات جديدة. ويُقال أن المصوّر بوربّتا اقترب وسط ذلك الحفل من روبيرا ليقدّم له نفسه ويبدي إعجابه معتذراً في آن واحد لأنه شغل مكانه، وهو شيء أدّى إليه مجاعة أبنائه التسعة المستمرة والوخيمة، وكذلك فرقة من دائنين لا يرحمون، ولا يهمّهم في شيء سوء تغذية ذريته ولا ضيق عيشهم. ونفض روبيرا رقع كتف هذا الأخير مربّتاً، وقال إنهما عن ذلك سيتحدثان، وبينما كان يقول ذلك لزميله، رفع عينيه إلى المسرح، والتقت مرّة أخرى نظرته نظرة صولداد روبي. لكن، إذْ كانت هذه الليلة ليلة صديقه كارلوس ديل ريّو، فلم يشأ المصوّر أن يشوش عليها بأية طريقة، وإذ كرّر لبوربّتا أنهما ستُتاح لهما فرصة ليتحادثا في المرّة القادمة، اقترب من جوقة الأصدقاء الذين كانوا يعانقون أخي، وانتظر وهو يدير ظهره لصولداد أن يفتح له الفريق لمّا لحظ حضوره، ممّراً صغيراً كيما يتركوه إزاء بسمة المغني المنفرد كارلوس ديل ريّو، ودموعه وعناقه.

اكتفى روبيرا تلك الليلة بمرافقة أخي أولاً في الملهى ثم فيما لا أدري من الحانات في الرامبلاس، والصومرّوسترو وشواطئ برشلونة، والثناء على حفلته الافتتاحية، وإسداء النصائح له والضحك مع الترومبيتا وآلمودينا فِرناندث، ولوليتابرّويثو، وآنسلمو الوكيل وخير

ونيمو القرطبي. وكأن روبيرا لم يحدث له شيء. ومن غير أن يُبدي علامات على أنّ المشاعر تنهشه من الداخل وأنّ روحه كانت تنهار كبيت يلتهمه عثّ الغرام، وقد ظلّ يلتقط صوراً، صوراً أرسلها أخي إلى البيت في مناسبات عدّة إلى جانب تلك الصورة التي كان فيها كارلوس ديل ريّو رافعاً ذراعيه. وكان أخي يظهر دائماً في تلك الصور معانقاً أحداً ما وضاحكاً إلاّ في واحدة منها، تلك التي التقطها له آنسلمو الوكيل إلى جانب روبيرا، والتي كانت في الحقيقة الصورة الوحيدة التي سمح روبيرا أن تُلتقط له في حياته. كان الصديقان تغطي عيونهما غشاوة من الانفعال، وكانا عابسين وهما ينظران إلى عين الآلة الزجاجية وكأنهما يريان (الزمان) من خلالها، يريان السنين القادمات والحياة أو نظرة المصير القلقة، كلاهما كان إلى جانب الآخر مُلقياً ذراعه على كتف رفيقه والجسم في وضع جامد تقريباً، وغرّتاهما وقميصهما قد تجعّدت بسبب الكحول والفجر، وكان تظليل الأبيض والأسود، العذب يضفي حلاوة على الحزن الذي ثبّته عليهما آنسلمو الوكيل وهما على شفا الصباح.

وأنا إذْ كنت أنظر إلى صور حفلة الافتتاح، كنت أعزّي نفسي لمّا رأيت أخي يعانق على الرغم من تسميته باسم آخر، الناس الدائمين ذاتهم: آلمودينا فرِناندث، ولوليتابرّويثو وحتى الصيني بونيّا الذي لم يقض حسبما يذكر أقدمُ من في الملهى، ليلةً كهذه الليلة وهو يكرع أيّ سائل كحولي كان يُقدّم له، واضعاً شاربيه الصنعين على جبهته، ومخرجاً حماماً ومزيداً من الحمام من كمّيه ومن تحت ردائه حتى إذا لم يبق عصفور واحد، شوهد في الأيام التالية حاملاً أنشوطة ليصطاد في الحدائق حمائم من اجل برنامجه السحري. وقد ظلّ أخي يرسل

رسائل على الرغم من كونه مغنّياً منفرداً، وإن زاد الحرف فخامة قليلاً وصارت ذيول الأحرف الصوتية وأحرف N،M،L تتّجه إلى فوق بدلاً من أن تتراقص كما في السابق، وتعلو كما يتعالى لبلاب صوته كل ليلة عبر سحابة الدخان البيضاء في ملهى دون موريثيو ثسبدس الذي كان على الرغم من الموارد المالية المرتفعة التي تتحصل، يزداد كلّ ليلة عبوساً ومن غير هوادة في إذلال بوربّتا. بوربّتا: هيّا حضّر لوازم آلتك وأقراصها، لأنك ستأخذ لي صورة مع الزبن بعد ساعة وفي هذا المكان وبالضوء ذاته المتوفر هنا، كان يقول للمصوّر. أو بوربّتا، إن شاء الله يحدث زلزال ذات يوم وتتمكّن حينئذ من التقاط صورة لا تكون غائمة جداً.

لكن ما كان يزعج دون موريثيو حقاً، لم يكن بطء الخدم ولا نظام الراقصات الغذائي ولا حتى عجز بوربّتا عن أخذ صورة في حالة حركة، بل ما كان يغضب دون موريثيو هو المصوّر روبيرا الذي استأنف على الرغم من طرده، زيارته للمكان بعد حفلة صديقه الافتتاحية، ومن غير أن يبدو أن شيئاً ما قد تغيّر. فقد ظلّ الزبن والفنانون يكلّفونه بالصور الدائمة ذاتها. ولئن صار دوامه كما يشاء، وكان يسير بين الطاولات بهدوء كبير، فقد أصبح أبطأ في التقاط الصور، وكانت تطول مدّة تصويبه آلته إلى الأشخاص الذين سيصورهم، وكأنّما عداه بوربّتا ببطئه، أو أن عائقاً غريباً يمنعه من ادراك ما كان يراه من خلال نافذة الرؤية في آلته، وكان يبعد الآلة من أمام وجهه في نصف الحالات بعد ان يظلّ مدّة يوجهها إلى راقصة أو موسيقيّ من غير ان يلتقط صورة لهما. حتّى اذا عزم على ان يضغط على الزّر ويلتقط صورة، فلم يكن لهذه الصورة صلة ما بصور بوربّتا لا لأنها ما كانت تظهر

غائمة فقط، ويُعرف الناس فيها، بل لأن الأشكال التي يصوّرها روبيرا كانت تبدو كنحت بارز وأنها ستخرج من الورق، وكانت جدّ جميلة حتى كانت تبعث على الخوف رؤيتها. كانت صور بوربّتا تبدو ملأى بالاعصاب، وفيها كانت تظهر ارتعاشاتُ المصوّر وعدم نضجه وقلقه كلّه وجوعُ ابنائه، لكن صور روبيرا كانت مصنوعة من غير نبض ومن غير ارتعاشة واحدة. كانت صور ميّت. ذلك أن روبيرا كان في الحقيقة ميتاً من الداخل، وإن ظلّ يسير ذاهباً إلى الملهى أو آتياً منه مسرّحاً شعره أو آكلاً. لقد مات موتاً نهائياً بعد يومين من حفلة أخي الافتتاحية واسترداده قواه. ولمّا عاد إلى الملهى والتقط بعض الصور للترومبيتا وللشاعر تيسان ذهب متخفياً نحو حجرات الراقصات والتقى صولداد روبي.

لئن خمّنت الراقصة من النظرة الأولى نوايا المصوّر، فقد استقبلته بالبسمة ذاتها التي كانت وجّهتها إليه من المسرح لمّا جاء الملهى ليحضر حفلة صديقه كارلوس ديل ريّو الافتتاحية، سوى أنه هذه المرّة لم تسقط أية ستارة أمامها ولا أيّ شيء آخر يخفيها. كانا وحيدين وجهاً لوجه في الممشى الضيق الذي كان يقود إلى آخر الحجرات، وما كان أحد منهما يتكلّم. فألقت صولداد المنتعلة حذاء عالياً وذا سيورسود، واللابسة بنطالاً قصيراً من اللون نفسه وقميصاً طُبعت عيه سلالمُ وعلامات موسيقية بدلاً من الأقمار، ألقت بكتفها على شكل عذب إلى الحائط، ورفعت عينيها بعد أن ظلّت ما لا يُعرف من وقت تتلاعب بعقدة قميصها وقالت من غير أن تفقد إبتسامتها: أهلاً، فيليكس.

لكن فيليكس روبيرا المصوّر لم يقل شيئاً، ولبث لحظاتٍ عدّةً ينظر

إليها ساكناً ومن غير أي تعبير عن مشاعره، حتى لم يستطع التقدّم، ولا مدّ يده ومداعبة شعر الراقصة والاقتراب من نسيم عطورها ودفئها، ولا النظر إلى شفتيها وتقبيل عينيها، فقد أوقفه صوت الراقصة مستبقة أيّة حركة منه. كلا! كلاً يا فيليكس. وإذ شعر حينئذ بسحابة ترتفع ببطء شديد في داخله شبيهة بتلك التي تلت الانفجارَيْن الذريّين، وبجسمه يمتلئ بالجثث وبناس يموتون داخله، أخذ يستمع إلى صولداد روبي تقول له أنها لا تريد أيّة علاقة معه على الرغم من كل شيء، على الرغم من أنها لم تلتق قطّ رجلاً جذبها إليه بهذا الشكل.

لا أريد أيّة علاقة بك، ولا تسألني عن السبب. لأنّني لم أكن على ثقة من شيء أكبر مما أنا عليه. وليس بسبب امرأتك، ولا بسبب فارق السنّ، ولا بسبب دون موريثيو، وإنّما بسببي أنا. هناك شيء في داخلي يقول لي: أنْ لا، وإنك لا تصلح لي. وأنا لا أصلح لك.

ربّما لا أصلح لشيء –. وصار صوت المصوّر نفقاً.

ربما –. تابعت صولداد روبي، وهي تنظر إليه، وما تزال ذكرى الابتسامة على شفيتها.

ودار روبيرا على عقبيه وشرع يتقدّم في الممرّ الذي ضاق وصار يفوح برائحة الرطوبة، وخُيّل إليه أنه يسمع وراءه: سأحبّك دائماً، يا فيليكس. لكنه لم يكن على يقين، فالموتى لا يسمعون جيّداً. وكان المصوّر يشعر بنفسه منذ تلك اللحظة أنه جثّة، جثّة بغرّة وشارب وتقوم بالتصوير، وتشرب (الجن) بالجليد، وتسمع أغاني حبّ، بل حتى كانت تبتسم أحياناً خاصة إذا شعرت بدون موريثيو يراقبها. وإذا

كان صاحب الملهى قريباً منه، فكان الميّت روبيرا يحاول أن يمطّ شفتيه الميتتين ويرفعهما مكشّراً تكشيرة مرِحة تسمّم المسمَّمَ من قبلُ رجلَ الأعمال الذي كان يرافقه دائماً تلكَ الأوقات /باديّا/ صديق الشاعر تيسان، والمشيّع الوحيد في جنازة كوسمِه كوسمه والذي كان يعمل مراسلاً لدون موريثيو متكفّلاً بنقل الأوامر الساخطة والشكاوى التي كانت تتراكم في رأس صاحب الملهى.

باديّا، اذهب إلى ماري كارمن مولينا واسألها إن كانت أصيبت بالروماتيزم فلا تستطيع أن تحرّك خصرها في دورِ السامبا.

باديّا، قل لكاماتشو أنه مهما يكن خمّاراً، لم يأذن له أحد أن يصبّ نصف زجاجة من الكونياك في كلّ قدح يقدّمه إلى حمراء الشعر ذات النصف العاري.

باديّا، قل لترومبيتا أنه من أجل الذهاب إلى الحمّام تكفيه أوقات الاستراحة. إذا أراد أن ينصرف فلْيقلْ لي، وأنا أرسله في نزهة مع رسالة طرد في جيبه.

وكان باديّا يسعى من جانب إلى آخر معتذراً عن الرسائل اتي ينقلها قائلاً أنه لا يصلح ليكون فضولياً. والشيء الوحيد الذي كان يرغب فيه هو فرصة مناسبة، وفرصته كانت الملاكمة. وكان آبلينو باديّا ملاكماً. وهذا ما حكاه أخي في رسالته. فقد شعر آبلينو بودّ كبير نحو أخي لكونه من أبناء بلدتنا، وقد وصل حديثاً إلى برشلونة. أنا أودّك كثيراً، يارامون، أو كارلوس أو من تكون، كان يقول لأخي كلّ كلمتين من ثلاث. وكانت أمّه تقطن في لاس بيبييندداس بين سينما

كايري ومكتبِ الحدائد في البيّخِرا الذي طالما أحبّه تاتين. وكانت إذا استطاعت، ترسل إليه علبة من الكرتون ملأى بالسجق من ملحمة غارثيا آغوا، لكنّ قدرة أمّ آبلينو كانت ضئيلة. فكانت علب الكرتون تذهب كل مرّة أقلّ امتلاء بلحم الخنزير. ولقد كافحت طيلة حياتها أمّ آبلينو التي ترمّلت منذ زمن بعيد كيما يُصبح ابنها سائقَ حافلة أو على الأقلّ، جابياً في شركة أوليبيروس التي كان مجال عملها يمتدّ من بويرتا ديل مار، حتّى تياتينوس أو حتى جالية سانتا إينيس. لكنه ما كان يستطيع أن يتعلّم شيئاً من الحساب، فكان منذ صغره يتغيّب دائماً. وكان يهرب دائماً من الورشة التي كان وضعه فيها أصدقاء أبيه المتوفّى، ليتعلّم مهنة، و كان ينغمس في الحانات وأوكار القمار في سوق السمك، حتّى عاد ذات يوم قائلاً أنّه سيلاكم، وسيكون ملاكماً من وزن الريشة. فقد قال له صنداًلياس الذي كان في أمريكة ورأى الزنوج يتلاكمون، أنّ له يُسرى ذهبيّة وخصراً جيداً، خصراً ضخماً. ومنذ ذلك اليوم لم يشأ آبِلينو أن ينظر مرّة أخرى في كتب المحاسبة ولا في قانون السير مهما ترجُه أمّه.

ماما، الملاكم يكسب أكثر من أيّ سائق. فمهما يقد السائق بصورة جيّدة جداً، ومهما يعمل في الأوليبيروس، فإنّ ملاكماً يكسب دائماً أكثر منه. أنت لا تعرفين،أو عسى، المال الذي تمتلئ به محافظ الملاكمين. أمّا سائق فليس له محفظة ولا شيء.

اعمل ما كان سيقوله لك أبوك، المسكين.

أبي مات منذ مدّة، أو عسى، و لم يقلْ شيئاً. أبي قُضي عليه. وأنا الآن، من يجب عليه أن يتقدّم بذلك.

ورفع قبضتيه إلى مستوى وجهه، وقام بحركتين مراوغتين إزاء أمّه، مسدّداً ضرباته في الهواء أمام نظرة أبيه التي تزداد صفرة، والتي كانت شبه ذاهلة دائماً، أبيه المشخّص في صورة رجل أشيب ووجه مريض كانت منذ أن وعى آبلينو، تتصدّر غرفة المعيشة ذات الأثاث الغامق، غرفة كان هو يلاكم فيها الريح. كان آبلينو يقضي نهاره كلّه في قاعة الألعاب الرياضية، رافعاً أثقالاً، مسدّداً لكمات إلى كيس مملوء بالرمل وممثّلاً ملاكمة وهميّة. وكان يلاكم أيضاً، أو بالحريّ، كان يلاكمه آخرون، لأنّ صندالياس قال له أنه يحتاج إلى التدريب، وإلى أن يكبح رغباته في إطلاق قبضته كيما تراكم عدوانيّة، وأنْ يسمح لتيغْرِه ترينتاريو، وصوتو كارّالاتا، وكينتانا والشبّان الآخرين أن يتدرّبوا معك. يعني أنّ آبلينو كان هدفاً للتدريب في الوسط الرياضي، وكان يُسمح له فقط من حين لآخر أن يتدرّب بعمق، ويلاكم ندّاً لندّ، وإنْ يكن دائماً مع وزن أعلى سواء أكان خفيف الثقيل أو حتّى وزن الثقيل، وكان صندالياس يقول له دائماً القول ذاته: صبراً، باديّا، عليك أن تصبح فولاذاً، اليسرى تمتلكها وكذلك الخصر، والآن عليك أن تتعلّم التقسية والملاكمة في أغلب أحوالها مقاساة.

لكنّ من كان يقاسي أكبر مقاساة، هو أمّ آبلينو التي كانت ترى ابنها يسعى كلّ يوم إلى حيث يُسدّد له اللكمات من يريد أن يسدّدها له، وفي المساء كانت تنظر إليه عائداً وهو يترنّح من هذا الجانب إلى ذاك الجانب في الشارع، من غير أنْ يُعرف إنْ كان ذلك بسبب الجوع والضعف أو اللكمات التي كان يتلقّاها. وإذا نحّينا اللكمات جانباً، فقد كان كل شيء وعوداً، لكنّ آبلينو باديّا الذي غيّر نصف اسمه أيضاً وكأنه فنان، وصار يُسمّى الآن كيد باديّا لم تُقَم له أية حفلة افتتاحية

قط. ولئن حدّد له صندالياس بعد أشهر عدّة موعداً من أجل أوّل معركة له في سهرة ستُقام في ملعب كارّانكه الرياضي، وراح يحلم في الليالي، بالحريّ، ما كان يحلم وما كان ينام متخيّلاً ليس المعركة في ذاتها، وإنما لوحة الإعلان عن المعركة وقد طُبع اسمه بأحرف مطبعيّة، فقد ظلّ آبلينو في النهاية ملاكماً احتياطيّاً وقضى سهرته المشتهاة يساعد صندالياس ويضع الواقية لصوتو كرّاتالا وينزعها عنه أو يعصر المناشف في دلو ماء بارد. وكان بإمكان المرء إذا وضع نظارة جيّدة أن يرى اسمه على هامش لوحة الإعلان، إلى جانب عنوان المطبعة: كيت باليّا.

وفكّر آبِلينو فيما بعد، أنّهم لو كتبوا اسمه بشكل صحيح لظلّ على الأغلب ستة أشهر أو سنة يلاكم ظلّه، أو يُدير وجهه كيما يتسلّى به خفيف الوسط كينتانا، وصوتو من وزن الوسط، أو تيغرِه ترينيتاريو من وزن خفيف الثقيل، أو من يشاء. لكنّ تلك الطريقة في كتابة اسمه وتربيت صندالياس على كتفه أدّت به إلى الإحباط. لأن صند الياس كان يخدعه. ولم يرَ ذلك آبلينيو في عيني صندالياس، وإنّما رآه في عيني والده، في تلكما العينين المتعبتين اللتين كانتا تطفوان كزرّين أسودين وسط الصورة الحائلة اللون تقريباً والتي كانت تتصدّر غرفة المعيشة في بيته.

آبلينو، صندالياس وغد.

آبلينو لم يسمع قطّ صوت أبيه الذي كان مات قبل تسعة أشهر تقريباً من ولادته. لكنه سمعه هذه الليلة، بوضوح بينما كان يأكل

من غير رغبة بطاطا سلقتها أمّه بالماء المحلّى بالسكّر. وكان يسمعه مرة أخرى كلّما نظر إلى الصورة: آبلينو، صندالياس وغد. وهكذا انقضت ثلاثة أيام من غير أن يظهر في قاعة الألعاب الرياضية، وهو يقلّب قانون السير، ويرى بنظرة تائهة حافلات الأوليبيروس وهي تمرّ في طريقها إلى تياتينوس أو إلى جالية سانتا إينيس، واتّخذ قراراً بأن يستقلّ هذه الليلةذاتها، أو عسى، القطار إلى برشلونة ارض الميعاد بالنسبة للملاكمين، حسبما سمع في قاعة الألعاب. فأخذ من درج الكومودا النقود التي بقيت لأمّه حتى نهاية الشهر مفكّراً في أنه سيعيدها مع زيادة ذات يوم، وترك مكانها ملاحظة.

«أمّي أنا رائح إلى برشلونة لأصير ملاكماً جيّداً من وزن الريشة. بخصري ويسراي الذهبيّة أيضاً سوف أنتصر وأربح ملايين من أجلنا نحن الاثنين، لن أظلّ مغموراً. ابنك الذي يحبّك كثيراً. كيد باديّا. آبلينو. لا تبكي، سوف أكون أكثر كثيراً ممّا لو كنت سائقاً. ولكان أبي أعجبه ذلك».

ولئن غيّر آبلينو اسمه، فلم ينزل في نُزُل للفنّانين، ولا حتّى في نُزل لفنّانين فقراء، وإنّما نزل في نُزُل ملاكمين فقراء، وهو أسوأ كثيراً من نزُل الفنّانين الفقراء. والملاكمون يذهبون دائماً إلى أسوأ المنازل في العالم ومنها ينتقلون إلى أفخم الفنادق في العالم من غير أن يدروا. هذا إذا حالفهم الحظّ فلا يظلّون طيلة حياتهم في نزُل الصراصير وطاعون حساء الخضار البارد، ويتعلّمون كما يستطيعون، وقد أصيبوا بما يشبه الدوار لكثرة اللكم، كتاب الحساب ويحصلون على عمل جباةً، أو في ورشة ما. وكان النزُل الذي نزل فيه آبلينو باديّا قريباً من محطّة

فرنسا، وفيه مئات الأمتار من الممرّات المظلمة وأكوام من الأبواب لم يُرَ أحدٌ يخرج منها، وهو جدّ مختلف عن نزُل ريّوس – إسبانيا لصاحبته دونيا آنخِلينِس الطافح دائماً بالناس والأصوات، وبفرح لم يستطع حتّى موتَ الراقصات ولا حزن روبيرا أن يعكّر صفوه. وإذا كان نزُل ريّوس – إسبانيا مقرّ الجنّة الأرضيّة، فإنّ نزُل آبِلينو الذي كان فيه شخص قزم يدعى رامون بصفة وكيل، كان صورة المطهّر ذاتها، و لم تكن حجراته المقفلة شيئاً آخر غير بوّابات الجحيم الذي كان بذاته هناك، وعلى وشك أن يطفح مفرقعاً إثر تساقط الكلس عن تلك الجدران.

كانت قاعة ألعاب ماتيو تفوح برائحة قبو سفينة. وكان يبدو أن الأرض هناك تُشطف بالبترول وأنّ الرياضيّين يتعرّقون أمونياكَ، وإن تأكّد كيد باديًا سريعاً جدّاً أنهم هناك يِشطفون الأرض بالماء حقّاً. الماء الذي كان يأخذه هو نفسه لقاء مقاسمة النمساوي عشاءه، من أنبوب الدوش الحزين في دلوٍ من الصفيح وينظّف به الأرضية متى انصرف مستخدموها تاركين كلّ شيء مبلّلاً وملآن بآثار أحذيتهم التي كان آبِلينو يتسلّى وهو يزيلها بالممسحة المبلّلة بالتخمين إن كانت تعود إلى بوكا نِغْرا، أو إلى ملايو أو إن كانت لبَسْترانا. وكانت تحدث في قاعة ألعابَ ماتيو تسلّخات في الجدران بدلاً من الظلال، لأنّ خيال ظلّ الملاكمين كان يحتجب بمساعدة شحّ الضوء، بين البقع على الجدران، وكان المرء يبدو أنه يلاكم شبحاً أو شبح ظلّه بدلاً من أن يلاكم ظلّه ذاته. ومع ذلك لم يكن هاهنا أيّ صنداياس يأمره أن يتلقّى لكمات من أحد. بل كان ينصرف إلى شأنه مع التسلخات والأوزان والكيس. وإذا ما انتهى كان يقصّ على كلّ الناس، بانتظار أن يحين وقت بدء

التنظيف، أنّه خاض عشرَ معارك من قبل، غير أنّها كانت باسم مختلف ولذلك لم يُسجّل اسمه في أيّ مكان. ونتائجها: تسعة انتصارات، اثنان منها بالضربة القاضية، ومعركة واحدة كانت تعادلاً. وقد أُطلق عليه في مدينته، حسب قوله، لقب فهد كارّانكه، هذا على الرغم من أنّه بدأ متأخراً قليلاً، هو الذي كان ينوي أنَ يكون سائقاً في شركة أوليبيروس. لكن، ما كان يوليه أحد كبير اهتمام، بل كانوا يديرون له ظهورهم ليتابعوا ضرب الكيس، أو يذهبوا ليستحمّوا بالدوش وهم يصفّرون، بينما كان هو يوضّح أن أوليبيروس شركة حافلات نقل تتّجه من بويرتا ديل مار، حتى تياتينوس. وكان يفضّل أن يلاكم ويده مربوطة إلى ظهره، زنجيّين من برونكس في أمريكا، على أن يقرأ لائحة السير التي كانت ضخمة جداً، وحتى النمساوي ما كان يستمع إليه.

في برشلونة ما كان يخدعه أحدٌ حقّاً كما كان يخدعه صندالياس، لكن، ما كان يقول له أحد شيئاً عن خصره، ولا أنّ له يداً من ذهب، ولا من حديد ولا من شيء. وكأنّه أقطع. بيْد أنّ رجلاً ذا شعر أبيض يسمّيه كلّهم السيد مونييسا ويبدو أنه صديق حميم للسيد صاحب قاعة الألعاب، علّق ذات مرّة لمّا مرّ بجانبه: انظر، هذا الفتى له ساقان. وراح آبلينو أو كيد باديّا ينظر إلى طرفيه السفليّين دهشاً من أن يجد نفسه هنا بتلكما الساقين: «شكراً، شكراً يا رئيسْ»، صَاح في قفا السيّد مونييسا الذي كان يضيع في سلّم المخرج وهو يتحدّث إلى السيد ماتيو. واستأنف آبلينو لكم الكيس وهو ينظر مرّة أخرى إلى ركبتيه وإلى قدميه مبتسماً بسمة متحجّرة ساخراً في داخله من صندالياس. ساقان، أنت تعلم أنّ لي ساقين وأنت لم تنتبه إلى ذلك، أنت الذي تعرف كثيراً عن الملاكمة، خرْء على معرفتك، يا صندالياس. ساقان، لي ساقان.

لكنّ النمساوي قال له بعد بضعة أيّام من ذلك التعليق، إن كان يريد أن يسدّ نقصاً سيحصل في وزن الريشة في سهرة السبت القادم، من غير أن يعرف إن كان ذلك الطلب بسبب الساقين. و لم يعرف آبِلينيو في تلك اللحظة ماذا يقول. وشعر أوّلاً بالخوف، فرأى نفسه فوق الحلبة وسَمع مقدِّم الملاكمين واسمه يتردّد في مكبّر الصوت. وكان خوفه خوفاً من الجمهور ومن الأضواء ووجه الحكم. وبمشقّة كانت له القوّة كيما يقول نعم،وقال ذلك كمن يعترف بعد جلسة تعذيب.

نعم، نعم.

وسأله غيرَ مصدِّق النمساويُّ الذي لم يكن من النمسا بل من ماتارو:

وأنت من وزن الريشة؟

إيه؟ وزن ريشة، حقيقي. هذا ما قاله لي صندالياس: ستة وخمسون كيلو ونصف الكيلو. ريشة.

حقاً -. قال النمساوي وهو يدور على عقبيه مشيراً إليه برأسه أن يتبعه إلى الميزان

اصعد هنا.

آبِلينو، كيد باديّا كفّ عن أن يكون من وزن الريشة. فقد حوّلته أيام جوعه البرشلونية إلى وزن ديك هزيل يميل إلى أن يكون ذبابة. ورأى نفسه على مربّع الحلبة، لكنّه الآن من غير ضوء ولا مكبّر صوت، بل عارٍ ووحيداً وسْط العتمة.

ألا يكون الميزان معطّلاً؟ هذه الأجهزة لها مشاكلها. لها أعطالها.

ونفى النمساوي برصانة وثقة، لكنّ طلب الرحمة من قبل وزن الريشة السابق باديّا كان كبيراً حتى استجاب المكلّف بأعمال القاعة إلى رجائه في أن يؤخّر الإعلان عن إنقاص وزنه حتّى أنّه اقترح عليه بشيء من السّخرية طريقة يكسب بها بعض المال. وهكذا يستطيع أن يغذّي نفسه وبرفع من وزنه في الأيّام الخمسة أو الستة الباقية من أجل المعركة. فقضى آبلينو هذا الوقت كلّه يدهن قاعة ألعاب ماتيو. «أزرقَ معدنيّاً»، كان يسمّي النمساوي اللونَ الذي كان يغرق فيه باديّا. ولكان سمّاه أيُّ شخص آخر: أزرق عفنيّاً، أو أزرق مريضاً. وكان آبلينو يدهن ببطء شديد، ويسير في كل الأنحاء ببطء كساعة على وشك أن تتوقّف، وذلك كلّه حتّى لا يفقد غراماً واحداً من ثقله. وكان المال المكتسب من الدّهان يصبّ كلّ ليلة في معدته مباشرة، وتحوّلت أوراق النقد إلى حلويات وبطاطا نيئة تبعث على السمنة أكثر من أيّ شيء آخر، على قول النمساوي، فكان آبلينو يأكلها بقشرها وحتى بترابها كيلا يدع شيئاً من غير فائدة، ومن غير أن يدرك ألم المعدة الذي كان يرافق عسر الهضم.

وقد قاد شحُّ الوزن آبلينو إلى أن يهجر كلّ نوع من التدريب، وإذا لم يكن يدهن فكان يقضي الساعات مستلقياً في النزُل من غير أن يتكلّم أو يحكّ جلده تقريباً. يقال أنه كان يركّز تفكيره، وأنّ كيد باديا هذا، هو في نهاية الأمر على الأغلب، رجل حذِر ومن أولئك الذين يحملون فيلم المعركة منقوشاً في رأسهم، وأنّهم إذا صعدوا إلى الحلبة لا يعرفون فقط في أيّ هجوم سيُلقون بخصمهم أرضاً، وإنّما يعرفون

حتّى الزاوية والميلليمتر الصحيح الذي سيسقط فيه الخصم التعيس. لكنّ آبِلينو ما كان في الحقيقة يفكر في شيء، بل كان ذهنه صفحة بيضاء ينفتح فقط على القيام بتخميناتٍ وجمع أعداد وطرح غرامات وأمتار مدهونة وكميّة النقود وكيلوات البطاطا التي يمكنه أن يأكلها. فنهض من سريره يوم الوزن كأنه إنسان آلي، وذهب بكثير من الهدوء إلى سوق (بورنِه) واشترى من محلّ للمقالي كيلو غراماً من فطائر محشوّة بالسمك التي اخذ يأكلها ببطء في طريقه إلى قاعة الألعاب.

ووصل كيد باديّا إلى باب قاعة الألعاب وهو يلتهم وسْط الغثيان والدوار، فتات الفطائر، الأخير ويمصّ الورق الزيتي الذي صُرّت به. وما كان هناك مصوّرون ولا صحفيّون، وإنّما النمساوي فقط ورجلٌ ربعةٌ غامق البشرة، وله شارب ويسمّيه الناس كلهم بالدكتور، وقد كان مدير أعمال خصمه، ورجل آخر يشبه من بعيد والد آبِلينو، وكان يبدو كوالده مريضاً أيضاً، سوى أنّ هذا الرجل مبعوث اتحادِ اللعبة، ربّما كان يعاني مرضاً اخطر وأكثر تقدّماً من المرض الذي أودى بحياة سلفه. واستعجل النمساويُّ آبِلينو.

تعالَ، يا باديا. نفد صبر الضاري –.

لا تزِد في إغضاب الضاري، يا حقير. – ابتسم المسمّى دكتوراً، كاشفاً عن أسنان شديدة البياض.

والضاري كان، أوسكارتر ونكوسو الذي التقاه آبلينو لمّا خلع ثيابه في مستودع الملابس، وإذْ صار الآن بالبنطال القصير، قرّب فمه من صنبور المغسلة وأخذ يشرب حتى انقطع نفَسُه وكاد يختنق مع

إحساس بضغط كان يمتدّ من المعدة باتجاه الظهر والصّدر. وانحنى أيضاً وشرب شيئاً يسيراً محاذراً أن تطفح معدته. ووضع تحت لسانه سيخين صغيرين من الرصاص، حتى كان جسمه كله يبدو مصنوعاً من المّادة ذاتها. وإذا كان يتحرّك الآن ببطء، فلم يكن ذلك توفيراً للطاقة، وإنما لأن مفاصله كانت في الحقيقة شبه متيبّسة وشاكية. ورأى آبِلينو لمّا مرّ من أمام المرآة كرشاً ناتئاً يبرز وسْط هيكله العضلي الهزيل الذي صار ليّناً لنقص التدريب والراحة.

وكان الضاري، أوسكار ترونكوسو، ربعةً وغامق البشرة كالدكتور، لكنّه من غير شارب، وكانت له أنياب حادّة هي أشبه بأنياب قطّ منها بأنياب كلب. ولمّا رآه آبِلينو أدرك تمام الإدراك لأوّل مرّة منذ أن حدّثه النمساوي عن المعركة، ولأوّل مرّة منذ أن كان في رعاية صندالياس، أنّه سيلاكم وأنّه سيصعد إلى أعلى منصّة ليقاتل ويضرب بكل قواه رجلاً لا يعرفه، ونظر إليه الضاري شزْراً، وقد ساور كيد باديًا الإغراء أن يقول له أنه ليس لديه شيء ضدّه وإنّما كل ما يريده أنْ يكون ملاكماً ويتخلّى عن دراسة لائحة السّير، ويظلّ اليوم كلّه يقود حافلة لشركة أوليبيروس، لكنّ آبِلينو لم يكن على استعداد كبير للمحادثة، فقد كانت الفطائر تتحرّك في بطنه، أوّلاً، طافية كبقايا غرق، ثم أخذت تنطّ نطّاً وتقفز، وكأنّ لها ساقين فتركض من هذا الجانب إلى الجانب الآخر. إنه الغثيان.

أراد آبِلينو أن يُوزَن، لكنّ النمساوي كان يضحك مع ماتيو الذي وصل حديثاً، وكان ينكّت على ترونكوسو وعلى امرأة شقراء بلاتينية كانت تعانق أوسكار ولربّما كانت تصلح جدّاً أن تكون عروس

ملاكم في أفـلام هوليود لولا السواد الـذي كان يُطلّ من جذور شعرها. كانوا يدخّنون سيجاراً أهداه إليهم دون ماتيو، كانوا كلّهم يدخّنون حتى الضاري كان يدخّن مُحدثاً دوائر صغيرة يوجّهها مع ذقنه نحو السقف، بينما كان النمساوي يقضم سيجاره الخاصّ به، وكان الآخرون يتكلّمون وهم يمضغون دخاناً كثيفاً. غير أن شقراء بارامونت التي كانت أقلّ منزلة، فما كانت تدخّن سيجاراً بل لفافة بيضاء ناعمة بمبسم. وكانت تنظر بفضول إلى آبِلينو بعينين ذاتي لون أخضر زمرّديّ هما مائة بالمائة فتنة وفنّ سابع، بينما كانت تطلي الفلتر بالأحمر القرمزيّ وهي تدوّره وتدخله شفتيها وتخرجه منهما كأنّه قطعة كاراميل شديدة الحلاوة.

أمّا الضاري ترونكوسو فقد وثب إلى وسط القبّان عند وزنه،على الرغم من ذلك الهيكل العضلي الكثيف واللمّاع، الذي كشف عنه لمّا خلع عباءته الحريرية السوداء، والذي كان ملائماً لملاكم، على قول النمساوي عند حديثه عن الوزن. ورأت المرأة البلاتينية عضل رجلها وجذعه ينطبعان ويتلألآن في عيني آبِلينيو. وصعد هذا الأخير الذي لم يكن له شيء ليخلعه، إلى القبّان بضِيق امرأة نفساء، وهو على وشك أن يتلاشى، فيصير منيعاً على دخان السيجار وتكشيرات الاستغراب التي كان ينظر بها دون ماتيو إلى كرشه. وقد اضطُرّ النمساوي إلى وزنه مرّتين، مستنكراً بهزّ رأسه إزاء سعال رجل الاتحاد المريض وسيجاره، رجل كان يزداد كلّ مرّة شبهاً بأبيه.

يزيد غرامات عدّة. – قال الرجل الأصفر لدون ماتيو. شيء يمكن تسويته بتبوّل واحد، وشوطين من الركض.

وراح كيد باديًا يتلمّس بأصابعه فمه ويُخرج منه بحذر أمام أنظارهم جميعاً، احدَ قضيبي الرصاص ثمّ القضيب الآخر الصغير.

نسيتُ الرصاص، وأنا آخذه، يعني، من أجل الفيتامينات. وأنا أمضغه كثيراً.

ونظر دون ماتيو بانشغال إلى النمساوي الذي أجابه بحركة من كتفيه قبل أن يوازن القبّان مرّة أخرى.

صالح. خمسة عشر غراماً أخرى وتصبح من وزن الخفيف.

هذا إذا لم يُحسن استخدام الطعام يا رجل. فإذا قلّل من الطعام قليلاً، وأكثر من التدريب قليلاً، فلسوف يشكو الميزان بعد ذلك.. – ابتسم ماتيو وقد سُرّي عنه.

دعهما، يا سيد ماتيو، فلا بدّ لهما من أن يتمتّعا بشيء ما –. كان الدكتور يضحك وهو يربّت على كتف صاحب قاعة الألعاب، في طريقه نحو مستودع الملابس –. أمّا من أجل المعاناة فأمامهم الحلبة. والتنّورات –. أشار بذقنه إلى ردفي شقراء بارامونت، وهي تعانق بزهوِ الضاريَ مدخّن السيجار أوسكار ترونكوسو.

ولّما نزل آبلينو عن الميزان وصار وحيداً وهم وراءه، شعر أن سمك الفطائر قد صعدَ مباشرةً إلى فمه عكس التيّار وكأنه سمك سلمون على وشك أن يُلقي بيضه.

ولم يُتح له الوقتُ إلا ليخطو خطوتين باتجاه المنتفعات، وفي

الخطوة الثالثة فاض سيل أحشائه، وانتاب آبلينو إحساس أنه سيُلقي مرّة واحدة بالبطاطا النيئة كلّها، وبالتراب كلّه، وباللعاب الممزوج بالرصاص والسمك والحلوى، ودخان لفافات السيجار. وأوقف عواءُ معدته الرهيب أعضاءَ اللجنة وجعلهم يلتفتون برؤوسهم، ورأوا، وهم يقطّبون وجوههم، شلاّلاً أحمر يتفجّر عند قدمي آبلينو.

انظروا إلى هذا. اسمع: ملاكمة مريض تجلب تعقيدات كثيرة. يموت ثم ينهال علينا كلَّ شيء. لنِ تشمّ رائحة الحلبة مرّة أخرى في حياتك العاهرة. – سمع آبلينو قولاً وراءه، مطابقاً بين الصوت ووجه ترونكوسو غامقِ البشرة، وشاعراً إزاء تلك الصورة بهجوم غثيان جديد.

مريض؟ كلا. – بدا له أن النمساوي كان من يتكلّم.

لعله الانفعال، أولاً وأخيراً هي حفلته الأولى –. وهذا كان ماتيو، التيس. – ألم تنتبهوا إلى حركته؟ إنه قلق.

أنا أستغرب وجود رصاص في فم هذا الحقير –. قال الدكتور بدوره.

يا للقرف! – سمِع تمتمة بصوت خفيض، ورغب آبلينو في ألا تكون الشقراء من قام بالتعليق. الأفضل لو كان رجل الاتحاد شبه الميت. أعني أيَّ قيء كان سيتقيء هو، وهو بهذا الوجه وهذا المرض الذي يجعله مُستنزفاً!

كان عليكم أن تروه وهو يلاكم الكيس، وينطّ بالحبل، والرشاقة

التي يتمتّع بها. ثِقّ بكل شيء إلاّ بما تراه، يا ترونكوسو –. علّق النمساوي.

لا أدري... – تمتم ترونكوسو –، والكرش الذي له...

انظر: هي أزمة وانقضت. هودوار –. تابع النمساوي موجّهاً الآن القول إلى آبلينو –، ألم تنقضِ، يا باديا؟

ودار آبلينو على عقبيه محاولاً أن يرسم بسمة منشرحة، وحيّا رافعاً يده المبلّلة أيضاً، واللعاب الأخضر لا يريد أن يفارق أنفه.

لاشيء بي. لا شيء. هو شيء أكلته.

أرأيتم؟ – مضغ النمساوي سيجاره بقوّة –. أنت تعلم، هناك وراءك دلو. ألقِ فيه ماء نظيفاً.

ووافق آبلينو متواطئاً.

كن حذراً، وكن على مستوى المعركة. – ودّعه دون ماتيو والسيجار معلّق بإحدى زاويتي فمه.

أمّا ما كان يتذكّره آبلينو عن المعركة فقد كان جدار مستودع الملابس، وخطّاً من الجصّ القاتم اللون بين الموزاييك، وطعماً كثيفاً ومالحاً كان يطبق على فمه وأنفه، وما خلا ذلك كلّه كان ضباباً بدأ لمّا أطلّ النمساوي برأسه في مستودع الملابس وأشار إليه أنّ الوقت حان. وما كان يتذكّرُ في طريقه إلى الحلبة سوى مِمْطر رجل كان جالساً على صفيحة معدنيّة، ممطر أخضر كان فيه بقعة صفراء كصفار البيض،

وضوضاءِ أصوات وبعض عيون كانت تنظر إليه كعيون الناس التي في الأحلام، عيون ممحوّة شبه دخانيّة. كذلك سمع صوتاً، قال عند مروره: انظر، هذا أحد الملاكِمَيْن. نظر آبلينو إلى الوراء ليبتسم لمن كان يتكلّم، وشعر بالزمن يقفز قفزاً، وكانت فيه ثوانٍ سودٌ، وقطع منه تخفق وتختفي. وقفز قفزات عدّة محاولاً الصعود إلى مربّع الحلبة، فألقى بقفّازيه على قماش الأرضية، ونظر إلى جانب باحثاً عن سلّم صغير، عن صندوق، وسمع صفيراً وضحكاً، وأمسك بصفيحة كبيرة عليها بطاقة حمراء: فليفلة مورّونِس لاكامبسينا، ٥كغ، وبدا له أنه يحلم، وقفز قفزة مستنداً إلى الصفيحة، وتسلّق إلى الحلبة، واستوى واقفاً، واقترب منه رجل يلبس قميصاً أبيض وأشار إليه في آن واحد باتجاه زاوية وقال له: أنا بيدالِس الحكم، فابتسم له آبلينو، كيد باديًا، وسرعان ما رأى أنّ بيدالِس هو رجل الاتحاد المريض الذي ما زال يزداد شبهاً بأبيه، بتسريحته وقميصه الأبيض الذي لم يكن شديد البياض، وإنما كان أصفر عليه غلالة من وسخ قديم كصورة أبيه، ولبث آبلينو واقفاً في زاويته قرب دلْو معدنيّ كان يعرفه جيّداً جدّاً لأنه كان الدلو الذي جمع فيه قطع الفطائر المبلولة والماء والمرارة، ونظر جهة المشاهدين الجالسين فرأى دون ماتيو الذي ما كان ينظر إليه، وإنما كان يضاحك السيّد ذا الأشعر الأشيب، السيد مونييسا الذي كان رأى آبلينو عند مروره وهو في الطريق إلى مستودع الملابس ولاحظ أن له ساقين، وفكّر في أن يصيح به آبلينو: هذا أنا، يادون مونييسا، لي ساقان، انظر إليّ. لكنّه لم يقل شيئاً. ولاحت وسط النّاس الواقفين جمّة الدكتور القاتمة وعيناه البيضاوان، وخلفه عباءة ترونكوسو السوداء وجمّة شقراء بارامونت، شقراء فوكس ذات الفَرْق أسودِ الجذور،

وشعر آبلينو أن قلبه يكبر، وصار جنيناً يخفق في صدره، وفي الثانية التالية كان أوسكار ترونكوسو في وسْط الحلبة محرّكاً كتفيه وعنقه، و لم يكن بحاجة إلى أن يرتقي آيّة صفيحة معلّبات، وكان الدكتور أيضاً فوقُ، وما لبث آبلينو أن سمع اسمه يذكره مكبّرا الصوت الموضوعان في الخلفيّة: كيد باديّا، ودعاه بيدالِس إلى وسط المربع، وهناك رأى وجه تَرونكوسو، فقال آبلينو له وللدكتور: مساء الخير، لكن لم يجبه أحد،وقال بيدالِس بضع كلمات منعه الجيشان الداخلي من سماعها على الرغم من أنه قالها صارخاً: «أنا أتولّى المسؤولية، فاذكراني»، بدا له أنه يسمع، وكأنّ بيدالِس سوف يلاكمه غاضباً، و لم يكن يرفّ لترونكوسو جفن، حتّى بدا أنه من شمع، وهُرع آيلينو إلى زاويته، وأشار له النمساوي إشارة، فأخرج الملاكم صاحبُ المعركة الأولى من قعر الدلو واقية الأسنان ولبس قفّازيه، وانحنى مُخرجاً يديه من الحلبة كما يُخرج السجناء أذرعهم من الزنزانات، وترك النمساوي يربط له الشرائط، ولّما وقف على قدميه لم يجد أحداً في الحلبة سوى بيدالِس بقميصه الأصفر، وترونكوسو الذي شرع لما دقّت مِقرعة الجرس، يسير على مهل بعضلاته اللامعة ولونه البني وعروقه البارزة، ونظر كيد باديا إلى الخلف فرأى عرضاً جمّة الشقراء الصفراء، وتذكّر صنداليا لّما بدأ يقفز مفكّراً أنّهُ يفرط في القفز، ومفكّراً أنه نسي كيف يرقص الملاكم في الملاكمة، وأحسّ في وجهه برائحة الجلد، رائحة قفّازي ترونكوسو. وعلى الرغم من لكمة مباشرة استقرّت على فكّه، فقد زال عن كيد باديا الخوف وشعر للحظة أنّه كفّ عن أن يطفو، وتذكّر ساقيه ويسراه وخصره، ورفع ذراعيه وبدأ يدور حول ترونكوسو بفنّ وإيقاع ومن غير أن يرقص كقطّ، يُسرى يسرى، وشعر

أنه صعد إلى دوّامة مطاياها بشكل خيول، وشمّ رائحة نَفَسه ونَفَس ترونكوسو،وصدم قفّازاه قفّازي خصمه كامل الجسم وكلّه فنّ، رفع ذراعيه: يسرى،يمنى، يسرى، وسرعان ما أحسّ بانقباض في جنبه، بطعنة، بقنبلة انفجرت في عمق جسمه وعلم أنّ ترونكوسو سدد له ضربة قويّة سريعة على الكبد، وتذكّر الرصاص وهو يعانق نصف عناق ترونكوسو، وشمّ رائحة عرقه الشبيه بطعم الرصاص وتتالت لكمات جديدة، ثم دفْعٌ من بيدالِس، وأضواء الخلفيّة التي كانت تتحرّك كمصباحي عربتين تجريان في طريق شُقّ وسَط قاعة اللعب، ووجه صندالياس ورائحة مرآب أوليبيروس ودخانه، ثمّ ضوء أبيض قويّ جداً، وقبضة ترونكوسو في وجهه كمصباح قطار جعلته يتعلّق بالحبال راكعاً مع ميل أكبر للنوم وكأنّما ليتمكّن من التقيّؤ، ويدا بيدالِس (لم يكن لأبيه يدان في الصورة ولا ساقان ولا نصف جسم) وأصابعه تقوم بالعدّ، وهو يقول: لا، ثم ينهض مفكّراً في سبب احتفاظ أمّه بصورة بيدالس في غرفة معيشة بيته، شمّ رائحة عرق ترونكوسو مرّة أخرى، وأحسّ برغبة في أن يقول له، يا حقير، سوف أقتلك يا حقير، وكان ينوي أن يُطلق يده اليسرى لمّا رنّ الجرس، ومشى كيد باديا سريعاً نحو زاويته، غمس المنشفة في الدلو وجفّف وجهه، وكانت أصوات وأسنان وعيون، وجعل يحرّك كتفيه ثم نظر إلى ترونكوسو جالساً في ركنه، يمسّده الدكتور، وإلى دخان الجمهور، وإلى النمساوي يصيح بما لا يدري به، ثم جاءت رنّة الجرس من جديد، وعينا ترونكوسو البيضاوان، ورقص باديًا إلى الأمام وإلى الوراء، أخرج يسراه متراجعاً خطوتين ليهرب من نَفَس خصمه المختنق، ولكمة يسارية في وجه ترونكوسو، ويمنى هذا في صدره، ولكمة أخرى على الصدر، ولكمة

يسارية على العنق وعلى الصدغ، وسرعان ما انقلبت قاعة ألعاب ماتيو رأساً لعقب، والتوى عنق آبلينو كدجاجة نصف مذبوحة، مع طعم الدمِ في حلقه وشعوره بأنه ما يزال واقفاً، وهبّة من الصفير، ثم صار كلُّ شيء أبيض ويداه تداعبان قماش الحلبة، المثقّب والوسخ، وأحس بصوت أمه في مسمعه: آبلينو، والحلبة مقلوبة كقارب في حالة غرق، والرجل الأصفر يتسم من علٍ وحلم دبِق كان يدور فيه وجه ترونكوسو ووميض وصافرات، والمنشفة الرطبة وطعم الدم.

قيل له أنه أحسن جدّاً، لكن لوحظ عليه غياب الإعـداد، وأن ترونكوسو هو ترونكوسو، وأن ما كان يحتاج إليه هو راعٍ يرعاه، احدٌ ما يثق به، هذا ما قاله له بالانكا، نعم هو يتذكّر ذلك لمّاَ نُقل بين هذا الأخير والنمساوي إلى غرفة الملابس. من جهة الأسلوب، لُحظ عليك ذلك، يا باديًا، أمّا ما لم يُلحظ من أي جانب فهو الوسائل، وإنك بحاجة إلى راعٍ.

وهكذا كان. إذْ بدأ آبلينو، كيد باديا يرتاد محلاّت بليارد تيسان، الذي كان مكاناً يلتقي فيه لجان الاتحـاد، والملاكمون وناس من هذه الشاكلة إضافة إلى نساء يقتربن منك ويقلن لك حتى يكدن يمصصن أذنك: سأكون (مانولتك)[٦] في المراحيض لقاء مالا أدري من بيزيتات، هيّا، يا فتى، ذلك جيّد جداً لدوران الدم وللملاكمة واللكمات.. لكنّ آبلينو ما كان يريد مانولات ولا غـيِّردات ولا كَرلوتات، وما كان يريد أن تقدّم له خدمة هي من أرقى الخدمات

٦- كلمة عامية تعني عاهرة.

كما يُقال: تعالَ، يا شاب، أتريد خدمة؟ أمّا ما كان يريده فهو راعٍ، أو احدٌ ما يذهب به إلى الريف ليجري بين الجبال ويقدّم له لحم فخذ الخنزير ويزنه كل يوم، أحدٌ ما يملأ رئتيه بالأوكسجين، ولا يجعله يدخل المراحيض وهو شبه مُسمّم لكثرة دهن الجدران. وما يحدث هو أن الرعاةِ والمشجعّين، أو ما شئت أن تسمّيهم، ما كانوا يظهرون من أيّة جهة، وإن أعظم ما وصل إليه آبلينو في بليارد تيسان إضافة إلى استسلامه للإغراء بالذهاب مرّتين إلى المراحيض لتقدّم له خدمةً إحدى (المانولات)، كان عقْده صداقةً مع المسمّى كوسمِه كوسمه الذي كان يرتاد المكان وحيداً وطافحاً باليأس وكأنما روحه كانت تذهب في كلّ إصابة في البليارد. وهو من قال له أنه يستطيع أن يصله برجل أعمال، احد يُثمّر ماله هنا وهناك، في منجم حجر، أو في سوبر ماركت أو فيما يشاء،واسم الراعي المحتمل دون موريثيو ثسبدِس، وهو أيضاً صاحب ملهى في البرَاليلو.

واستطاع آبلينو الذي كان يقول مرّة بعد أخرى أن ملاكماً هو أوّلاً وآخراً مقلع حجارة، أن ينتصر على ثورات كوسمه كوسمه السيّئة، وتقلّبات طبعه المفاجئة وغرائبه، ويقنع صديقه رثَّ الثياب أن يسمح له بمرافقته إلى ملهى المدعوّ دون موريثيو، إلاّ أن كوسمه كوسمه لم يوافق قطّ على أن يدخل معه، بل كان يبقيه دائماً ينتظر عند الباب.

هنا تعمل خطيبتي راقصة. وما دامت، كما تعلم، تعرض جسمها هنا شبه عارية فلن أكون من يجلب لها فوق ذلك جمهوراً كيما يراها مزيد من الخلق أيضاً، وكد يّوث يجامعونها أمام ناظريه ثم عليّ أن أصّفق.

وما كانت تنفع في شيء توسّلات آبلينو ولا وعوده بأنه سينظر في الملهى إلى جهة أخرى، وأن الشيء الوحيد الذي يريده هو أن يقدّمه إلى دون موريثيو ليشرح له قضيّته، قضيّة الملاكمة، وعيناه مغمضتان إن دعتِ الحاجة إلى ذلك.

إذا كنت تريد أن يحدث شيء، فقله لي. – وشوش كوسمه كوسمه في الزاروب المظلم الموجود إلى جانب الملهى بينما كان يُخرج مسدّساً و يصوّبه إلى صدر آبلينو و إلى رأسه ذاته و كأنّما يُجري قُرعة للموت بينهما. – أنت تنتظرني هنا وأنا أسوّي الأمر لك. وإذا رأيتك في الداخل، أطلق الرصاص عليك، هذا يمكنك القسم عليه. لقد سئمت هذا العهر كلّه. وإذا ماتزوّجتُ هورتنسيا فادخلْ متى شئت. وإذا أردت فظلّ مع هذه الزمرة هنا في الداخل.

لكنّ كوسمه كوسمه ما كان يسوّي شيئاً. وظلّ كيد باديّا يطوف في ظلال الملهى، مستمعاً إلى صدى موسيقاه البعيد، وكأنها الموسيقى التي يحملها قطار يقف بعيداً. ويقوم بجولات ما كان يمكن أن تقود إلى أيّما جانب، ومجرّباً ضربات في عتمة المصابيح حتى يكاد يغلبه النعاس والبرد والتعب فيظهر كوسمه كوسمه الذي صار لا يعرفه، والذي إذا رآه يخرج من الزاروب كان يمدّ يده إلى المسدس في جيبه. آه، هذا أنت! كان يقول له من غير أن يقف، سائراً بسرعة حتّى كان كيد باديّا يُضطرّ إلى الركض وراءه يسأله إن كان رأى دون موريثيو.

هذا؟ هذا ابن قحبة! يوماً ما سيحدث شيء، وأنا أقسم لك على ذلك. ولا تلاحقني! لا تلاحقني. أنت: ما اسمك؟

آبلينو – كان يتمتم آبلينو –. آبلينو باديّا.

ويظلّ آبلينو هناك متسكّعاً في فجر برشلونة. «ولا تدخلْ هناك، كما تدخل، كما علمتُ أنك تدخل، وإلاّ سيسقط أحدً ميتاً»، كان كوسمه كوسمه يصيح وهو يضيع في متاهة الزواريب التي ما كان آبلينو يعرف فيها أيّ الليالي، ليالي كوسمه، أسوأ، أهي هذه الليالي التي كان يخرج فيها من الملهى كأنّما يحمله الشيطان ثم يظلّ هناك طائفاً، أو تلك الليالي الأخرى التي كان يظهر فيها شبه معانق امرأة سمينة ومرحة، حتّى ما كان يوجّه إليه في تلك المناسبة تهديداً من تهديداته المألوفة وإنّما كان يشير إليه بحركات من يده أن يدعه في سلام. وسار آبلينو بعد أن نظر إلى باب الملهى، متعثّراً راكلاً علباً من صفيح نحو نزُل إستريّا حيث رامون شبه القزم ذاك ذو الوجه الطفلي يقف وسْط متاهات الممرّات ناظراً بإمعان شديد إلى منصّة وكأنّه يتسلّى وسط الفجر في قراءة عقد الخشب ورسومه.

وهكذا كانت حياة كيد باديّا الهارب السابق من حافلات أوليبيروس والذاهب إلى قاعة ألعاب ماتيو لينزوي فيها و يكسب شهرة ووزناً وينظّف أرضيّتها الوسخة، ويستنقع في محلاّت بليارد تيسان ليرى إن كان كوسمه كوسمه يسوّي قضيّته، أو ليتحدّث إلى إلبرتو تيسان ابن أخ صاحب البليارد، الذي كان يكتب قصائد،ويذهب من حين لآخر إلى هناك ليطلب من الوكيل بعض الأوراق وأقلام الرصاص يستطيع بها أن يثبّت بعض الأشعار التي تتكلّم عن الحبّ وحجرات تنهار فيها سقوفها. وصار آبلينو في الأيّام التي كانت تقام فيها سهرات يبيع مع بالانكا برخصةٍ وإرادة من دون ماتيو، فستقاً ومياهاً غازيّة وسط

الجمهور، لكنّه كان يفضّل أن يقوم ببيع سلعه وظهرُه إلى الحلبة وإلى الملاكمين كيلا يسمّم دمه مفكّراً أنه هو من يجب أن يكون هناك فوقُ لابساً قفّازين، وليس منادياً على الفول السوداني الذي كان يفضّل عليه أن يكون سائقاً أو جابياً في شركة أوليبيروس. وعرض ذات ليلة، كانت أسوأ الليالي، بضاعته من غير أن يدري على شقراء بارامونت، شقراء فوكس التي راحت تنظر إليه بدهشة يملؤها العطف، وكان ردّ فعلها أن جعلت الدكتور يشتري لها نصف سلّة من الفول السوداني وثلاث زجاجات من المياه الغازيّة، ثلاثاً فقط، لأنّ آبلينو، كيد باديا لم يرضَ أن يشتري ستّاً أخرى. «ذلك خشية أن نعطش»، اعتذرت الشقراء وهي ترفّ بإيماضات خضر، أمّا ترونكوسو فلم ينظر إليه وظلّ رافعاً بصره مُحدثاً دوائر صغيرة بالسيجار،بينما كان آبلينو يولّي هارباً كيلا يسمع ما كانت تقوله الشقراء من وراء ظهره، «مسكين».

هكذا كان حتى قيل له ذات يوم أن كوسمه كوسمه قد ألقى بنفسه تحت القطار بعد أن قتل راقصة في البراليلو بإطلاق النار عليها. فذهب إلى بليارد تيسان كيما يتحقّق من الخبر، وهناك قالت إحدى فتيات المنتفعات، أنْ نعم، والحمد لله أن ذهب عن هذا العالم ذلك الوضيع الذي لم يكن، آخر الأمر، يحتمل نفْسه لثِقَل دمه، إضافة إلى خرْء، مسدّسه، وانه سيُدفن بعد ساعتين. والتقى عند باب البليارد نفسه آلبرتو تيسان فأقنعه أن يرافقه في تشييع كوسمه كوسمه قائلاً، وهو يرجوه، أن الشعراء تلهمهم المقابر كثيراً،ثم يطلع لهم شِعر عميق جداً، وإن يكن حزيناً.

وإذا كانت تعجبك القصائد التي تسقط فيها سقوف البيوت،

تستطيع أيضاً، إضافة إلى ذلك، أن تكتب قصيدة يسقط فيها، أو عسى، سقف قبر، قال له آبلينو وهو يمسك بذراعه، وشرعا يسيران في طريقهما إلى المقبرة حيث وجدا نفسيهما أوّلاً إزاء تابوت كوسمه كوسمه وسط حجرة فارغة، هي ضرب من حجرة للموتى، ثم إزاء الموكب الطويل جداً الذي كان يرافق ضحيّة المنتحر، ويبكيها، وحاول آبلينو أن يخمّن من يكون دون موريثيو فيه. ولئن تولّدت لديه الثقة مباشرة أنه هو ذلك السيّد الربعة قليلاً الذي يجفّف عرقه بمنديل، فلم يجد طريقة ليتخلّى عن موكب صديقه كوسمه كوسمه ليقترب من جيرانه الحزينين ويقدّم نفسه وسط جوٍّ الحداد لرجل الأعمال على أنه نجم المستقبل على الحلبة، بذلك الخطاب القصير الذي طالما راجعه في ساعات انتظاره عند باب الملهى وكان يصف نفسه فيه أنه من وزن الريشة، وأنه في الواقع مقلع أو منجم لم يجد وسيلة أخرى ليُخرج عرق المعدن كلّه الذي يحتويه في داخله، بدلاً من أن ينظّف الأرضيّات ويطلي تسلّخات الجدران ويلوّث - مع المعذرة - معدته ببطاطا نيئة وفطائر محشوّة شبه متفسّخة.

وقد شعر آبلينو بعد أن وُضع تابوت كوسمه كوسمه في حفرته و ألحّ مرّة أخرى موظّف شركة دفن الموتى عليه و على تيسان ليوقّعا ما لا يُعرف من وثيقة، أن معجزة تحدث لمّا رأى شخصين يقتربان منهما، وعلم أنهما قادمان من موكب جماعة الملهى. لئن تكن المعجزة والطريق إلى الاتصال بذلك العالم الذي طالما حام حوله ضئيلة، فإنه شخّص على شكل غامض احد ذاكما الشخصين اللذين لم يكونا شيئاً آخر سوى الترومبيتا وأخي رامون الذي لم يكن يُسمّى حينئذ كارلوس، ولاديل ريّو أيضاً.

ألستَ من لاس بيبينداس؟ سأل أخي مباشرة.

من لاس بيبينداس ؟

خلف الكايري، سينما كايراي، ألم تسكن هناك؟

في آنطونيو خيمينيث رويث، على ناصية شارع أو خينيوغروس -. أجاب أخي مقطّباً حاجبه قبل أن يوضّح -. لكني أسكن الآن هنا، في برشلونة، أعني.

ألم أقل لك؟ - ضرب آبِلينو على ذراع آلبرتو تيسان الذي لم يقل له في الحقيقة شيئاً، والذي كان ينظر إلى ذلك كلّه بدهشة، أو على الأقلّ بتلك الدهشة الحزينة التي يمتلكها الشعراء الذين يكتبون قصائد عن الحب وعن سقوف تنهار -. ألم أقل لك ذلك؟ فقد بدا لي أني أعرف وجهك ما إن رأيتك. قلت له: إن هذا الرجل من لاس بيبينداس أو من أوخينيوغروس. أليس كذلك؟ النتيجة واحدة هنا ما دام بعيداً جداً.

وقدّم الآن آبِلينو نفسه أنه مصارع من وزن الريشة وصاحب معركة - هزيمة، لكن لا بأس، فقد بدأ آخرون بداية أسوأ منها، وحدّثه عن الأوليبيروس وعن صبيّ الفيتشي، صبي من أوليبيروس.

أتعرف الفيتشي؟

وأخي يجيب.

الفيتشي؟ بالطبع. وأنت، أتعرف الفيتشي؟

وفورتِس. فورتِس في نظري هو الأكبر سنّاً. وأنا أحبّه.

فورتِس! – صاح أخي بفرح يغشاه البعد –. فورتِس أورِميتيدوس!.

وسيرّانو؟

وسيرّانو! بالطبع.

والباتاشولا!

الباتاشولا؟ الباتاشولا، لا أعرفه –. شكّ أخي.

لابأس! والباتاشولا لا يستحقّ عناء الذكر كثيراً أيضاً، لكنه كان يسكن هناك مع والده الذي هو حارس، وفي جبهته كيس دهني.

ووقفا عند ذلك الحدّ، بعد أن قدّما لبعضهما صديقيهما تيسان والترومبيتا على التوالي، وهما يتحدّثان بعيونهما المضيئة عن ذلك الحيّ الذي لم يكن حياً، بل حيّ تلتقي فيه أحياء كثيرة وأرباض، وقد دُهش أخي والملاكم باديًا من أنّهما ما كان يعرفان بعضهما على الرغم من أنهما قضيا حياتيهما كلتيهما يرتادان الأماكن ذاتها تقريباً: حانة ٢١، وبوّابة فورتِس، والكايري والكابيتول وحانة التشاتو، ولمّا تلاشت أخيراً بسمات الترومبيتا وتيسان الأولى وأصبحا لا يسمعان ما كان يقوله صديقاهما بالتبادل، وصرفا النظر إلى رأسي حذائيهما أو إلى قراءة أسماء الموتى على شواهد قبورهم المجاورة، وأعمارهم انصبّ الحديث عن كوسمه كوسمه، وأبدى أخي وباديًا علامة حزن،

تكشيرة متألّمة وهما ينظران في آن واحد إلى المكان الذي ووري فيه الثرى صاحبُ المسدّس، المعذّبُ، وهي لحظة استغلّها عامل الدفن اللجوج ليطلب إلى أخي والترومبيتا أن يوقّعا الوثيقة التي لم يشأ آبلينو ولا ألبرتو تيسان أن يوقّعاها.

لا، لا، وشكراً –. رفض أخي مبعداً يده عن قلم الحبر الناشف الذي كان يمدّه له العامل–. من كنت أعرفه على شكل خاص هو خطيبته الميتة، ليلي.

أنا موسيقي! فماذا تظن؟ الموسيقيون لا يوقّعون شيئاً أبداً –. قال مهاناً ومستاء الترومبيتا، وهو ينظر إلى أخي. – نحن ذاهبان، أليس كذلك، يارامون. أنا لا أستطيع البقاء مع هذا الموت كلّه والشواهد.

لكنّ باديّا أوقف أخي للحظة أيضاً وسأله بالسرّ ومن غير أن يجرؤ على التفكير في ذلك: أسألك، رامون، إن كنت أستطيع، أو عسى، الذهاب إلى الملهى وأدخله في يوم من هذه الأيام.

تدخله؟ – شكّ أخي –. الملهى مكان للدخول، كيما يدخله الناس. ومن أجل ذلك هو.

وهكذا عانق آبلينو، كيد باديّا، صاحب معركة واحدة وهزيمة، أخي منفعلاً، ونادى بسرور وبصوت عالٍ، على عامل الدفن الذي كان يضيع بين الأضرحة في الخلف: تعالَ، هاتِ يا سيّد كيما أوقّع، أنا أوقّع حيث يُحتاج إلى التوقيع، أو حيث يجب أن أوقّع. وبعد ذلك انضمّ أخي والترومبيتا مرة أخرى إلى مشيّعي ليلي الباكين المعطّرين مخلّفين

وراءهم الملاكم الغريب، وصديقه الصموت، وليس قبل أنْ يقول الترومبيتا لأخي مرّة أخرى: لقد سئمت الموتى يارامون، ولا تعجبني ضحكة الموت. هذه آخر كلمات قالها الترومبيتا خلال ما لا أدري من زمن،لأنه ما إن وصل إلى غرفته في نزل ريّوس – إسبانيا،حتى اندسّ في سريره المضطرب، سرير موسيقيّ، لأيّام عدّة من غير أن يخرج منه إلى الملهى، إنّما كان يعزف على بوقه بعض ألحان لم يسمعها أحد قطّ، لكنّ النّاس كلّهم كانوا يستطيعون التعرّف من خلالها إلى ضحكة ليلي وعينيها المضيئتين وصوتها، ليلي الراقصة السمينة التي كان لها ثديان كقالبين للحلوى، وجلدٌ ناعم (كالفلان) في محلّ مندرين.

وبعد ليال قليلة من عودة الترومبيتا إلى الملهى، ظهر في قاعة الاحتفالات آبلينو باديًا وصديقُه الشاعر آلبرتو تيسان الذي قد كان عارض الدخول إلى ذلك المكان محتجّاً أن قلبه عانى التمزّق بسبب لا تشيلو وهي امرأة ليل أكبرُ منه سنّاً، وأن الناقه النجيب لا يريد أن يسقط مرّة أخرى في هوّة غراميات أخرى وفي ذراعي أي امرأة من تلك اللواتي يُعلن عنهن في واجهات الملهى الزجاجيّة، وهنّ بالبكيني الفضّي، وبقبّعات كقنزعات التدرج، وقد لبث آبلينو أكثر من أسبوع ليقنعه أن تلك السيّدات مهما تكنْ لهمّ صور في الواجهة شبه عاريات لسْن سيّئات الذكر كتلك اللواتي في محلّات بليارد عمّه، ولا هنّ كالتشيلو التي نُكب بمعرفتها، والتي وإن ظلّ على حبّه لها، قد تكون ضارياً وضَبُعاً بشرياً.

إذاً، اجتاز آبلينو وتيسان بمر الأيّام عتبات الملهى، وهما يتحسّسان كلاهما بحياء السلّم الذي ينزل حتّى الظلمات. وظلاّ واقفين على

الدرجة الأخيرة، يراقبان تلك الجلبة من الأصوات والموسيقي والخدم، التي جعلت آبلينو في شكّ من أمره في البداية، لكنها جذبت على شكل غامض صديقه تيسان الذي حطّ بسواد عينيه فوراً على تقنية إضاءة المسرح وشرع يسير نحوه ببطء وتصميم حتّى وصل إلى حافّة الضوء ومن هناك استطاع أن يرى بكلّ وضوح شفاه الراقصات وأنوفهن وشاماتهنّ وأعناقهنّ وسررهن، راقصات كنّ يجرين على المسرح، وأعادت ملامحهن المتباينة كقطع أحجيّة سحرية، تركيبَ جسم لاتشيلو كاملاً في ذهن آلبرتو تيسان. وكانت لا تشيلو للحظة هناك ترقص بعيني ماري كارمن مولينا، وبعنق لوليتا برّويثو، ويدي لابيّا مانوليتا، وشفتي ألمودينا فِرْناندث وساقي الخلاسيّة ده فوّيغو وحركات صولداد روبي الرصينة. وازدهر تيسان كبرعم انتقل فجأة من برودة السهوب إلى حلاوة المدارات، وتفتّحت وريقات صدره كزهرة حمراء هشّة، وراح يتلمّس مسند كرسيّ شاغر، فأسنده إلى العمود وجلس عليه من غير أن يرفع بصره عن الراقصات اللاتي كانت ظلالهنّ والأضواء المسلّطة عليهن ترتسم على وجهه الحالم بينما كان كيد باديا في الخلفية يسأل نفسه عن التنقّلات الغريبة التي يجب على ملاكم أن يقوم بها، وعن الأجواء التي يجب أن يرتادها كيما يستطيع الاقتراب من النصر. وتذكّر أمّه، ولأوّل مرّة فكّر في أنها كانت على صواب، وأن الملاكمة مفرطة في قسوتها، لا لأنّ المرء يتلقّى فيها لكمات، ولا لأنه يسدّدها أيضاً إلى آخر، وذلك لعبة أطفال، وإنّما لأنّ الحلبة التي يجب على المرء أن يلاكم فوقها، ضخمة فيها حكام مُحتضَرون كبيدالِس، ومراحيضُ مستنقعيّة وحمّامات موبوءة، وكيلو متراتٌ من الجدران الملأى بتسلّخات يستحيل طلاؤها، وأناسٌ

يقولون لك: يا حقير، ويحدثون حلقات صغيرة من الضباب بدخان سيجارهم، ونـزُلٌ مظلمة وملاهٍ وشوارع فارغة ومدن بكاملها. والحلبة متاهة شاسعة الأبعاد، حتى خيرُ السائقين يمكن أن يضيع فيها.

انتعش الملهى بموت الراقصات. وكان أخي متألّقاً في الوصلات التي كان يغنّيها مرتدياً سترة حريرية وردية اللون، وصارت غرّته مروّضة واسمه جديداً. لكن أكثر ما كان يجذب انتباهي في ذلك الوقت، لم يكن أنْ صار أخي رجلاً يسمّى كارلوس ديل ريّو، وانه صار أقل شبهاً بذلك الأخ الذي ركب ذات يوم شاحنة أبي الليلاند مصطحباً حقيبة ذات مربعات زرق كيما يذهب إلى المحطّة ويستقلّ قطاراً أوصله إلى برشلونة عبر ما يزيد على ألف كيلو متر من المحطّات الفارغة والمناظر الليليّة، بل كان معرفة أخي ملاكماً، وكذلك امتناع أبي عن الحديث عن كيد باديّا لأصدقائه في حانة ٢١ وأنّه بدلاً من أن يقصّ عليهم معركة آبلينو وحياته ملاكماً، كان يختلق غراميات لأخي مع هذه الراقصة أم تلك الأخرى، وكان أصدقاؤه كلّهم يقتربون لينظروا إلى الصورة التي كان يُريهم إيّاها بشيء من الأزدراء وهو يقول: نعم، هو الآن مع هذه، أو تلك ذات الخصلة السوداء. «وما أجمل ساقي الفتاة! أو ما أجمل صدر تلك التي فوق! ما أكثر ما يأتي به الغناء» كانوا يقولون جميعاً بينما كنت أنا أسحب من جيب أبي الرسالة المدعوكة نصف دعك، وكنت أقرأ وأنا شبه منوّم ما كان يحكيه أخي عن آبلينو، عن الملاكم كيد باديّا في أربعة أسطر ذات حروف فخمة تقول إلى هذا الحدّ أو ذاك: وعرفت أيضاً ملاكماً هو من عندنا ويسمّى آبلينو باديّا، وإنْ أطلق على نفسه كيد باديّا، ويزعم أنه من وزن الريشة، وأنه كان يقطن خلف سينما كايري في البيينداس، وأنه يعاني جوعاً كثيراً،

وكانت تريده أمّه أن يصبح سائقاً لكنه رفض، و لم يذكر أخي شيئاً آخر عن كيد باديّا في تلك الرسالة.

وأنا لم أرَ ملاكمين إلا في الأفلام. أمّا في الحياة الحقيقيّة، فكنت أجد ماسحي أحذية، وخبّازين، وصانعي زليجات، وأصحاب مخازن كالكويّكورتو، وسبّاكين وموظفي مكاتب، وأصحاب ربطات عنق سود كوالد دييغومانويل، وسمّانين، وخياطين ومعلّمين، وحرساً، لكن لم يكن بينهم ملاكمون، فالملاكمون كانوا كرجال العصابات والروّاد وشرطة الـ:ف.ب.آي، F،B،I ناس ينزلون من العربات وهي تسير ويحملون بنادق تحت آباطهم، ناس مثل آلان لاد أو غلين فورد، يعيشون في ناطحات السحاب، حتّى إذا جاؤوا بيوتهم يتناولون كأساً من الويسكي بجرعة واحدة، أو يلقون بأنفسهم من النافذة إذا كان أحدٌ ما ينتظرهم وراء الباب حاملاً هراوة غليظة أو رشاشاً، وإنْ تكن الحقيقة أنّي لم أتخيّل قط كيدباديا بوجه آلان لاد ولاغلين فورد، لا في ذلك الوقت ولا لمّا أرسل أخي رسائل جديدة يتحدّث فيها عنه وعن ضيق عيشه، ولا أدري لمَ تخَيلت دائماً كيدباديّا بوجه النادل في حانة ٢١. و لم يكن اسم كيدَباديّا ما شدّني إلى وجهه، وإنّما هو أمر وزن الريشة، تلك الخِفّة التي تتطابق جدّاً مع خدّي الخادم البارزين ووجنتيه ناتئتي العظام. نادل كنت أتصوّره دائماً لابساً تبّاناً وقد ثنا خصره مطلقاً لكماتٍ في الهواء وسط المقالي والسمك والمواقد متى انصرف الناس كلّهم من الحانة، وقد علّق الصدار بعنقه وكأنه منشفة مخلّفاً على الأرض المغطّاة بالنشارة أثراً متعرجاً بحذائه، حذاء ملاكم، كنت أتخيّله شبيهاً بحذاء صديقي تاتين، القاتم اللون والطبّي.

وحلمت أحياناً بخوان/باديا. كان حلماً لزِجاً من ضباب وكأنّما المرء فيه يطأ دائماً سمكاً نيئاً ويبتلع الدخان الذي تنفثه شقراء بلاتينية من فوهتي أنفها بقوّة كبيرة وغزارة. لكنه لم يكن حلم خوف. بل كان الخوف يُطلّ في الحلم لمّا كنت ألمح أثناء التدريب أنّ حذاء الملاكم أخذ يترك على النشارة آثار حروف ما كنت أدقق في قراءتها، وكنت ألمح وسط ضباب الحلم حدائد تُمسك بالحذاء صاعدة عبر ساق الشخص الضامرة، الذي يلاكم، والذي لم يكن لاباديا ولا خوان النادل في حانة ٢١، بل تاتين، تاتين مخيفاً ما كنت أرى وجهه قطّ، وإنّما بداية ساقٍ كانت هيكلاً وعظماً بصعوبة يغطّيه جلد أصفر ومريض، كانت إنباءً بلهاثٍ مخنوق وشخير كالشخير الذي انتاب العمّ بيكتوريانو قبل أن يموت، والذي كان يحدّثنا عنه دائماً عمّي غوتيّيرث في زياراته لنا: ما إن وصلت إلى بيته حتى انتاب شخير الموت العمّ بيكتوريانو المسكين، ما إن وصلت حتى مات. وكان عمّي غوتيّيرث رسول الموت.

أخذ صوت تاتين يصبح أشدّ قتامة كل يوم، كان صوت كهف، وما كان يخرج من فمه وإنّما من أعمق الأعماق، ومن عمق الأحشاء، ومن المستنقعات حيث يحمل المرء حزنه. وصار تاتين لا يشبه تاتين، وكان أقل شبهاً بنفسه لمّا أوقفت خالته العربة ذات يوم شبه مُضبِّ قريباً من درجة السلّم التي كنّا نقف عليها، ببْيتو، الغبيّة، والموكوس، وأنا، ورأينا تاتين يخرج من باب الشاحنة القزمة الخلفي. ولم ينظر إلينا. وما كان ينظر إلى شيء، وكان على عينيه غشاوة ويعَرج أكثر من أيّ وقت مضى. سمح لخالته المدخّنة أن تعانقه، ورأينا جميعاً ذراع تلك المرأة قد تحوّل لمّا طوّق كتفي ابن أختها إلى معطف يحميه من

عوامل الطقس، ومن الكوارث كلها ومخاوف كانت تجري طليقة في المستقبل والأحلام. وحسدْنا الغيّة والموكوس وأنا وببيتو بلامبالاته الزائفة أيضاً، تاتينَ وحدائد تاتين، وحزن تاتين. ورغبنا للحظة أن تُقطع سيقاننا إذا اقترب منّا بسبب ذلك أحد ما وغطّانا بذلك المعطف من الحنان وقادنا كما اقتيد تاتين، متدثّرين به قدُماً في الشارع، قُدُماً في الحياة حتى دفء بيوتنا.

لكن، لمّا أُغلق باب بيتهما واختفى الشكلان كلاهما وراءه، تبدّد وهمنا وأحسسنا بالخوف من تلك الصورة. وفي تلك اللحظة جاءنا باريا الذي كان ذاهباً لشراء الخبز. وكان التقى للتوّ تاتين وخالته، وأراد أن يقصّ علينا وهو يكاد يختنق ما كان رآه، والهمسات التي كانت تُسِر بها لتاتين تلك المرأة التي ما كانت تتكلّم قطّ. لكن، ما كان يوجد شيء ليُقصَّ، لأنّنا ما إن رأينا تاتين خارجاً من العربة حتى عرفنا. الغيّة وببيتو والموكوس وأنا، أن ذلك كان نقطة النهاية في ذلك السفر الطويل، ولتلك الزيارات الكثيرة للأطبّاء ولصور الأشعّة التي لم تُفضِ إلى نتيجة. فبدلاً من أن يستمع تاتين هذا المساء إلى طبيب، فقد ذهب ليسمع قراراً أصدره قاضٍ بثياب طبيب يقرع بالمطرقة على منضدة. وبصوت كلُّه مطارق، وكُلُّه طرْق، حَكم عليه بالسجن في حدائده، وان يمكُث إلى الأبد في تلك الحجرة الفارغة حيث لا يُوجد حتى كرسيّ كهربائي، حجرة المحكوم عليه بالذهاب إلى العدم.

ولم نعرف جيداً إن كانت تلك الزيارات للأطباء شيئاً آخر غير سلسلة من التجارب الروتينية، وغير إمكانيّة ما بعيدة بالتحسّن تشبّثت بها من غير معنى، خالتُه وتاتينُ نفسه، وجعلاها تنمو بعمى الرغبة

حتّى حوّلاها إلى سقالة عالية هشة كان يهوي منها الآن صديقنا. كان يبكي، قال باريا وهو ينظر جهة الباب الذي غاب فيه للتوّ تاتين وخالته، كان يبكي من غير بكاء تقريباً بضوضاء محرّك في صدره. وضحك الموكوس. وقال باريا مرّة أخرى: لقد كانت ضوضاء غريبة كما كانت بكت أمّه لمّا رحل أبوه أول مرّة إلى ألمانيا، كما يبكي الأشخاص الكبار.

وانطلق باريا بكيسه الفارغ لشراء الخبز وانصرف ببيتو بعد أن مسّد لفافة لم يشعلها. وأخذت سحب السماء تنقشع، وضحك الموكوس مرّة أخرى ونظرنا: الغيّه وأنا عابسَيْن جداً إليه يضحك ضحكاً يختلط بصوت مخاطه، فقال له الغية: خنزير. ونهضت أنا عن درجة السلّم كيلا يلوّثني بلعابه، وكيما يكفّ عن الضحك، لكن الاشمئزاز البادي على وجه الغيّه ووجهي، زاد في ضحك الموكوس الذي كان يشير إلينا بإصبعه مقترباً مني بهيئة من سيعانقني، وكان ذلك لمّا ركله الغيّه ركلة قوّية على أوتار ركبته الخلفيّةَ حتى بدا أنه ستفرّ من جسمه، هو الذي كان يلبس بنطالاً قصيراً، وتخرج من جلده.

والتوى وجه الموكوس من الألم. ودار على عقبيه ورفع قبضته وكأنه سيضرب الغيّه، لكنه ما لبث أن أخذ يضحك من جديد. وبينما كان يقول: «سأشقّ وجهك إذا لمستني مرّة أخرى» نظرت إلى قوسي ركبتيه وأوتاره والأثر الأسود الذي كان خلّفه حذاء الغيّه، وشعرت برغبة في أن أضرب ركبتيه أيضاً، لكنّه استدار وقال لي: وأنت، ماذا؟ وأخذ مصباح ناصية شارع لانوثا يتذبذب مالئاً الظلمات بتشنّجات صفر. «خنزير»، قال الغيّه. تعالَ إلى هنا. وجرى الموكوس إلى الخلف

مهدِّداً بعصر أنفه على وجه الآخر وثيابه. وتوقفا عند الناصية تقريباً، وراح الموكوس يقترب من الغيّه ببطء شديد وذراعاه مرفوعان مقلّداً وحشاً يطلع من المستنقعات، لكنّي سرعان ما أدركت أن طريقة مشيه كانت أشبه كثيراً جدّاً بمشيةٍ تاتين منها بمشية أيّ وحش. أمّا غيّه الذي كان يستند هادئاً إلى الجدار وينظر إلى ذلك العَرَج المبالغ فيه، فقد تركه يقترب بينما كنت أسير نحوهما وأنا أشعر بظلمة اليوم تتغلغل أيضاً في صدري، وبجسمي وبروحي يمتلئان بالظلمات.

وكانت حركة سريعة، وضحكة أخرى من الموكوس وصيحة من الغيّه الذي سقط على كنزته قسم من مخاط الآخر الذي دار على عقبيه وشرع في هرب لم يدم تقريباً سوى زوج من الأمتار إلى أن صدمني. وبينما كنت أحسّ بجسمه وعظامه ورائحته وهو يصارعني، كان الموكوس يصرخ وسْط الاختناق والضحك: أفلِتْني، أفلتْ. وكانت ضجّة صماء وركلة ثم الذّعر على وجه الموكوس ومحاولةً مُضاعفة للإفلات وصرير كنزة تتمزق، ووجه الغيّه، وركلة أخرى أقوى، وصرخة الموكوس: لوطيان! وسوادي الذي كان شبيهاً بسواد تلكما العينين، عيني الموكوس اللتين كانتا تبرقان بضوء صغير أبيض في قلبه. ولقد رأيت ذلك الضوء لمّا لكمته أوّل لكمة، وكانت أوّل لكمة في حياتي، كانت نزوعي الأول للتحطيم، وأوّل رغبة لي في إطفاء ضوء تلكما العينين، وأخرجهما من العالم. حينئذ جاءت ركلة أخرى من الغيّه، ثم تقلّصات الموكوس محاولاً الهرب ويخرج من كنزته التي كنت أتشبّث بها بيدي بينما كنت أضربه باليد الأخرى مرّة أخرى، أضرب أذنه وقفاه وكتفه، وصدر الموكوس الذي كان يتقدّم وهو يرفس برجليه متعثراً نحو الحائط ويحاول الاختباء في ذاته متكوّماً على نفسه.

وكان ظهر الموكوس العاري وكنزته الملتفّة حول عنقه، وأضلاعه وعقد فقاره المطلة من تحت جلده، تدور على نفسها إزاء الجدار متعانقة مختنقة وهي تئنّ، وكأن جسمه كان كيساً بلاستيكياً مملوءاً بالحجارة والأوراق المدعوكة. وسقطا أرضاً بضجيج أصمّ، رأس الموكوس باتجاه الأرض، والغيّه منبطحاً فوقه كأنهما حيوان مشوّه. وإذ رأيت الموكوس يغرز ساقيه في الأرض محاولاً أن يُسقط الغيّه من فوقه، ركلته ركلة في طيّة ركبته، وعلى أوتارها التي كان ضربها الغيّه أوّل مرّة لكنّي سمعت أنّةً مخنوقة تحت الغيه وضوضاء كان يبدو أنها طالعة من عمق الأرض.

حينئذ أدركت أنّه أصبح مبهوراً أو شبه مختنق ليس كما حينما يجري أو يلعب كرة القدم، وإنّما كما لمّا كانت تدعوني دونيا كارمن إلى مكتبها في المدرسة لتعاقبني أو تصفعني. وقلت للغيّه من غير صوت تقريباً: «اتركه»، وقلت ذلك بصوت خفيض جدّاً كيلا يسمعه الغيّه ويستمرّ بالانبطاح فوق الموكوس وهو يسدّد له اللكمات ويلوي ذراعيه. «اتركه، غيّه»، قلت لنفسي بينما كنت انظر إلى أصابع الموكوس القائمة وذات العقد تطلّ من تحت جسميهما، فشككت للحظة فيما إن كنت أطؤها وأسحقها على الأرض. لكنّ الغيّه كان ركع فوق الموكوس وراح يضرب ظهره بقبضتيه المضمومتين، وكأنه يقرع طبلاً أصمّ، وكلّ مرّة بترداد أقل، ولكن كلّ مرّة بقوّة أكبر، إلى أن استردّ الغيّه أيضاً نفَسه وإحساسه وهو ينظر بإمعان كبير إلى الموكوس، إلى تلك العقدة من الأعضاء المتكوّمة التي كانت بصعوبة تتحرّك، فنهض واقفاً ببطء شديد، وهو يعصر ثوبه براحتي يديه وكأنما يريد أن يزيل كل أثر للموكوس وليس وسخ الأرض. كان الغيّه ما يزال يمرّ

بإحدى يديه على صدره، وعلى الكمّ المقابل لما رفع بصره عن الأرض ونظر إلى وجهي والى الشارع الفارغ وكأنه لا يعرفني ولا يعرف في أي مكان من العالم هو، ثم نظر فوراً مرة أخرى إلى الموكوس الذي تمتم: «لوطيان»! وهو يطلّ بوجهه من خلال كتلة الثياب التي تغطيّه، وعيناه غائمتان ومعتكرتان. فانحنيت عليه مفكّراً في أن أساعده على النهوض، لكنّي لمّا شممت من جديد رائحته، رائحة الحليب المجفَف الموجود في بيته، رائحة الخزانة الضخمة، وطشوت الغسيل وجدران بيته، ولمّا شممت نفَسه وهو يقول: «اتركني، ياابن القحبة»، أغرق مدٌّ عروقي الأسود ما في داخلي مرّة أخرى، ورحت أضرب وسط هذه الموجة من جديد وجه الموكوس ودموعه، أضرب ليس الموكوس، إنما سوادي، أضرب خوفي، أضرب الحياة والمستقبل وتاتين وأطباء تاتين، اضرب ذلك الشاهد على جبننا، وهوالموكوس أضرب ذاكرته وعينيه إلى أن أخذ الغيّه يجري وهو يقول لي: أحدٌ ما قادم. وحينئذ فقط كففت عن ضرب الموكوس. حينئذ فقط نهضت وابتعدت عنه من غير أن أسمع شتائمه وصوته المتهدّج بسبب البكاء والغضب، وخطوت خطوات باتجاه الناصية مع شعوري بدقات قلبي تخرج من صدري وتخفق خارج جسمي في ظلمة الأسوجة والشجيرات، وفي انتفاخ النجوم وفي خيوط السحب المتنسخة التي كادت تحجب القمر العكر.

كان للقمر لهاث كلهاث الموكوس ذاته، وله رائحة نفسه وثيابه ذاتها، وكان الهواء كله وكذلك الليل يفوحان برائحته، برائحة بيته، ورائحة أمّه التي لم يرها أحد قطّ، برائحة شعره ودموعه. وكان مصباح الشارع قد كفّ عن التذبذب، وصار ضوءه مكوّناً من المادة المريضة الصفراء ذاتها التي لأنفاس القمر. فهربت من وهجه لأني كنت على

يقين أن تلك الإضاءة وذلك الغاز الكثيف الذي كان يطفو حوله، كانا مُثقلَيْن بالسمّ. هربت ماشياً من غير أن أجري ومن غير أن أنظر إلى الخلف، هربت بصمت يرافقني إيقاع تنفسي القاسي فقط. ترافقني أصواتٌ وخطا وصراخٌ ما كانت تُسمع إلاّ في داخل رأسي.

بهذا الصدى وبهذا الصخب الصامت وصلتُ بيتي. ولمّا عبرت الباب ودخلته فكّرت أني أنا أصبحت غير أنا، وأنّ الشخص الذي كان عَبَر هذا الباب قبل ساعات قد اختفى في متاهة الدنيا. ولا تاتين كان تاتين، ولا أنا أنا، وقد لا أكون أنا أنا أبداً. ولئن كان لي الاسم السابق ذاته، و لم أبحث عن شكل جديد لاسمي سواء أكان ديل ريّو، أم كمبرلي، أم روبي، أو كيد صوله، فأنا لم أكن أنا، وما كان يهمّ أن تتعرف أمّي إليّ، ولا أن يداعب أبي شعري وكأني ما زلت أنا، ويقول لي أن أخي أرسل رسالة جديدة، وفيها يتحدث عن صديقه الملاكم الذي طالما أُعجبت به. وفكرت في الموكوس ساقطاً أمام الجدار في شارع لانوثا، متكوّماً في الظلمات. فكّرت فيه وكأن ذلك الحادث قد حدث منذ زمن بعيد، أو كأنه لم يحدث قطّ، وكأنه صورة ضبابية من صور حلم. وبينما كنت أسمع صوت أبي فكرت في أنه ربما ما كان كلّمني مرة آخرة بهذه الطريقة، وما كان داعب رأسي لو خمّن، أو لو عرف ما قمت به منذ قليل. شعرت بنفسي كأني قابيل، أو كأني الرجل الذي يُنزل العتَلة في غرفة الغاز ثم يذهب إلى بيته ليتناول العشاء مع عائلته أو ليضع قدميه في الماء، أو ليشرب شراباً لأنه مصاب بالسعال ويؤلمه حلقه. وكان ذلك لمّا أخذت أعرف أننا كلنا قابيل وكلنا نحمل قطعة حديدية حادّة نضعها في خصرنا، وأننا نستطيع في كل لحظة أن نستعملها في مواجهة من كان، لكن، ليس متى أردنا، وإنّما متى أرادت، هي الحديدة.

ولمّا رأيت هناك أمّي تضع الأطباق على المائدة، ورأيت السجادة المرسوم عليها أسد، ورأيت خزانة الأواني المزدانة والصور وقطع الأثاث، شعرت بالخجل من ذلك، من رائحة النظافة التي عمّا قليل ستستقبلني في سريري، من الموكوس وهو يسير في ظلمات شارع لانوثا وكنزته ممزقة في طريقه إلى بيت لم يكن بيتاً والى سرير ذي أغطية مرقّعة،إلى بيت من غير أمّ ولا خزانة أوان خزفية، ولا إخوة ولا أب ولا ضوء. وقد تركت أبي يقرأ لي رسالة أخي من غير أن اسمع أن كيد باديًا كان يأكل بطاطا نيئة ويلاكم أوسكارترونكوسو، بينما كنت مستغرقاً في تخيل صورة صديقي الموكوس، ووحشة شارع لانوثا، وشارع بِلايو وكل الشوارع التي كان على الموكوس أن يقطعها وحيداً حتى يصل إلى وحشة بيته. وعلمت حينئذ أن عقاب قابيل العقاب الحقيقي لم يكن أن حرمه الله من محاصيله وجعل أرضه يباباً تلك التي كانت كونتشي كانكا ترسمها ضمن رسوم الكتاب المقدس، كلا، بل العقاب الحقيقي الذي لا يمكن لمطر ولا لنار أن يمحوه أبداً كان التبكيت أو تأنيب الضمير. تلك كانت اللعنة الحقيقية، والسمّ الذي سينبعث مدى السنين ومدى الأبد، ويوماً بعد يوم متجدّداً وقابلاً دائماً كيما ينضح بماهيّته السامّة.

وأنا من غير أن أكون أنا، أنا المسممّ اضطجعت هذه الليلة على كوني شخصاً آخر، لكن بالاسم الدائم ذاته، على عكس أخي الذي على الرغم من أنه سُمّي بشكل آخر، فقد كان هو ذاته دائماً ويكتب رسائل بالأحرف ذاتها والكلمات نفسها دائماً. وكانا نعلا الموكوس يمشيان في ذاكرتي وذهني في طريق لا يُفضي إلى أي مكان، وعبثاً كنت أحاول التفكير في الرسالة التي قرأها أبي، أفكر في كيدباديا

وفي قدمي كيدباديا ونعليه اللتين ما كنت اعرف كيف هما، لكنهما كانتا في ذاكرتي بلون بني فاتح، كانتا نعلي ملاكم فقير يسعى بهما صاحبهما ليلة بعد ليلة بصحبة نعلي ألبرتوتيسان السوداوين إلى ملهى دون موريثيوثسبدس، الملهى حيث كان أخي يغني في الليالي بعيداً جدّاً عن بيتي، بينما الغيّه وأنا ننام، والموكوس لا يكفّ عن السير بنعليه في الأرض الخلاء وشوارع الدنيا الفارغة كلّها.

كان حذاء باديا مثل بنطال باديا، مثل قمصان باديا وسترته. كانت فضالة وكانت خيراً من جوارب باديا، التي كانت فوهة كبيرة مع بعض الخيطان تضم أرخبيلاً من الثقوب كانت في أزمنة بعيدة جوارب. لكن ثياب باديا كلها كانت نفاية معدّة للطرح، كانت ثياباً خربة كخرائب الترينيداد التي كان يتجول فيها الموكوس، ثياباً فيها خيوط وشجيرات ضائعة تطلّ من بين فتات صوف وركام نسيج شبع بِلىً. كانت ثياباً عتيقة، مهترئة لم يستطع آبلينو أن يجددها بأجره البائس، أجر منظف قاعة العاب ماتيو، ولا بالأرباح الهزيلة التي كان يوفّرها بيع الفستق والمياه الغازية في الليالي الساهرة؛ ولا اللحم القديد الضئيل الذي كانت ترسله أمّه إليه في علب من الكرتون كان يجعل آبلينو ميسوراً ليتخلّص من تلك الملابس التي كانت ستُرمى في القمامة ما إنْ يحقق صاحبها انتصاراً على الحلبات ويستطيع أن يشتري معاطف مبطنة بالحرير، وسترات طيات قبّاتها ضخمة. وعلى الرغم من ذلك كانت ملابس باديا تسمح باستعمالها بطواعية، وكانت تصحب كل ليلة صاحبها بحثاً عن راع يوفّر له التخلي عنها نهائياً، بحثاً عن دون موريثيوثسبدس الذي قدمه له أخيراً أخي بعد ليال عدّة لم يتجاوز باديا فيها محيط المدخل.

– هاهو دون موريثيو وهذا آبلينو كيدبادياً ملاكم من وزن الريشة. ويريد أن يكلمّك عن بعض شؤون الملاكمة.

– بل عن الدعم، أو عسى... أشار باديا.

لكن باديّا لم يستطع أن يتكلم تلك الليلة بشيء له علاقة بالملاكمة ولا بالحضّ على إقامة معارك. أو أنه استطاع الكلام كما رأيت، وكما علمت بعد سنين طوال. كلّم دون موريثيو عن الصفقات الضخمة التي يحقّقها دون ماتيو بسهراته، وعن الاستثمار الجيد في ملاكم مصنّف، وعن المعركة التي خاضها مع أوسكارترونكوسو، وعن الكيلوغرامات من البطاطا النيئة، وعن الفطائر المحشوّة بالسمك التي اضطر إلى أكلها، وعن بيع المياه الغازية والفستق، وعن حافلات الأولييروس، وعن صندالياس وجلسات الملاكمة الوهميّة. عن ذلك كله كلّم آبلينو دون موريثيونسبدس. وما حدث هو أن آبلينو كان يتحدث أحياناً إلى ظهر دون موريثيو، وأحياناً إلى قفاه، وأحياناً أخرى إلى جنبه، لكنه استطاع للحظات معدودات أن يحكي له عن همومه ومشاريعه في وجهه، لكن وجه صاحب الملهى الخالي من التعبير، كان يراقب دائماً من فوق كتفي كيدباديا ورأسه تحرّكات موظفيه وذهاب الراقصة صولداد روبي وإيابها، تلك التي ما إن تنتهي نوبتها حتى كانت تتخذ وضعاً عند أسفل المسرح ليصوّرها المصوّر روبيرا وهي بالمكياج الذي كان يزيد من شحوبها.

أين بوربّتا؟ انتهرَ دون موريثيو آبلينو على شكل شتيمة – أين اندسّ؟

بوربّتا، أوعسى... أهو ملاكم ربمّا؟ ومن وزن الثقيل؟

أين اندسّ بوربّتا؟ وكان رأس دون موريثيو يدور – ابحث لي عن بوربّتا؟

وهنا انطلق آبلينو، كيد، باديّا عبر دخان الملهى سائلاً هؤلاء وأولئك عن بوربّتا، إن كانوا رأوا بوربّتا، أو من بوربّتا هذا الذي كان يبحث عنه حتى لقي المصور في المراحيض وقاده إلى دون موريثيو وفتحة بنطاله نصف مفتوحة وعلى وجهه دهشة. وقد أتيحت الفرصة لآبلينو

باديّا أن يذكر مرّة أخرى طموحاته في الملاكمة لدون موريثيو ثسبدس الذي لم ينكر شيئاً على الملاكم الجوعان، بينما كان صديقه تيسان الذي أذهلته الراقصات، يكتب في الليالي التالية، قصائد في أسفل المسرح، على قطعة من الفوط، وعلى فواتير ملّوثة بالكحول، أو على بطاقات خزن الثياب. وكان دون موريثيو يجيب عن أسئلة آبلينو، نعم، نعم، يا رجل وهو يرّبت في آن واحد على كتفه وينظر متحرّياً كلّ ركن من المحلّ، نعم؟ كان باديّا يسأل حالماً إذاً، متى تكون؟ متى ماذا؟ معركتي، متى نقيمها؟ أيّة معركة؟ هيا، ياباديّا، وقل لآنسلمو الوكيل أن يُقفل الصندوق ويأتيني بالحساب إلى جناح الحجرات.

وكان دون موريثيو دائم الذهاب إلى الحجرات، حائماً حول صولدادروبي مانعاً بحضوره روغان روبيرا الذي وُضع تحت مراقبة بوربّتا الدائمة وبأي شكل، وذلك بهدف مزدوج كيما يتعلم المصوّر الجديد طرائق سلفه الجيدّة، ولكي يحول بينه وبين إقامة أي نوع من

صلة حميمة بالراقصة التي كانت تبدو كلّ يوم أكثر إتقاناً للرقص، وكل ليلة أكثر شحوباً من غير أن تفقد تحت تلك الطبقات من التزييف هيئتها الفلاحية البريئة، وصفاء تلك النظرة التي كانت تبدو أن عصافير تجري فيها، وينعكس فيها ضوء الأصباح وشفافية مخضرّة لنهر تحفّ به الأغصان والأعشاب العطِرة، على الرغم من المكياج والأضواء ودخان الفجر، غير السليم. وكان دون موريثيو يريد أن يضع قدميه في أمواه هذا النهر ويتغلغل فيه عارياً وببطء شديد كما يتغلغل الرجال بين سيقان النساء، على قول بيتو، وكان دون موريثيو يرى نفسه أحياناً، وقد لامست أصابعه شفافية الماء، أنه مالك تلك المناظر البرّية بينما كان موقف الراقصة يجعله في مناسبات أخرى يحس بنفسه منفيّاً عنها نفيّاً أبدياً.

وكانت هناك ليال ترفض فيها صولداد أن تفتح له باب حجرتها، حتى ما كانت تستجيب لنداء دون موريثيو ولا لقرع براجم أصابعه، ولا للتوسلات التي يطلقها عبر خشب الباب وطلائه: صول، صول، صولداد، يابنت، أنا أعلم أنك هنا، اسمحي لي أن أراك، افتحي للحظة واحدة فقط كيما أسلّم عليك، صونصولِس، هذا أنا موريثيو، صول، صولداد. وكان دون موريثيو يظلّ هناك لاصقاً بالباب ككلب أمام قبر صاحبه، وكما لويسيتوسانخوان عند واجهة حدائد ملْدونادو ناظراً إلى سكيّنه، كما كنت أنظر إلى رسائل أخي رامون الذي أصبح يسمى كارلوس. صول افتحي، يا بنت. وما كان يهمّ دون موريثيو أن يُرى إلى جانب الباب، حتى ما كان يهمه أن تراه لابيا مانوليتا التي كانت تنظر إليه بعينين تطفحان بالقطران، وتقول له: أنت ديوث، لا تخجل من نفسك، لسوف تقضي عليك وهذا يفرحني، ويفرحني أن أراك

من غير ستر بينما هي تضحك منك في الداخل حتى كانت تُسمع من حجراتي ضحكاتها من القرنين اللذين لك ياديوث.

لكن صاحب الملهى ما كان يهتمّ بلابيّا مانوليتا، ولا بعيني لابيّا مانوليتا، ولا بالقطران والمغانط التي تحملها داخل عينيها، بل ظل هو وشأنه: قولي لي، صولداد، قولي، أأنت وحيدة؟ قولي لي أنْ نعم، وأذهب. من معك؟ إن كنت وحدك، دقي على الباب دقة واحدة، وأذهب. وكان دون موريثيو ينتظر كابحاً نفسه، مبتعداً عن الباب بضعة ميليمترات لأن خفق قلبه كان يصدم الخشب ويثير ضوضاء وقرعاً كانا يلبّسان عليه. قولي صول، أجيبيني، يافتاة. وظلّ دون موريثيو مبهوراً حتى اغتاظ وانقطع عنه الهواء، ثمّ اجتاز وهو ينظّف العرق عن عنقه وجبينه، الممر المظلم والمطل على القاعة الرئيسة، ونادى: باديا! أسرع إليّ، ياباديّا! وها هو ذا باديّا الذي تولّى عمله الجديد مراسلاً بأجر يتغير حسب مزاج دون موريثيو، وها هو أمام رجل الأعمال ليسمع ترتيلة الليالي كلّها، التي هي، كما هو معروف بين العمال، هذه المشاهد من التوسلات من خلال حاجز.

ابحث لي عن روبيرا، ياباديا. ابحث عنه، لكن من غير أن تقول إني....

هو عند الحاجز مع ترومبيتا، وآلمودينا فرناندِث من غير أن يلتقط صوراً... - قاطع باديا المدرَّبُ على مهنته، والضجرُ منها.

وما كان دون موريثيو يعرف حينئذٍ أيّ الطرق يسلك، ولا أية كلمات ولا خطط يخترعها ليبلغ المنظر الوارف الذي كان يطلّ من

عيني الراقصة صولدا دروبي التي كانت تستقبله في مناسبات أخرى في حجيرتها بابتسامة كان يبدو أنها اخترعتها من أجل هذه اللحظة، ابتسامة جديدة عبرت أول مرة وجه الراقصة وأضاءتها كالشمس الصاخبة التي تطل من الأفق في الأيام التي تلي العاصفة، وكانت تجعل دون موريثيو خائراً وضائعاً في المتاهة ذاتها التي كان يسير بها الميّت روبيرا، إلا أن روبيرا ما كان يقرع أي باب وما كان يتوسّل، وإنما كان هو يحتبس أيضاً في مختبره، وهناك كان يقضي الأيّام من غير أن يريد الخروج قطّ. «ذلك أن لديّ عملاً كثيراً»، كان يقبل بشكل استثنائي أن يبين لأخي لمّا كان هذا الأخير يدعوه للقيام بنزهة في الرامبلاس أو للذهاب إلى السينما. وكان يطل برأسه من الباب الموارب وقد انهارت غرّته انهياراً كاملاً. لدي عمل كثير، ياكارلوس، كان يقول وهو ينظر إلى الأرض، ينظر بالتفصيل إلى خط التحام البلاط، وإلى مسيرة نملة دقيقة على سطح الأرض قبل أن يرفع قدمه ويسحقها بصرير ما كان يسمعه أحد.

لكن الحقيقة هي أن روبيرا ما كان يصنع صوراً تقريباً، بل كان يكرّس الساعات التي يقضيها محتبساً وسْط مصابيح صغيرة حمر وظلال مشبعة بحمرة دموية أو بحمرة مخملية، لرعاية يأسه على الأغلب، ولصنع تلك المركبات التي كان يتسلى بها تسلية في زمن آخر، والتي طالما أضحكت أخي الذي كان اسمه رامون، لكن، صار لها الآن طابع غير سليم ومشؤوم تقريباً. وحسبما قصه أخي عليّ ذات مساء من أمسيات الشتاء بعد سنين كثيرة من ذلك، بينما كنا نسمع ونحن جلوس حول المائدة، سقوط المطر على زجاج بيتنا، البيت الذي كان قريباً من غرانخا سوارث، وليس ذلك البيت في شارع أنطونيو

خيمينث رويث، إذاً، حسبما قصه أخي هذا المساء أقول، إن روبيرا كان ينكبّ في تلك الحقبة اليائسة على تركيب مسوخ فحسب، وكأنّ آلة التصوير عنده قد انقلبت مجنونة أيضاً، فكانت تبصق وسط يأسها أفلاماً محالة. فكانت توجد بين المركبات التي رآها أخي صورة كان فيها رأس الخادم آلبارث لاصقاً بجسم غريغوري بيك ذاته، وكأنهما توءمان سياميان، الخادم والفنان. وكانت توجد صور راقصات بأربع سيقان وثلاثة أثداء، وكانت صورة لترومبيتا يعزف على طريقة بهلوان يعتلي شريطاً ممدوداً بين ناطحتي سحاب، ويوشك أن يهوي، وصورة لليلي تحمل على صينية رأس كوسمه المقطوع والدامي. وأكثر ما كان يثير الرعب والذّعر في الأمر، هو أنّه ما كانت تُرى في أي جانب خطوط دمج، ولا حيل. بل كان ذلك كله يبدو ملتقطاً مباشرة من كابوس، أو من عالم ما يتنفّس تحت طيّات ياقات عالم الواقع وثناياه.

ربما عبرت هذه الرؤى كلها الحجرة ذات الظلال والظلال الناقصة الحمر، إذا كان المصوّر وحيداً وشياطينه. ربما كما كان يحدث للراقصة خلال ليالي خلوتها، أو ربما بهذه الطريقة كان ذاكما الكائنات ينقلان ذلك إلى بعضهما بعضاً بشكل سرّي، من غير حاجة إلى الكلام بينما يكونان مستندين بمرفقيهما إلى حاجز الملهى مُحاطين بالناس. وربما كان هذا التفاهم الخفي ما كان يدفع صولداد روبي لمرافقة روبيرا وأخي إلى أخصاص الصومرّوسترو، وهذا ما أدّى إلى إغضاب دون موريثيو ثسبدس وجعله يتخذ قراراً كشف عنه على انه فكرة خطرت له فجأة، لكنه في الحقيقة قد كان داعبها ورازها بصمت منذ اللحظة التي قدّم له فيها أخي باديًا وحدثه عن تجربته في دنيا الملاكمة.

«باديّا، نعم، اليوم لديك عمل هام تقوم به، عمل هام لك ولي إذا نجح، وإذا قمت بهذا العمل كما أقول لك، فسوف أعمل على إقامة المعركة التي تريدها، وكان دون موريثيو يجفف عرقه معركة الملاكمة. أتعرف؟ المصوّر، وليس بوربّتا، وإنما الآخر روبيرا الذي لا يعمل من أجلي، وهو يدخل هنا دائماً، ويُفقدني نقودي ويُهمش المصوّر الآخر الذي أدفع له لقاء لا شيء، والذي يشيح الناس بوجوههم عنه إذا حاول التقاط صورة لهم، لعلّك لاحظت – كان دون موريثيو ينظر إلى هذا الجانب أو ذاك مبدياً بياض عينيه كأنهما بيضتان قاسيتان سوف تتدحرجان في كل لحظة على وجنتيه، ووافق آبلينو – لعلّك لاحظت انه يقلق راحة صولداد روبي، لعلك لاحظت، أليس كذلك؟ وأبدى آبلينو شكّه وزمّ شفتيه تعبيراً عن القلق وكأنه يريد أن يقول شيئاً لا يتركه صاحب الملهى يقوله – لاحظت أنهم في الملهى لا يتكلمون عن شيء آخر سواه، وأنا قلت لروبيرا أنه مطرود فضربني – وأشار دون موريثيو إلى شفته، وجفّف جبهته وعنقه أيضاً من العرق – لكنّه مازال يأتي، وهذا – وهنا نظر دون موريثيو بإمعان إلى باديا من غير أن يرفّ له جفن، ورقّاص محجريه مثبّت على بؤبؤي عيني الملاكم – وهذا يجب قطعه. سوف تبحث لي عن رفيق لك من هؤلاء الملاكمين، من أولئك الملاكمين الأقوياء وليسوا من وزن الريشة كما تقول أنت عن نفسك، بل من وزن أكبر، وأنت تعلم – وهنا نظر شزراً ونخر بأنفه – أنت تنظر إلى المصوّر ذات ليلة، ليلة يسير فيها وحيداً، ولا يكون مع صولداد، مع صولدادروبي، مع راقصتي، وسوف تشقّونه، وتعملون له «علقة» وليعلمْ أنه يجب ألاّ يأتي إلى هنا أبداً، وأنه كلما جاء سوف يلقى ما لقيه، معركة بالملاكمة في زاروب

يفوح برائحة البول، – ونظّف دون موريثيو فمه بالمنديل وكأن ذِكر البول جعل لعابه مُرّاً وكذلك شفتيه – اسحقوا أضلاعه أو بعضاً منها، يوجد مال لكما، مالٌ لصديقك، ومالٌ لك، عداك عن المعركة التي تريد أنت إقامتها، وسوف أساعدك عليها، ياباديا. إذا كنت تريد، فكر في الأمر. لكنك ستقول لي، ستقول لي ما سوف تفعل، إذا لم تكن موافقاً، فالأفضل لك ألا تعود إلى هذا المكان، أنا أصبحت لا أحتمل هذه الطفيليات كلها، أريد ناساً أوفياء لي – لكني احتفظ بكثير من الود لرامون، لكارلوس، أو عسى، وهو صديقه، صديق المصور، تجرأ باديا على القول –.هذا لا يهمني.فكر في الأمر، نعم أو لا ستقول لي، من ثم وقبل أن تنصرف، نعم أو لا، وها أصبحت تعرف ما أريد».

ربما هكذا كلّم دون موريثيو كلاماً طالعاً، كلاماً نازلاً آبلينو، كيد باديا ذات ليلة، بينما كان أخي كارلوس ديل ريّو يغني على المسرح أغنية شجيّة، وحوله تدور بالبكّيني المفضّض والصفيّحات اللامعة، تلك الراقصات اللاتي كن يُحدثن إذا سقطن ميتات على المسرح، الصرير نفسه والصوت المرح والمشؤوم ذاته، في آن واحد، الذي كان يثيره على الأرض صديقي تاتين حينما كان يحاول أن يصدّ في ملعب ٢١، أو قبالة مدرسة الصمّ والبكم، الكرات التي كانت تخترق مرمانا بكثير من السُعار. وقد وجد آبلينو باديّا نفسه حرّاً من كلّ الأعمال الليلية، حتى لم يستدعه دون موريثيو مرّة واحدة، ولم يعلم عنه شيئاً إلا فجراً من خلال نظرتين تبادلهما من بعيد المقاول والملاكم، نظرة دون موريثيو المتوتّرة والنافذة ونظرة آبلينو الهاربة والمنكسرة.

ولّما أنهى أخي برنامجه الثاني، لاحظ كيد باديّا، أن أخي وروبيرا

يستقبلان على مائدتهما صولداد روبي وقد تخلّصت من ريشاتها ومن حجارتها اللامعة لابسة بزّة سوداء مفتوحة العنق. وطلب آبلينو من الخمّار كاماتشو أن يسقيه كونياك، أو أيّ شيء: صُبّ لي ما تريد، وأنت الفهيم، ما يشربه الناس إذا أرادوا ألاّ يفكروا أو يتذكروا أنهم أحياء. وشرب الكونياك على عجل وكأنه في محطة فذُكِر اسم قطاره بمكبرات الصوت. وشرب كأساً أخرى من الكونياك ببطء أكثر، من غير أن يهتم بعد بالقطارات ولا مكبرات الصوت. واختلط بالناس الجالسين عند الطاولات، ومرّ تحت الأضواء، وقد أضاء طيفَه مصباحُ على المسرح كان يضخّم برامج السحر الخاصة بالصيني تشين - لو، وساقي صونيا سِتوبال مساعدة الصيني وبطنها العاري. وقد أخرج الصيني بونيّا من رأسه، رأس كيد باديّا الذي تشبث بسرعة بطرف المسرح، حمامة ذات بقع سود، وشمّ باديّا الريح والعطر الذي تثيره صونيا بحركة معطفها متوسلة التصفيق، ورأى الحمامة تخفق بجناحيها،فرسم الملاكم شارة الصليب، وكأن روح القدس خرج للتّو من جسمه، وخلّفه وحيداً، ومتروكاً لمصيره.

ذهب ليجلس إلى الطاولة التي كان يحتلها ألبرتوتيسان منذ اليوم الأول لزيارته، تيسان الذي لم يفوّت أية ليلة من غير أن يُهرع إلى الملهى، وكان عقد صداقة كبيرة مع الترومبيتا، ولئن كان هذان قليلي الكلام، فقد كانا يتغامزان ويضحكان من بوربّتا ودون موريثيو، ومن زبون كانت ترتعش راحته فينسكب كأسه وهو ينظر إلى الراقصات. وبينما كان الترومبيتا يدّخن وينظر إلى الصيني بونيّا وهو يضع ساقيه على كرسيّ، وبينما كان تيسان يكتب على أوراقه وعلى المناشف إحدى قصائده، قصائد جديدة ما كانت تسقط فيها سقوف، طلب

آبلينو من النادل آلبارث كأساً من الكونياك فشربها ببطء ناظراً إلى الترومبيتا وإلى آلبرتو تيسان اللذين ما كانا ينظران إليه. ونهض آبلينو وسط التصفيق المكرس لبرنامج تشين – لو الأخير، وهو نشْر صونيا سِتوبال الموضوعة في صندوق مع طشت تحته لجمع الدم – (هذا الحساء الأحمر الذي كان يصنعه الصيني بكثير من المكر كل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع في نزل ريوس – إسبانيا) – الدم الذي كان يسقط وسط صراخ صونيا المذعورة، من الصندوق الذي خرجت منه بعد انتهاء النشر والتصاق نصفي الصندوق سالمةً وباسمة وأجمل من قبل أن تقسم قسمين.

ولمّا وصل باديّا إلى الطاولة التي كان يجلس إليها أخي وروبيرا وأحد الزبن وصولداد روبي، نهضوا أربعتهم ضاحكين، وبادر آبلينو، كيد باديّا إلى الجلوس إزاء أخي وقال له: رامون أو كارلوس، أوعسى، أنا أحبك كثيراً وأحب أصدقاءك هنا، أنت من البيبنيداس، وتعرف، أوعسى، الفيتشي وفورتِس، وأنا احبك كثيراً لكن، عليّ أن أعيش ياكارلوس، يارامون، وأصبح ملاكماً وأنقذ أمي المسكينة من البؤس، و لم تبق لي حيلة. «لاشيء عندي، ياباديّا، أو عسى، يا آبلينو، وأنا أيضاً أحبك، حتى لو لم أعرف الفيتشي ولافورتس، فسوف أحبك الحب ذاته، لكن، انتبه إلى أن الشراب غير جيد لملاكم، وسوف تُسّوى الأمور»، هذا ما قاله أخي قبل أن يغادر الملهى ويتجّه مع روبيرا والزبون المجهول وصولداد روبي الباسمة كعش عصافير في الربيع، نحو الدرج تاركين باديّا واقفاً مسمّراً إزاء النظرة التي يوجّهها له دون موريثيو ثسبدس من بعيد، ومن عند طاولة يلفّها الدخان.

ومنذ هذه اللحظة أو ربّما منذ أن تحدّث صاحب الملهى إلى آبلينو، صار يعرف أنه بعد ساعة أو ساعتين سوف يدنو من دون موريثيوثسبدس ويقول له ناظراً إليه في عينيه، عيني المقاول الذي صار الآن قاسياً بقلق الانتظار: نعم، نعم، دون موريثيو، سأقوم بالعمل. وهكذا، إذ علم ما هو مصيره وعلم أن المرء متاهة بالنسبة لنفسه ذاتها، اتجه إلى الحاجز، وقال للخمّار كاماتشو: كاماتشو، صبّ لي كأساً من الكونياك، صبّ لي كأساً أخرى أشربها، وإن يكن كذب أن الكونياك يمحو الأفكار من الرأس، ويُنسي المرء أنه حيّ، وأنه أسير في هذا العالم، صبّ لي كأساً واترك الزجاجة هناك، لأني أريد أن أرى ما يحدث حينما لا يعلم المرء ما يحدث. ولربما شعر آبلينو، كيد باديّا، وزن الريشة، وصاحب معركة واحدة – وهزيمة، أنّه أحد الرجال من أجل الضغط على زرّ الكرسي الكهربائي، أنه الرجل الذي يُنزل عتلة حجرة الغاز، أنه قابيل.

أنا أردت أن أكون هابيل، أردت أن أكون القتيل، الرجل ذا الرأس الحليق والمعصمين المربوطين إلى الكرسي الكهربائي، لمّا رفعتُ في مدرسة دونيا كارمن صباحاً بصري عن الصحيفة ورأيت صديقي الموكوس يدخل الصف. كان يلبس كنزة جديدة، كنزة لم أرها عليه من قبل قطّ، والتي كانت تناقض بنطاله القصير ملبوسه كل يوم، وحتى كانت تجعله يبدو أكثر بلى وقِدماً، كان الموكوس مسرح الشعر خيراً من كلّ صباح في حياته، وما كان يُلاحظ عليه من معركة الليلة الفائتة سوى خدش في جبينه، واللون البنفسجي الذي كان يجعل عينه اليمنى داكنة، والذي كان يبدو لمّا راقبته من قريب وهو يسلّم دونيا كارمن ملاحظة اعتذار عن تغيّبه الساعتين الأوليتين صباحاً، مدخل

نفق، عداك عن الجفنين المملوءين بالألوان كأنهما قطعة من منظر طبيعي عند حلول الليل، منظر أو ليل فيهما حريق أو شعاع أحمر يشق السماء ويخترق بياض عين الموكوس، أو عِرْق ملطخ بدمٍ بمشقة استطعت أن ألمحه عرضاً، متظاهراً أني مستغرق في صفحة ورقتي، لكن من غير رغبة في الكتابة، وخائف من أن أرفع بصري، فأجد نفسي أمام نظرة صديقي الدامية حتى ولا لمّا رأى لويسيتو سانخوان جراح الموكوس، وأخذ يلكزني على كوعي، ويشير خفية إلى الجريح، رفعت بصري عن الورقة، عن بياض الورقة الشبيه جدّاً بالضوء الذي ربّما يراه داخل رؤوسهم المحكوم عليهم بالإعدام صعقاً على الكرسي الكهربائي ساعة إفراغ الشحنة، الشبيه بالضوء الذي رآه هابيل لمّا تلّقى أخر ضربة من أخيه، الشبيه بضوء القنبلة الذريّة، بضوء الله.

وقد ظلّ ذلك الدوار المضيء يدور في داخلي لمّا انسحب الموكوس من مكتب دونياكارمن، وسار ليجلس على مقعده يلاحقه تهديد من المعلّمة، وأمرٌ بأن يستردّ الوقت الضائع فيشرع فوراً في عمل الحساب وكتابة صفحته. و لم أرفع نظري عن الوريقة تقريباً حتى حان وقت الذهاب إلى المرحاض، وأخذنا نصطف في الفناء، لكنّي لمّا رفعت بصري، نظرت بشكل آلي إلى الموكوس الذي ردّ النظرة إليّ في الحال، وكأن نظرتي تحرك فيه ما لا أدري من جرس صغير سريّ، رد النظرة عوراء مع بسمة ما كنت أعرف بعدُ إن كانت إشعاراً بانتقام، أو إشارة إلى صلح تجلّى لي بكل وضوح من غير إمكانية للخطأ، لمّا التقينا في المنتفعات، وكان الموكوس يمسك بالباب كيما أدخل المرحاض الذي كان يخرج منه، فابتسم لي مرّة أخرى، بينما كنت انظر إلى كنزته تحاشياً لرؤية عينه، كنزة كانت تبدو لي راية فيها شريط أبيض وآخر

حمر يخترقان أرضية زرقاء، وقال لي: «هي جديدة». حينئذ، نعم، نظرت إلى وجهه ورأيت الخدش في جبهته، وعينه الدامية وفيها دمعة حمراء طافية قرب البؤبؤ. «لقد اشترتها لي أمي»،أضاف من غير أن يفقد صفاء بسمته، فأفلتُّ الباب من غير أن أكف عن النظر إليه ومن غير ابتسام، وجعلته ينطبق، مع إحساسي أنه ربما كان يجب عليّ الليلة الفائتة، أن أضربه أكثر ممّا ضربته، مُفكراً في أنّ الغيّه وأنا، ربّما كان واجبنا أن نضرب الموكوس حتى تدمى عيناه كلتاهما، أو حتى نُلحق به مصيبة غير محدّدة وبعيدة المدى.

وإذ كنت أنظر إلى الوسخ الرماديّ على آجرّ المرحاض، وإلى الشقّ المظلم الذي كان يضيع فيه بولي، شعرت أني حرٌّ من الأفكار والمخاوف كلّها التي كانت تحوّم حولي منذ الليل السابق. وفي المصرف كان يذهب قابيل وعائلته كلها من المجرمين والهالكين. وكنتُ أفكّر فقط فيما بقى لي من نسْخ أنسخه، وفي ساعة الانصراف من المدرسة من غير أن تضربني دونياكارمن، حتى أني لم أعرْ لويسيتو سانخوان انتباهاً، ولا لِمَا كان يقوله لي ونحن نصعد الدرج أن الموكوس حكى له أنه خاض معركة في اليوم السابق معي، وأني أنا وآخر يُدعى الغيّه قد مزقنا ثيابه، لكنّ أمّه لمّا رأته صباحاً لم توبّخه وإنما مرت بيدها على جبهته بحرص كبير وقالت له من غير أن تسأله: آنطونيتو، ماذا فعلت بنفسك. ثم غسلت الدم عن عينه وسرّحت شعره ببطء كبير. وبعد أنّ قالت لجارة لها كانت تعرف الكتابة، أن تكتب ملاحظة من أجل المعلّمة، قادته إلى شارع مرْمولِس وإلى محلّ دومينغث للألبسة الجاهزة واشترت الكنزة التي رغب فيها الموكوس.

وكنت أشعر بالراحة، كالراحة التي يشعر بها إجمالاً المجرمون الذين يغسلون ذكرى ضحية بدم ضحية لاحقة، براحة كاستراحة الله لما خلق الكون وانتهى منه، أو كما كونتشي كانكا إذا أنهت رسم الأناجيل على السبّورة. كما قد يكون شعور أخي بعد أن يقتل شخصاً لو حال بينه وبين رؤية فيلم لجينجر روجرز أو هيدي لامار، كما البيتراكو لمّا نزع الأطباء نامياته أو غابة أنفه، أو لويسيتو سانخوان حينما يأكل كلّ أحد الحلويات من محلّ خيخونا. بالراحة التي ربّما كان يريد آبلينو أن يشعر بها مثلي. هو كان يتطلع إلى الاستراحة بفقدان الذاكرة والنسيان. لكن، لبلوغ هذه الحالة الطوباويّة، هذا النوع من القداسة الخبيثة، كان على كيد باديّا أن يقوم بما وعد به دون موريثيو أنه سيقوم به، وإن يكن الثابت أنه ما كان يعرف جيداً كيف يعمله، ولا بأيّ شكل يبدأ هذا العمل المرهق.

وبينما كانت أبخرة الكونياك غير المهضوم من الليلة السابقة تنبعث في معدة باديّا وحلقْه، حامضةً، كان هذا الأخير ينظر إلى اللاعبين الذين كانوا يأتون كل ليلة إلى قاعة ألعاب ماتيو للتدرّب، لكنه كان ينظر هذه المرّة بطريقة أخرى. إذْا أصبح غير مهتمّ بحركة الخصر ولا بضربة القبضة الخطافية، ضربة شبه مستحيلة، وإنّما بالغضب الذي كانوا يضربون به الكيس، أو خصومهم وبالسعار والهيئة التي كانوا يضربون بها. وهكذا قضى باديّا المساء وهو يختار هذا أو ذاك الآخر، ثمّ نحّاهم جميعاً. لكن، لمّا صارت القاعة شاغرة ورأى نفسه أمام حمامات الدوش والمراحيض وهو ينقل الدلو وبقايا التنظيف، صمّم على أن يذهب إلى كوخ النمساوي.

أنا بحاجة يانمساوي، إلى أحد من الناس للقيام بعمل، عمل ليليّ وفي زاروب. من وزن الثقيل، أو خفيف الثقيل.

من أجل السرقة.

لا، لا، لا.

وساد صمت، وكان آبلينو يتأمل رأس فردتي حذائه، إلى أن رفع بتصميم عينيه شبه المائعتين بذكرى الكحول.

كيما يضرب أحدهم. كيما يعمل له «علقة».

والمال.

وافر.

هذه القاعة ليست للتجارة بالعربدة، يابادِيّا، ولا هي نادٍ للإجرام.

حقاً.

هذا مركز رياضي، ودون ماتيو رجل نبيل، وأنت رأيته.

أعرف. وأنا أقول ذلك، أوعسى، إنِ كنت تعرف أحداً، أو تعلم بأحد نظراً لسنّك.

لهذا السببِ ذاته، يابادِيّا. إن كنت في ضائقة، على الأغلب، قد يُقرضك دون ماتيو ويعطيك سلفة.

أنا لا أريد سلفة ياتمساوي. ما أريده أن ألاكم.

في زوارب.

أن ألاكم حقاً، ياتمساوي.

ثم ساد صمت آخر، إلا أن آبلينو ما كان ينظر الآن إلى فردتي حذائه، وإنما إلى عيني النمساوي الذي كان يحرك لسانه داخل فمه مُحدثاً نتوءاً في هذا الجانب منه أو ذاك، وكأن كرةً تتدحرج على سلّم أسنانه الصفر.

ما تبحث عنه تجده في المكان الذي ترتاده أنت في محلات بليارد تيسان.

في البيلارد؟

نعم. واسأل.

هناك، أوعسى، لا يوجد غير العواهر، وناس يلعبون البليارد.

هناك رجل يُدعى ماتشوكا وهو شرطي، وله شارب صغير.

كيف يكون من الشرطة؟

ماتشوكا يعمل قوّاداً لإحدى فتيات البليارد. وهو الوحيد الذي يجب أن تراه إذا كان يوجد ما يكفي من المال، وعلى شرط ألا تقتل المنكوب الذي تنوي أن تضربه.

ولمّا فقد آبلينو باديّا مطامحه داخل عالم الملاكمة وانخرط في فرقة متجوّلة للمصارعة الحرّة تسعى من معرض إلى معرض، ذهب إلى الملهى ليوّدع أخي، وهناك قصّ عليه بكل تفصيل حديثه إلى النمساوي، وأنه صار منذ ذلك المساء يطوف بليارد تيسان حتى أشار إليه الوكيل بذقنه إلى رجل طويل ذي وجنتين مورّدتين وشارب أسود ناعم وكان يبدو من بعيد أن جسمه وتصرفاته خُلقت للزي الرسمي، على الرغم من أنه يلبس لبس الفلاحين. ما كان ماتشوكا يأخذ نقوداً من أية عاهرة في بليارد تيسان كما زعم النمساوي بل كان زبوناً فحسب، إلا أنه زبون مميز ما كان يدفع لقاء الخدمات التي كانت تُقدم له في غرف النظافة، وفي أكثر من مناسبة صفع الفتاة التي رفّهت عنه. «وقد شق شفة كونسويلو، وضرب وجه لابوكاس على الزُليجات وحطّم انفها وتركها شبه دامية، واضعاً وجهها في المرحاض»، همسوا في أذن باديّا لمّا خرج ماتشوكا من البليارد وبعد أن كلّمه آبلينو، «هو تيس، جاء اليوم ليثير أعصابنا فقط، وليسلم علينا وليرى إن كانت فروجنا معطّلة، على قوله، وألقى علينا قذارات لا تخطر ببال سافل، ثم انصرف وعلى وجهه شبه بسمة خنزير». قال لي أخي أن فتيات بليارد تيسان قلن ذلك لآبلينو.

وكان للشرطي رائحة غريبة تشبه رائحة البيوت التي مضى عليها زمن طويل مقفلة، ولا يعرف المرء إن كان ذلك من أنفاس الجدران أو الرطوبة أو القذارة التي تتركها الفئران عند مرورها. وكانت الرائحة تنطلق من فمه وكأن في داخل ماتشوكا قبواً. وبينما كان آبلينو يروزه ويقول له أنهم يزعجونه، وأن شخصاً يضايق باستمرار رئيسه، وأنه هو الشخص المهيّأ لإبعاد الشخص المزعج، كان ماتشوكا ينظر إليه

وفمه منفرج، ولا يُعرف إن كان على وشك أن ينفرج عن قهقهة أو شتيمة. وكانت عيناه بلون مخضّر وتبدوان أنهما تطفوان على ماء أو أنهما ذاتهما كانتا ماء حُرّك فيه راسبه الطيني للتوّ. و لم يترك ماتشوكا آبلينو يُكمل كلامه، فسأله بصوت متهدج قليلاً من يكون رئيسه. وإذ أخذ المرشح ليكون ملاكماً بالتعلّل أن رئيسه لا يريد أن يُعرف اسمه، وليس من المناسب ذكره، وأنه هو المكلّف بالمهمة، قال له ماتشوكا بصوت خفيض وبكثير من الهدوء: هيا، قل لي من هو، إلا إذا اضطررنا إلى الذهاب إلى المراحيض، وهناك سأقصم ركبتيك، ثم أضعك في السجن بسبب الرشوة، أو بما يطلع في رأسي. وكان الصوت يأتي ملآن بطاعون رئتيه، وبرائحة الأقبية العطنة. ولئن شعر آبلينو باديّا بنفسه أسيراً أو واقعاً في حفرة جدّ مظلمة كالحصان الذي كان ينطلق منه ذلك البخار وذلك الصوت، حاول التهرب أيضاً «يبدو لي أننا لن نتّفق» قال بما استطاع من الهدوء وهو يداعب حرف طاولة بليارد ومبدياً في آن واحد إشارة إلى انه سينصرف. كلا نحن متفقان. قال الطاعون، قال الصوت. هذا الاسم أو المراحيض أو السجن. ولا شيء. وقال باديّا لأخي ليلة جاء ليودع الملهى انه لن ينسى أبداً وجه ريّس إحدى نساء المراحيض والخوف الذي كان في عينيها لمّا نظرت إليه والى الشرطي، وكانت صورة للخوف،التي كانت ترتسم في داخله هو، صورة لاستسلامه وجبنه.

وصل ماتشوكا وباديّا إلى الملهى لمّا كانت الراقصات قد أنهين عملّهن، ولمّا كان روبيرا وأخي رامون الذي صار يُسمى الآن كارلوس ديل ريّو، وصارت غرّته مخمدة بعد ضخامتها، عائدين إلى النزل وحيدين متعبين بسبب قلة النوم طيّلة أيام عدّة. وكان الشرطي ماتشوكا يبدو أن

له عجلتين، أو محمل كريات، وانه ينزلق في كل جانب من غير خطا ولا جهد ناظراً إلى كل شيء برصانة دائماً، بذلك الضوء، ضوء المستنقع القذر المُطلّ من عينيه. وما إن وقعت عيناه المستنقعيتان على دون موريثيو ثسبدس حتى خمّن أنه هو رئيس وزن الريشة باديًا، وإن اكتفى بأن يلقي إليه ببسمة بدلاً من أن يقترب منه، كعاشق يرى من بعيد خطيبته، ويكلمها بالنظر عن تواطؤهما وأسرارهما، غير أن دون موريثيو لم يكن يعرف في هذه الحالة ذلك الشخص الذي أشار بذقنه وهو يستند إلى الحاجز، إلى باديًا كيما يذهب ويكلم صاحب الملهى. ومن هناك،من الحاجز كان الشرطي ماتشوكا يراقب شارد الذهن وهو يتذوق الشراب الشفاف الذي صبّه له الخادم آلبارث، آبلينو وهو يُعلم دون موريثيو بشخصه، يراقب علامات الغضب المكبوت مخفيّة بصورة سيئة، على وجه رجل الأعمال، والنظرات التي كان ينظر بها بمؤخر طرفه إلى ماتشوكا وإلى ابتسامة ماتشوكا، وكأن الشرطي كان مثل أبي الهول بشاربه الناعم، وشفتيه الحمراوين اللامعتين بسبب الروم، متسلياً بالنظر إلى حركة الزبن وضوضاء الموسيقى والراقصات، إلى أن ترك دون موريثيو آبلينو وصدى اعتذاره وراءه، واتجه نحوه ومنديله الأبيض المشهور يتمّوج على جبينه.

لقد خلّفت لنا الأعوام موسيقى بطيئة وصرير فيولونشيل في لبّ العظام. ويبدو لي أني أحس في عظامي بأوركسترا الملهى الحزينة تلك، الملهى الذي ذهب إليه أخي ليعمل فناناً، أحسّ بصوت أغانيه وبصرير الخشب على المسرح واصطدام الصفيّحات اللامعة، وبوهج طلقة، ودوران(٧) الجمهور عبثاً بضوضاء متهدّجة من الصياح والجري.

٧- noria ناعورة في الأصل.

كانت تتردّد في عظامي أكثر ممّا تتردّد في ذاكرتي ضوضاء الزمن، وصورة الصيني بونّيا وخفق أجنحة حمائمه الرمادية، والصوت الفرِح الذي كانت تثيره الراقصات الميتات لمّا كن ينهرن نازفات شاحبات فوق المنصّة الشاكية. وكان عزف الترومبيتا منفرداً في حجرته في نُزل ريوس – اسبانيا، وضحكة دونياآنخلينس القديمة، وغليان سوائل المصور روبيرا مضيئة بضوء أحمر الأجسامَ المتخيلة، ومسوخه اليومية، كل ذلك كان ينضم إلى بعضه فيّ، في داخلي وفي ذاكرة عظامي التي ستذوب فيها هذه الأصداء المُتخيلة والمستخرجة من حروف أخي وقصته. مع نبرة أصوات أخرى هزّت في الحقيقة غشاء الطبل في مسمعي لكنها لم تكن ذات توتر أشدّ، ولا صدق أكبر من تلك الضوضاء التي ماتزال اليوم تتردّد في كهوف عظامي. إذاً، فيها تعشّعش كما أقول لكم، مختلطةً ببعضها صوت تاتين العجيني وصريرُ حدائده، وصخب الملهى وأصوات الذعر التي تلت طلقة كوسمه كوسمه والقطْر البطيء الشبيه بتكتكة ساعة، الذي كانت تحدثه أقراص فاطمة كومبادوس الملّونة عند سقوطها من فمها على خشبة المسرح، وضحكات فتيات غرانخاسوارِث، التي يغشيها دخان سجائرهن، ولحن الآلات المتضائل والنشاز إذا قطعت الأوركسترا موسيقاها، وتصادم قطع الطباشير الملّونة في علبها، و«الخربشة» المتّسقة التي كانت تخطّ بها على السبورة كونتشي كانكا رسوم الأناجيل، ورنين الزجاج الذي كان يتصاعد من حلق الشرطي ماتشوكا وهو يكلّم تلك الليلة دون موريثيوثسبدس كيساداده أوليبيرا، المتصبب عرقاً والمتخفف من عدوانيّته أكثر فأكثر. إني أسمع صوت ماتشوكا، لكني لا أمّيز كلماته، وإنما أرى فقط صورته التي ربطتها دائماً منذ أن

سمعتهم أوّل مرّة يتكلمون فيها عن الشرطي، بصورة ابن العمّ باكو الحارس، ابن عمّ أمّي الذي سكن مدّة من الزمن بيتاً على ناصية شارع آنطونيو خيمينث رويث، والذي كان كما قال لي أخي عن ماتشوكا، طويلاً أيضاً وأصلع صلعاً مبكراً وذا شارب صغير وحمرة دموية في وجنتيه.

و لم يستطع آبلينو كيد باديّا ان يسمع هذه الليلة كما لم أسمع أنا، ما كان يتكلّم به صاحب الملهى والشرطيّ عاهرُ بليارد تيسان. وكان آبلينو يرى من الطاولة المنفردة الواقعة في الطريق إلى المراحيض، طاولةِ اخي كارلوس ديل ريّو وروبيرا كيف أنّ ماتشوكا كان يحرك ببطء شفتيه المزهوتين بالكحول، وأنّ دون موريثيو كان ينظر كلما تكلّم كلمة، إلى هذا الجانب أو ذاك بازدراء منتظراً ما لا يعرف من مفاجاة، قائماً بآن واحد بإشارة توكيدية، أو كان يظل مفكراً بينما الآخر كان يشير إلى النادل آلبارث كيما يصب له كأساً أخرى. وودّع ماتشوكا دون موريثيو بتكشيرة، على الرغم من انها كانت بسمة إلاّ أنها كان بإمكانها أن تثير الهياج والخوف، بسمة حافظ عليها الشرطي بينما كان يسير في الملهى على قدميه ذات الدواليب، وتلهّى قبل ان يخرج متبادلاً كلمة مع آلمودينا فرنانِدث، ولوليتا برّويثو، أو إحدى الراقصات اللاتي كن ما يزلن هناك في هذه الساعات ويلبسن بناطيل قصيرة وقمصانهنّ المزدانة بلونِ ورديّ أو البني الفاتح.

لم يعرف آبلينو ما تكلّم به دون موريثيو والشرطيّ، لأنه ما إن انصرف ماتشوكا من الملهى مُشيعاً بآخر تصفيق في الليل، التصفيق الذي تودّع به الفرقة بتصدية متعبة وخائبة الأمل لأنه لم يحدث في

هذه السهرة قتلُ راقصة جديدة تكون استمراراً لموت ليلى وفاطمة كومبادوس، أقول ما إن خرج الشرطيّ من الملهى حتى عبر دون موريثيو المكان مبتسماً لآخر زبن الليل وضاع في المدخل الذي يقود إلى مكتبه والى الحجيرات أيضاً. لم يعرف ذلك آبلينو، لم يعرف حينئذ عمّا كان هذان الرجلان يتكلّمان، لكنّ كيد باديًا، نعم، عرف بعد انقضاء أيّام عدّة وليالٍ خمس، وربّما كانت ستّاً أن المصوّر روبيرا تخلّى عن الذهاب إلى الملهى، وأن غيابه توافق وحزناً أصيب به أخي الذي ظهر هذه الليلة، بعد أن تحدّث إلى الفرقة، ليغنّي وحيداً ومن غير مرافقة الراقصات، وكانت أوّل ليلة لا يأتي فيها روبيرا إلى قاعة الاحتفالات.

وظلّت خشبة المسرح غارقة في الظلمة ماعدا حزمة أشعة تضيء ضمن دائرتها الضوئية أخي، وسُمع همس خطواته على الخشبة، واقترب من الميكروفون قبل أن تبدأ الموسيقى، وبصوت شديد الهدوء، أهدى الأغنية التي سيغنيها إلى صديقه روبيرا: إلى صديقي – قال أخي كارلوس ديل ريّو – إلى خير مصور كان وسيكون في الملهى، هذا الملهى أو أيّما ملهى في البَرَاليلو، المصوّر فيليكس روبيرا، وما إن انتهى صدى صوته من رجّ صمت القاعة حتى بدأت الفرقة بشكل عذب للغاية أولى الكومباسات من أغنية «غدر»، وأخذ أخي كما اخذ تلك الليلة التي كان ما يزال يُسمّى فيها باسم رامون، يهدهد حلم برشلونة، أخذ يقول وصوته ملفوف ومدّثر بمخمل، صوت حار: يا امرأة، إذا شئت أن تكلّمي الله، فسليه إن تخيلّت مرة عن حبك» وكان أخي يغني من غير أن يرفع ذراعيه كما كان يفعل دائماً ومن غير أن يحرك شيئاً آخر غير شفتيه وحلقه ويقف وحيداً وسْط المسرح محاطاً بتلك

العتمة التي كانت تختبئ فيها ألمودينا فرناندث، وإماكولا دا غَلْبان، والخلاسية ده فويّغو وبقية الراقصات - وصولداد روبي أيضاً - اللاتي ظللن من غير عمل على طرف المسرح مختبئات بين الستائر وعيونهن - وعينا صولدادروبي أيضاً - دهشات بالانفعال ذاته الذي كان ينتقل بالعدوى كوباء حلو ومميت، وسْط الجمهور وعمال الملهى، حتى المصور بوربّتا كان متردداً بين أن يتقدم إلى حرف المسرح ليصور أخي، أو يحطم الآلة على الأرض ولا يطأ مرة أخرى قطّ أرض الملهى، الذي صار لمّا كان أخي في منتصف الأغنية فقط، كلّه تصفيقاً. ونسي الجمهور الراقصات ولم تكن عنده رغبة في أن يموت أحد، ولا أن يُطلق أحد شيئاً على أحد، وعلى الرغم من التصفيق تابع صوت أخي غناءه مرتفعاً فوق صفق الأكفّ: البحر مرآة قلبي، لطالما رأيته يبكي خيانة حبّك.

لمّا رأيت تاتين رثّ الثياب وناظراً شزراً إلى كاستيو وكيني، راودتني الرغبة أيضاً في أن أغنّي له شيئاً وإنْ لم يكن لي غرّة ولا صوت جميل ولا أية سترة حريرية. لَم نكن رأيناه منذ ذلك اليوم الذي نزل فيه من العربة الصغيرة وسار باكياً مع خالته ذات المرفق. ولمّا ظهر هذا المساء على الناصية لم يعرف أحد على شكل جيد إن كنا ندعوه إلينا، أو نتظاهر أننا لم نره ونتركه يتابع سيره إلى أن رفع الغيّه يده وحركها على فترات كأنه إنسان آلي، وقال: تاتين، إيْه! فوقف تاتين وحيّانا من بعيد رافعاً ذقنه: إيْه! وإذ رأيته يُقبل من جهة الناصية بدا لي أنه أشد عَرجاً من ذي قبل، وأنه لن يصل إلينا أبداً، على الرغم من أنه كان يسير كسيره دائماً ناتعاً ردفيه وعنقه في كل خطوة. ذلك أني كنت أراه بعيني كيني، وأتصوّر كيف كانت كيني الجالسة قبالتنا، تراه يسير.

إيْه! قال تاتين لمّا وصل، إيه، أوه، آه، هُوم أجبناه جميعاً إلى هذا الحدّ أو ذاك. تعالَ هنا، كان جواب الغيّة الطويل، «نعم»، أجابه تاتين مرّة أخرى، بينما كان يجلس إلى جانبه. ولبثنا جميعاً من غير أن نتذكّر ما كنّا نتكلّم عنه، وكان الصمت يذهب ويجيء من هؤلاء إلى أولئك «كبومْران»[8] مرتدّ، وكنا نحاول جميعاً أن نتنفس من غير ضوضاء وبقليل من الحركة، وبينما كنت أنظر إلى شعر تاتين الأشعث وإلى كنزته العتيقة الخضراء خضرة العشب إذا أخذ بالجفاف، بينما كنت أنظر إلى حدائده المموّهة بالكروم المملوء كلّه بالخدوش وبزوايا مؤكسدة، كان هو، تاتين، ينظر بإمعان شديد وهو يزفر نصف زفرة، إلى كاستيّو وكيني يمسكان بيدي بعضهما من غير أن يجرؤا على أن يفلتاهما، وقد أمسكتْ بهما تلك النظرة التي كانت تنتقل في لحظة من يديهما إلى وجهيهما وتضبط عرضاً بروز كنزة كيني الخضراء خضرة عشب ريّان وغامق اللون، ثمّ تفحص مرّة أخرى بإمعان أصابعهما المتشابكة، وقِطَع سترة الجلد وتفصيلها، وأقواس الأظفار الوردية، إلى أن غمغم كاستيّو بشيء هو خليط من: آه، إيه، وهوم، ونهض واقفاً من غير أن يفلت كيني التي نهضت أيضاً، إلاّ أنها لم تكن بحاجة إلى أن تقول شيئاً، لا آه، ولا إيه، ولا هوم، ولبثت تنظر إلينا جميعاً بعينيها المشعّتين بلون بني بينما ودّعنا كاستيّو بغمغمة جديدة، وسارت عينا تاتين إثرهما، إثر يديهما الملتحمتين ببعضهما، إثر خطواتهما وجمّة كيني الحلوة بلون الثؤباب.

٨- ضرب من سلاح يستعمله سكان أوستراليا الأصليون قذيفة، وهناك نوع منه يرتدّ إلى الرامي.

ولا أدري إن كنت لمّا رأيت تاتين حينئذ أو الآن إذْ أتذكّره بكنزته العتيقة وعينيه اللتين كانت تنعكس فيهما أيضاً صورة عشب مجتثّ، راغباً في أن اغنّي له شيئاً وأقول له شيئاً بصوت عالٍ بينما كنت أراه ينهض عن درجة السُّلم وشرع بعد هوم، وإيه أو آه يسير بخطاه العصيّة على الشفاء في طريقه إلى بيته في آخر شارع آنطونيو خيمينث رويث، ذلك الشارع الذي كان يبدو لي جدّ طويل حينئذ، وتطلّ من واجهاته فيما بعد مخزن المواد الغذائية أسوجةُ الورد وأوراق الزعرور وأغصان زهر العسل وجذوع الجيرانيوم العارية. ولو كنت أنا أخي، لربّما عاد تاتين هذا المساء إلى بيته ترافقه موسيقى حدائده وأغنية كنت أشعر بها في أعماقي وتموت قبل أن تولد. هذا هو الفرق بين فنان وآخر ليس فناناً كحالي أنا. لذلك ذهب أخي إلى برشلونة، ولذلك قام برحلة تزيد على ألف كيلومتر وطلعت له هذه الغرّة الهائجة التي حوّلت مظهره خلال أشهر معدودات. ولذلك غيّر اسمه لأن شارع آنطونيو خيمينث رويث الخالي من موسيقى وراقصات وأسحار دخانية وضحكات ودموع، وإنّما فيه مخزن كويّكورتو للمواد الغذائية الحزين، وسياج الورد في مؤسسة الصم والبكم، وضجيج الشاحنات الحزينة، الحزين – آبيا كويّكورتو وليلاند أبي وعربة بمبولينيكا – صار صغيراً في نظر أخي وفي نظر كيد باديّا نفسه وفي نظر ناس آخرين كثيرين. صار صغيراً عندهم ذلك الشارع الطويل جدّاً، أو هذا ما آمنوا به، لأنهم بمرّ الزمن ومرور الأيام والسنين، كان عليهم أن يدركوا أن الشارع بأسوجة وروده وكآبة شاحناته كان مركز العالم وقلب ذاكرتي الدافئ، ولربما يريدون العودة إليه بأيّ ثمن كما أرغب أنا الآن في العودة إلى هذا الشارع، إلى هذا الزمن الماضي، أنا الواقف

هنا وحيداً وأقصّ عليكم هذه القصّة أثناء الفجر. لكنّ تويجيّات الزهر قد تساقطت وقد فات الوقت، فات الوقت على كل عودة، لأن ذلك الشارع أصبح غير موجود ولا يهمّ أن يوجد شارع يحمل الاسم ذاته ويقع في المكان نفسه الذي كان يقع فيه الشارع الآخر الذي أحدثكم عنه وعشت فيه. ولا يستطيع أحد أن يعود إلى لا شيء، لذلك بقي لي هوسُ الكتابة، والذاكرةُ فحسب، وهوس أن أقصّ عليكم ذكريات ذلك الزمان وما قصّه أخي عليّ وما فهمته من رسائله وكلماته ومن فترات صمته أيضاً.

ما تكلم به الشرطيّ ماتشوكا ودون موريثيوثسبدس عند الحاجز في الملهى لم يكن باديًا من قصّه على أخي، بل على العكس، هو أخي الذي قصه على باديًا. حكى له في ختام تلك الليلة، وهي الليلة الأخيرة التي رأيا بعضهما فيها لمّا كانت ماتت أم آبلينو باديّا، وكان على وشك أن ينهض ويخرج لآخر مرّة من الملهى ويدخل قمرة شاحنة مزوّقة بالألوان ويشرع في سفر طويل عبر قرى ومدن ليقوم بعروض ومعارك زائفة في المصارعة الحرّة. لم يعلم باديا حتى هذه الليلة شيئاً عن حديث ماتشوكا وصاحب الملهى، سوى أنه كان يعلم ما يعلمه الناس جميعاً أن المصور روبيرا امتنع عن المجيء إلى قاعة الاحتفالات، وإن الشرطي ماتشوكا كان سبب هذا الغياب، على الرغم من أنه لم تحدث معركة ولا «علقة» ما، لكنّ أخي لم يشأ أن ينطلق باديّا في سفره إلى الأبد من غير أن يحمل في متاعه تفاصيل ذلك الذنب، يحمل ذلك التبكيت الذي لن يشفى منه أبداً تبعاً لِمَا كان يقوله باديّا ذاته. أنت لا تعلم مقدار ندمي ياكارلوس، يارامون، ياكارلوس، فبالإضافة إلى الودّ الذي كنت أودك به، وما زلت أودّك، أوعسى، هو ذات الود الذي أود به

المصور، وهو ود صادق. هكذا لمّا أتى آبلينو باديًا، كيد باديا صاحب المعركة الوحيدة وهزيمة على كأسه وألقى نظرة أخيرة على الملهى بعد أن حدّث أخي عن الأيام والليالي التي قضاها في ذلك المكان، وعن البييندااس والبّيخِرا وعن المصارعة الحرّة، قال له أخي:

إذاً، أنت لا تعلم حقّاً ما حدث لماتشوكا وروبيرا، آبلينو؟

لا أعلم. لكنني أفترض أنه كان شيئاً كبيراً ولا بدّ، كيما يمتنع المصور روبيرا عن المجيء مرة أخرى إلى هنا، مع ميله إلى صولدادروبي، أوعسى، وما كان عليك إلاّ أن تراه كيف كان ينظر إليها وكأنه يصلّي، وينزّهها هي التي كانت أشبه بآلهة. وأنا كنت أعلم وكنت على ثقة مائة بالمائة أن «علقة» لن تسوّي شيئاً حتى لو قام بها وزن ثقيل، ولو قام بها اثنان أو ثلاثة من الوزن الثقيل لا فرق، فإن روبيرا سيظل يأتي كما كان يأتي، أو برغبة أكبر، وانظر إلى ما أقوله لك.

وقال أخي بعد أن ظلّ للحظة صامتاً ناظراً إلى عيني باديا الصغيرتين المتعبتين أنه موافق، وأنَّ الشرطيّ ماتشوكا لمّا ختم دون موريثيو صاحب الملهى كلماته الأولى وهدأت سورة غضبه، كلّمه موحياً إليه بالثقة ومؤكداً له أنه بإمكانه حلّ المشكلة التي يعانيها. وعلى هذا الشكل انتهى دون موريثيو إلى القول: هناك في الحقيقة شخص ينغّص عليه عيشه، وهناك راقصة يحبس هذا الرجل عليها أنفاسها، بإزعاجها وإزعاجه هو والزبن بهذا الهراء الذي يقوم به المصور، وهو من يجب إبعاده، إبعاد المصور روبيرا لئلا يعود مرّة أخرى إلى الملهى ولا إلى الأماكن التي ترتادها الراقصة صولدادروبي. وقال

أخي لآبلينو أن الشرطي لبث مفتكراً وانثنى شاربه ببسمة وهو يتمطّق متذوقاً الروم والجن، أو ما كان يشربه، وبعد أن تحدّث بصوت خفيض عن الراقصات والعواهر، طلب من دون موريثيو معلومات إضافية حول من هو روبيرا هذا، ومنذ متى صار مصوراً، وأين يسكن، ومن هي زوجته، وأين هذا النزُل، نزل ريوس – إسبانيا، ثم قال ماتشوكا أيضاً، وقد سمعه النادل آلبارث: لا تهتم يا سيد موريثيو، لا تهتم، فهذا العصفور عمّا قليل لن يأتي إلى هنا، وخلال ثلاثة أيام سيطير ولن تراه أنت أبداً ولا الراقصة روبي أيضاً: سيكون شبحاً، وسوف يكون المصوّر أقلّ من شبح.

ربّما خطرت القصّة على بال ماتشوكا، على الأغلب لم يكن أُرسل إلى برشلونة لمّا حدثت، لكنه ربّما كان سمع بها. وربّما تحدّث بها أحد الرفاق أثناء التجوال في عربة الدورية، أو في محارس المفوضية إلى رفيق آخر، أو ربّما قص عليه هو نفسه شيئاً منها. ماتشوكا ما كان يعلم ذلك، لكن، خطرت على باله قصّة لينا التي تركت الملهى بعد الحريق وتلك الكارثة، وانضمّت إلى مصوّر الفنانين وتزوجته. وما كان على الشرطي سوى أن يلجأ إلى الأرشيف الذي هو كرئتيه وكنفسه كانت تفوح منه رائحة قبو وعطن، ويطلب من العجوز صولانا ملفّ تلك الحالة القديمة ويرى أن اسم صاحبة نزل ريوس – إسبانيا وكنيتها: آنخلينس كورتس إسبلا، كانا هما ذاتهما اسم الراقصة وكنيتها تلك التي مرّت في حياة آلبرتوسانتوس كامبري ذي الثلاثين وستة أعوام ومتزوج، وله منزل في الجانب الأعلى من المدينة ومكتب في شارع كورثِكا رقم ٣٦٢، وهو محام وصاحب قاعة للاحتفالات اشتراها وأعاد افتتاحها دون موريثيو ثسبدس.

وجد الشرطي ماتشوكا عمله منجزاً، وعرفه ما إن رأى الصورة، صورة آنخلينس، وقرأ ذلك الملفّ الذي يحكي قصة الراقصة، وهي القصة ذاتها التي اخذ يقصها أخي على آبلينو ليلة وداعه. إنه الزمن الذي كانت تعرف به آنخلينس باسم لينا الراقصة ذات الجسم الرائع والعرق برائحة العنبر – كان لها عرق برائحة العنبر كالرائحة التي تطلقها النمار إذا كانت في الشبق فتنقلب الغابة كلّها ولا تنام، هذا ما كان يقال حينئذ في الملهى –. وقد تأخرت الراقصة ذات العرق العنبري ذات ليلة في الخروج من الحجيرات، ربّما لتنظيف نفسها من ذلك العرق الذي قد يكون ظلّ منه، على الرغم من كل شيء، أثر ضائع في جسمها وفي ثنايا الإبطين وفي طحلب نقرتها الأسود، ظلت بضع قطرات صغيرة لمحها آلبرتوسانتوس وهو يراجع في وحشة الفجر حسابات المحلّ الذي ورثه منذ عهد قريب، لمحها من الطاولة التي كان يشغلها إلى جانب المسرح حتى قبل أن يرى الراقصة ذات الشعر الأسود والجسم المتلألئ تخرج من باب حجرتها وتقترب منه باسمة بسمة دهشة لرؤية صاحب الملهى هناك وانصراف الوكيل آنسلمو. قلت لهَ أني سأبقى لأنظر في الدفاتر، أو ربّما قال للينا شيئاً شبيهاً بذلك، آلبيرتوسانتوس ذو العينين البريئتين بلون أخضر صاف يكاد يكون اصفر، وربّما تنبهت لينا إلى عنقها العاري و إلى ثدييها ذاتهما لمّا رأت آلبيرتوسانتوس يسترق نظرة خاطفة وخائفة تقريباً يحطّ بها على ذلك الجانب من جسمها كيما يرد إليها البسمة فوراً، ويشير بحركة استسلام إلى ذلك الدفتر الكبير المفتوح و إلى كل هذه الأرقام التي كانت تتكوّم على الطاولة.

وإن هذا الذي أقصه عليكم كلّه، كما أشياء أخرى كثيرة قلتها لكم

من قبل، هي تخيّلات واختراعات منّي تبتعد شيئاً يسيراً جدّاً عما حدث في الواقع، إذا علمنا كيف تتالت الأحداث منذ تلك الليلة. فمن الطبيعي أن تكون لينا لبثت ناظرة إلى آلبيرتو سانتوس نصف جادة، نصف باسمة وخاضعة إلى ما لا يُعلم من رغبة أو نداء بعيد، وقرّرت أن تدنو من الحاجز بدلاً من أن تتصرف، وتصبّ كأساً بينما كانت تسأل: أتريد شيئاً، يا سيد دون آلبرتو، فقال لها هذا بصوته الفاتر المعروف عنه: لا، وشكراً – وأرجو ألاّ تناديني بسيّد، إذا كان لا يهمّك أن نتخاطب مباشرة. وتجيب هي: لا، بالطبع، لا –، بينما كان السائل، لنقل إنه عرق اليانسون، يسقط بطيئاً محدثاً موجات عجينيّة في كأسها. أقول لك ذلك احتراماً، ولأن حضرتك صاحب الملهى. «الاحترام سيكون ذاته»، قال غير مطمئنّ آلبيرتوسانتوس، من غير أن يرفع تقريباً نظرته عن الطاولة، ومن غير أن يفهم جيّد جدّاً أيّة أرقام يكتبها، بينما هي كانت تقترب من جديد ببطء ناشرة في الهواء ذلك العنبر، ناشرة عطرَ عرقها، أو أيّا يكن، وجلست جلسة جانبية على حرف الطاولة، واضعة إحدى ساقيها على حافة الأرقام والدفاتر المخططة بالأحمر. هو عمل لا أفهمه بشكل جيدّ جدّاً، أعني عمل الملهى، لم أستطع فهمه، ابتسم آلبيرتو وهو ينظر إلى فوق، جهة عيني لينا ويُرخي قلم الرصاص في آن واحد، على الطاولة. «يقال أنك يا سيد ذكيّ، وما تقوم به ليس فيه تعقيد كبير، هو مسألة جمع وطرح». «شرط ألا ينتزع مني كثيراً من ساعات النوم، وهذا ما آمله»، قال بلهجة اعتذار آلبيرتوسانتوس، وإذ لم ترد لينا على بسمته وظلت تنظر إليه بإمعان شديد رائية من خلاله، من خلال عينيه مالا يُعرف من مناظر غريبة أو أحلام، أضاف: هي حياة مختلفة حياة الليل. ولقد قال

هذه الجملة الأخيرة آلبيرتوسانتوس متخلياً عن الابتسام ناظراً إلى لينا تشرب ببطء من غير أن تُشيح بعينيها عن عينيه، وأحمر شفتيها يتلقى كجرح مفتوح موجة اليانسون الحلوة، إلى أن أزاحت الراقصة الكأس عن شفتها ونقلتها بحذر إلى فم آلبيرتوسانتوس، وقرّب هو شفتيه من بقعة أحمر الشفاه القرمزية التي خلفتها شفتا لينا، وسقته كما يُسقى طفل مريض، كما يُسقى حيوان جريح، وتغرز في آن واحد أصابع يدها الأخرى في شعر آلبيرتو وتتلقى بثديها وياقتها شبه المفتوحة نظرته من غير أن تهتم بانسكاب قطرة من اليانسون من احد جانبي فم الرجل ولا بيد هذا الأخير تصعد مرتعشة ببطء خصر الراقصة وكأنها حيوان زاحف.

كفّ آلبيرتوسانتوس عن النظر إلى تلكما العينين البنيّتين المائعتين شبه السوداوين اللتين كانتا تخترقانه وتخنقانه، فلمس بأنامله بلوزتها وطراز حاملة ثدييها، ورفع شفته عن الكأس فانسكب العرق على ذقنه ودفن وجهه في رائحة غاص فيها غوصاً كاملاً وكأنه يغوص في بئر من المياه الدافئة. وأحس آلبيرتوسانتوس كامبري بطعمي أحمر الشفاه وعرق اليانسون العجينيين مختلطين في لسانه بطعم القرفة، طعم ثديي لينا، أحس بلون القشدة يطلّ من الطراز الأبيض، من الجسم الأبيض، أحس بالعرق العنبري والمالح، وبعيني الراقصة السوداوين بينما كانت ما تزال تحمل بيدها اليمنى الكأس التي كان يضطرب فيها عرق اليانسون وينسكب.

وإذ تعانقا ورقصا من غير إيقاع ولا موسيقى عند طرف المسرح يُفترض أنهما سيسقطان عليه: لينا و آلبيرتوسانتوس بضوضاء شبيهة

بضوضاء ستثيرها بعد سنين ليلي وفاطمة كومبادوس بسقوطهما، وقد حلّ محل صوت الصفيّحات البلورية كأس عرق اليانسون لمّا تحطم في يدها، يد الراقصة. وكانا يزحفان احدهما فوق الآخر وسط صرير خشب المسرح، وقد انسكب الدم وعرق اليانسون، كانا يزحفان كثعبانين يفترسان ويلتهمان حملاً بلقمة واحدة، إلاّ أنهما كانا هناك ثعبانين يلتهمان أو يحاولان التهام بعضهما البعض، آلبيرتوسانتوس يشقّ الثياب ويفكّ الأزرار لاعقاً جسم الراقصة، راغباً في أن يشرب أو ينهل من عين تحت أرضية، وهو يحدس بمنابع ماء وأمواج تثير فيه عطشاً يتاخم حدود الجنون، وهي الآن، نعم، باسمة وبصرها يتردّد بين رسوم السقف وشرائط الزينة الملونة، وتزداد ابتساماً وكأنها ترى في ذلك الأفق المظلم من الستائر والقضبان والحبال صباحاً غير معروف يقترب، وشعاعاً أبيض أعماها وخطفها من الحياة للحظة ولثوانٍ يمكن أن تكون ساعة أو دهراً، ثم تعيدها إلى العالم لمّا رفع آلبيرتوسانتوس جذعه فوقها، وبنظرة حانية من عينيه اللتين لا يُعرف إن كانتا صفراوين، لا يُعرف إن كانتا خضراوين، راح يتأمل يدَ لينا والكأس المحطّمة التي كانت ما تزال تمسك بها. وإذ كان يذوق طعم الدم الممزوج في آن واحد بعذوبة عرق اليانسون وتسقط على خشبة المسرح قطرات من الدم حمر وحامضة، كانت لينا تفتح فاها باسمة بسمة أخيرة.

ربّما هكذا كان، وهكذا وجد آنسلمو الوكيل في اليوم التالي بقايا من الزجاج المحطّم وقطرات من الدم الجاف على المسرح. وهكذا أو بشكل شبيه جدّاً بذلك، كانت علاقة الراقصة السمراء والشاب آلبيرتوسانتوس الذي صار منذ تلك الليلة وبشكل دائم، يسرق

ساعات من نومه ومن حياته كيما يكون إلى جانب لينا. وقد انقضى زمن طويل قبل أن تنتاب الشكوك أحداً في الملهى حول تلك العلاقة. وحده الوكيل آنسلمو حدس بما قد كان حدث، لمّا رأى في اليوم التالي يد الراقصة معصوبة وقد أكدّ له ذلك عينا آلبيرتوسانتوس والتعبير الذي كان يطفو على وجهه لمّا ظهرت الراقصة على المسرح، والطريقة التي كانا يتكلمان بها ومداعبة المحامي بأصابعه عصابة لينا.

وتعلّم آلبيرتوسانتوس ماذا يعني الملهى، تعلّم ماذا يعني أن تكون له حياتان، وأن يكون شخصين في آن واحد. غير أن آلبيرتوسانتوس لم يبدّل اسمه كما يفعل الفنانون، فإذا كان يضحك ويحبّ ويبكي وكأنه شخص آخر، فإنه كان يفعل ذلك دائماً في السرّ، هارباً دائماً مما كان هو ذاته في الواقع، هارباً دائماً من زوجته، مخترعاً أوقات دوام، مخترعاً ناساً ومواعيد ووثائق عليه أن يراجعها وزبناً غير موجودين وصعوبات كان يموّه بها الساعات التي كان يقضيها في الملهى أو في الشقّة التي استأجرها بعد مبانٍ عدة من الملهى، كان يُرى فيها كل ليلة بصحبة دونيا آنخلينس التي كانت حينئذ راقصة فرِحة وسمراء تنضمّ إلى عشيقها خلال الليالي التي كان يحدّدها هذا الأخير في بيت من غير أثاث، تجيء إليه لينا بمكياجها كما كان أثناء العرض، مرتدية معطفاً طويلاً أسود تلبس تحته بيكينيّاً يخلعه عنها وسط المداعبات وثوران الغرام الذي كان له صدى همس بعيد بين تلك الجدران الفارغة وكأن الجدران ذاتها كانت تلهث.

و لم تكن تلك الشقة تحوي، حسبما رأت الشرطة فيما بعد، سوى سرير وكرسيّ ومرآة كان ينعكس فيها ظلّ العاشقين العاري، وقطع من

جسميهما: الكتفان والمرفقان والصدران، أو النظرات الذاهلة، مرآة سيطل منها وجه لينا لتسّوي المكياج، أو يطلّ وجه آلبيرتوسانتوس التعب ليعيد النظر في عقدة ربطة العنق قبل أن يخرج في طريقه إلى البيت. وكان المحامي ذو العينين الصافيتين يركب دراجته النارية سماوّية اللون ويجتاز بها أصباح برشلونة الجليدية مخلّفاً وراءه سلسلة من الوهج الوردي، وأدخنة ذات لون أزرق باهت والأشعة الصفر التي كانت تتوالى في سماء اليوم، الأولى.

كان ينطلق تُسكره الألوان، وطعم لينا في شفتيه داخلاً شوارع فارغة وذات أرصفة سُقيت حديثاً لمّا رأى ذات صباح عند تجاوزه إحدى نواصي الشّوارع، سحابةً سوداء تتصاعد ببطء فوق سقوف بيوت عتيقة، فعكّر مزاجَه فألٌ سيءٌ لمّا لمح في نهاية هذا الشارع الطويل وهجاً أحمر، ورأى ناساً على أرصفة تكون شاغرة في مثل هذه الساعة، ناساً يجرون من نساء عِجال، ورجال بمنامات تظهر من تحت معاطفهم، وكلّهم يسلكون الشارع الذي يسلكه هو باتجاه تلك السحابة السوداء الكثيفة. وأوّل ما رآه آلبيرتوسانتوس كان سيّارة إطفاء حمراء تقف معترضة في وسط الشارع، واندفاعاً مرِحاً من الماء يتجه إلى فوقُ، نحو ألسنة لهب بلون برتقالي كانت تندلع من نوافذ بيته وتلحس واجهة البناء بنهمِ مجنون يمكن أن يذكّره فقط برغبته ذاتها وهو يلتهم جسد لينا. ولم يعرف أحد، حتى ولا آلبيرتوسانتوس نفسه عرف إن كان سقط عن الدراجة بسبب الماء الذي كان يغمر الشارع، أو إن كان هو ألقى بالدراجة النارية أرضاً ثم زلّت قدمه أو شرع يركض أخرس مبهوراً حتى النطاق المشكّل من الإطفائيّين والشرطة، حتى حافة ذلك الزميم الأصم الذي تنطلق به النار من داخل بيته.

وقال أخي لآبلينو باديًا أن الشرطة أوقفت آلبيرتوسانتوس مالك الملهى القديم، الذي كان يبدو مجنوناً يحرّك ذراعيه وساقيه وجسمه كلّه فقط من غير أن ينطق كلمة واحدة، مشيراً إلى البيت باسطاً ذراعيه وباكياً من غير صوت إلى أن شخّصه بعض الجيران وإطفائي أو ربّما شرطيّ قائلاً له وهو ينظر إليه بشكّ أن زوجته وابنه، إن كان يهتمّ بما حدث لهما، قد نُقلا إلى المشفى منذ ساعة أو تزيد، ويبدو أنهما أُخرجا من هنا حيّين، قال له الإطفائيّ أو الشرطيّ لمّا رأيا أن آلبيرتوسانتوس قد خرِس فكان يسأل مشيراً بعينه، وكالأخرس كان آلبيرتوسانتوس.

نعم، كانت امرأة آلبيرتوسانتوس على قيد الحياة، وإنْ كانت لا تريد أن تكون كذلك، بل كانت تريد راحة الموتى وجهلهم، تريد صمت ابنها الذي كان على آلبيرتوسانتوس أن يجده متروكاً في زاوية قاعة فارغة أشبه بطرد مصرور بخرقة وسخة، أشبه بحزمة يغطّيها سخام كان نسيها أحد ما، كعلب الكرتون الموجودة على الأرض، أو كجريدة قديمة كانت على جانب من الرخام في قاعة الموتى تلك التي لبث فيها آلبيرتوسانتوس ما لا يُعرف من زمن وقد نسي عالم الأحياء أيضاً إلى أن أخرجه والد زوجته وطبيب بأذن واحدة فقط، من ذلك المكان بينما كان هو يتمتم بالصوت الذي استردّه وإن صار بشكل مختلف، بصوت جديد وأكثر شباباً، صوت طفل مريض: نعم سأذهب، نعم، سأذهب عن هذا المكان، لا استطيع البقاء زمناً أطول في هذا المكان مع كل هذه الضوضاء والصياح.

قيل حينئذ في الملهى أنّ آلبيرتوسانتوس أكله ضميره ذاته. أكله نهشاً كما تلتهم الضباع فرائسها المُحتضَرة. كان يتسكّع من جانب إلى آخر

راقداً في إحدى ممرات الملهى، ناظراً إلى نفسه في مرآة الشقة الفارغة معانقاً لينا، عاجزاً عن مقاومة نظرة زوجه التي شوّهت ألسنة اللهب شكل وجهها. وخضع لسؤال الشرطة وكذلك لينا التي شوهدت تطوف حول بيت آلبيرتوسانتوس وتدور في تلك الأنحاء، لا لشيء إلاّ لترى أين كان يقطن، ولترى زوجته والطفل، اعترفت لينا بينما كانت الشرطة تحقّق بسبب الحريق المشكوك فيه. وكان الشرطة يذهبون إلى الملهى ليروها ترقص ويقيسون أبعاد جسمها والملذّات التي أبعدت آلبيرتوسانتوس عن عائلته تلك الليلة التي كان يمكن لحضوره أثناءها أن يجنّب الموت ابنه. «بينما كان يجامعك، قد يكون راقصٌ من هؤلاء الذين يهزون أعجازهم، أشعل النار في بيت صاحبك الخرِع. ماذا كان يعمل لك آلبيرتيتو بينما كان بيته يحترق. متى تتوقعين زواجك بالأرمل، يا لينا، قولي ذلك لنا، حبّاً بالاستطلاع. لِمَ لا تُريننا المادة التي كنت تعرضينها على دون آلبيرتو، هيّا، يا عاهرة».

اعُتقلت دونيا آنخلينس التي كان الشرطيّون يسمّونها عاهرة، ويكلمونها من قرب قريب حتى تكاد شفاههم تحتكّ بعنقها، مدّة ثلاثة أيام في السجن الاحتياطي، ولمّا أُخلي سبيلها في اليوم الرابع اجتازت المدينة سيراً على قدميها مفسحة المجال لهواء الشتاء البارد كيما ينظّف جسمها وذهنها. وسارت حتّى الشقّة الفارغة التي لاذت بها ليالي كثيرة بصحبة آلبرتو سانتوس، وما إن فتحت الباب حتى علمت أنّه هنا، وخمّنت حضوره. نادته وهي تتقدّم في الممر وأحسّت بوجود بخار ونفس ينطق باسمها. فنظرت إلى الخلف فلم تر غير الجدران الفارغة والأبواب المواربة. وكفّت عن مناداة آلبرتو مرّة أخرى، وعن سماع أي نفس، وخطت خطوات أخرى. ووقفت

ثمّ أطلت على الحجرة ذات المرآة والسرير، فرأت أول ما رأت دونيا آنخلنس حروفاً «مخربشة» على الجدار: هذا أنا! والكرسي مقلوباً ثم آلبرتو مشنوقاً بملاءة السرير وعضوه وجسمه وبطنه عارية.

كان ذلك، قال أخي لآبلينو باديّا ليلة توديعه، لمّا تركت دونيا آنخلنس الملهى، ولم ترقص بعد ذلك قطّ، ولم تنزل هذه الدرجات مرّة أخرى، ولئن استطاعت نسيان قصّة آلبرتو سانتوس والنار والشرطة، فقد كان بفضل مصوّر كان وصل حديثاً من الدار البيضاء.

روبيرا! – هزّ رأسه مؤكداً آبلينو باديّا بينما كان أخي الذي تخلى عن اسم رامون منذ مدّة بعيدة، ينهي قصّته.

نعم روبيرا، ردّد أخي. وهكذا ستعرف فوراً ماذا حدث له مع الشرطيّ ماتشوكا، ستعرف فوراً ما كلّم به الشرطي دون موريثيو، وكيف ظهر لنا، لروبيرا ولي، ذات ليلة لمّا كنّا على وشك أن نصل النزل، الشرطيّ مطلاً ببطء شديد من بوّابة مظلمة وقطع علينا طريقنا كيما يوقفنا. «أنت لن تذهب مرّة أخرى إلى ملهى السيد موريثيو ثسبدس»، قال ماتشوكا لروبيرا بعد أن أمرني أن أنسحب. «أنت لن تذهب بعد اليوم لتنغص حياة دون موريثيو، ولن تقترب في حياتك العاهرة من الراقصة، من هذه التي تسمّى صولداد روبي، وإذا أردت أن تتذكرها، فاستمنِ ولكن، بعيداً عن الملهى وعن هذا الإزعاج»، وأنا كنت أسمعهما يتهامسان، قال أخي لباديّا، رأيت كيف واجه روبيرا ذلك الرجل الذي يدّعي أنه كان ممثل سلطة وأنه شرطيّ، ثم رأيت كيف كان الرجل يبتسم وكأن ذلك كلّه كان نكتة، وكيف كان روبيرا ينظر إليه بإمعان.

لا أدري – قال الشرطي لروبيرا – إن كنت أستطيع إثارة القضيّة مرّة أخرى، إن كان شاهدٌ من تلك الأوقات سيأتي إليّ ليقصّ عليّ شيئاً عن امرأتك وعن ذلك الحريق، شيئاً تمّ غضّ الطرف عنه حينئذ، شيئاً – تعلم – يتذكّره أحدٌ ما لكثرة سؤالي له. وأنا صبري طويل على الأسئلة. ولا أدري إن كنت أستطيع وضع زوجتك في السجن، أو تظل أشهراً عدّة تذهب إلى المفوضية لتحكي لنا أشياء، وأنا جاهل ولا أعرف التنبؤ بالمستقبل. لكن ما أعرفه حقاً، يا مصوّر، هو أن سيّدتك لينا لن تكفّ عن رؤية وجهي، وسوف آخذها لترى البيت الذي احترق، أو أُحرِق، وإلى الشقة التي شُنق فيها عشيقها كيما تبيّن لي أين كتبت الحروف، وكلّ شيء. وسوف نراجع أنا وزوجتك الألبوم العائلي وصورة الطفل الشائط، ولسوف نرى شخصياً أمّ الطفل التي قيل لي أن ليس لها سوى نصف وجه، كيما «ندردش» حول الأزمنة القديمة.

بصق روبيرا على وجه الشرطي ماتشوكا، وأمسك بعنقه، بينما كان الآخر يدسّ يده في جيب سترته ويحدث ضوضاء معدنيّة أوقفت المصوّر، وتشي أنه أخرج المسدس الذي كان يحمله، ولجمتني أنا أيضاً لّما أخذت أجري نحوهما، قال أخي لباديّا.

سوف أغفر لك يا روبيرا، وانظر كيف صرت. سوف أغفر لك ذلك. – قال الشرطي ماتشوكا للمصوّر مفسحاً المجال للعاب هذه الأخير ينسكب ببطء على جانب من خدّه ومرّ ملامساً شفتيه –، ولن أسعى أيضاً لأكلّم زوجتك. إيه، انظر إليّ كيف صرت، لكنّك ستقوم بمعروف مقابل معروف، فلا تذهب بعد الآن إلى ملهى دون موريثيو،

ولا تر في أيّ مكان الراقصة روبي. وإذا أردت أن تلتقط صوراً فضع الآلة على مؤخرتك واضغط الزرّ، وأشعل الضوء الومضي، يا روبيرا، لأنها ستكون مظلمة جداً.

ذلك كله كان نتيجة خطأي، أليس كذلك يا كارلوس؟ – قال باديّا لأخي وهو ينظر إلى رسوم الخشب والفضلات على الطاولة.

ورفع بصره بعد أن تنهد، مضيفاً:

نتيجة طمعي في الملاكمة. كلّ منّا له طمعه، أو عسى، وهو يشبه عمى يصاب به المرء. سانتوس كان يطمع بعرق دونيا لينا، أو أيّاً يكن منها. ودون موريثيو بروبي، وكذلك المصوّر. كلنا في الهوى سوا. أليس كذلك، ياكارلوس؟ غير أن بعضنا كان أغبى من البعض الآخر. لكني أحبّ المصوّر لا لشيء، إلاّ لأنه صديقك، ولأنك تحبه يا كارلوس، أو عسى، يا رامون.

ونهض كيد باديّا صاحب معركة واحدة – وهزيمة، وعانق أخي عناقاً صامتاً ما عدا صوت احتكاك الثياب وتربيت آبلينو على ظهر أخي. واتّجه باديّا نحو الدرج وخرج من الملهى حاملاً حقيبة نصف فارغة وعصا مكسورة، ومن دون أن يلتفت. و لم يعرف أخي قطّ شيئاً عنه، وهكذا لا أستطيع أن أقصّ عليكم شيئاً آخر عن آبلينو، إلا إذا صحّ ما قاله مصارعون كانوا في معرض في ثامورا أو في تلك الأنحاء، لأخي لمّا ترك برشلونة بعد سنوات من ذلك وصار مغنّياً في المسرح الصيني، أنّ المدعوْ باديّا الذي يزعم أنه كان ملاكماً، عمل معهم في فرقة للمصارعة الحرّة، لكنّ هذا الباديّا المشار إليه كان شبه أبتر، وكان

ذراعه ملوياً إلى الخلف وظلّ مدّة من الزمن يقوم بتقديم برامج كوميدية أثناء العرض. وانتهى الأمر به أن تزوّج عاملة في شباك تذاكر سينما أو انضمّ إليها، ولا يتذكّرون إن كانت من بلاسنثيا أو من تلابيرا، وهناك ظلّ، ويبدو لهم أنّه كان يعمل مرشداً في القاعة.

وقال لي أخي ذات مساء، كان هواء الصيف الحار يحرّك فيه ستائر البيت الشفيفة، ولمّا أصبح لا يغني في الملهى ولا في المسرح الصيني ولا في أيّ مكان وعاد إلى اسمه رامون، أنه على يقين أو شبه يقين أنّ باديّا الأبتر ذاك الذي ذكره مصارعو المعرض، هو باديّا، آبلينو باديّا نفسه الذي تعب من التسكّع في أنحاء الدنيا وصار مقطوع الذراع في معركة أو حادثة، فوجد الدفء لدى عاملة شبّاك التذاكر وفي السينما، وإلى هناك لجأ، فأصبح لا يتذكر الآن رغبته في الملاكمة ولا سنوات جوعه، ما عدا استذكاره الرسائل الوديّة التي كانت تكتبها له أمّه، أو النصائح التي أسدتها إليه في زمن بعيد كيما يصبح سائقاً مرفّهاً أو على الأقل جابياً في حافلات شركة أوليبيروس.

تلك كانت فرضيّات افترضها أخي، ويقينيّات قلب، أمّا الأخبار فقد صار، أقول لكم، لا يملك منها رامون شيئاً، ولا أنا أستطيع أن أقول المزيد إلاّ إذا شئت ذات يوم أن أختلق ما حدث لباديّا في ذراعه، وكيف قادته خطواته في الحياة إلى تلك السينما، سينما ديلارينا في تلابيرا. أما من عرفت عنه أكثر ما عرفت فقد كان صديقي تاتين الذي ظهر وقد تغيّر تغيّراً كاملاً بعد أيام قليلة من ذلك المساء الذي ذهب فيه وحيداً إلى بيته وراودتني الرغبة في أن أغني له. جاء إلينا حسن الملبس وتسريحة شعرٍ، لكن من غير أن يغسل عينيه وبكلّ الوسخ الذي كان

يحمله من قبل في جسمه، متراكماً الآن خلف نظّارته وكأنّ عينيه كانتا بساطاً تركد تحته قاذورة حياته وصدؤها كله. ولقد أعدّ تاتين نفسه ليعيش أبداً مع الشلل، وما لبثنا أن أدركنا: الغيّه وباريّا ودييغو مانويل والموكوس وأنا، أنّه جاء بحدائد جديدة لامعة مطليّة بالكروم، وسيور جلدية بلون الفانيليا ما تزال تعبق بها رائحة المعمل أو محل تقويم الأقدام. وكان الحذاء جديداً أيضاً بمظهره من الصفيح البنّي، وكان عليه عند مستوى الكعبين نجمة حمراء معدنيّة لامعة ذات خمسة رؤوس حطّمت مداراتنا العامّة له، وجعلت الغيّه يركع ليداعبها بأنامله.

ألا ترى النجمة؟

وهنا نجمة أخرى! وأخرى ثالثة، أشار الموكوس وكأنه يحسد تاتين على شلله وركبتيه حيث أحزمة حارس مرمانا كان لها على كل ساق شعار أحمر ذو خمسة رؤوس.

وقال لنا تاتين بفخر وقد تلألأت نظرته للحظة بصفاء، أنها، أي النجوم، صنعت تحديداً له، وكانت هديّة من محل تقويم الأقدام. ورفع كنزته ببطء كبير وأرانا نجمة خامسة من حجم أكبر كانت على شكل إبزيم تتوّج حزامه بحمرة برتقاليّة وكأنما وُضع قلب تاتين عند مستوى سرّته، قلب من لهب ومشتعل كمزارع سكان المستعمرات في الليل وكالإسطبلات تحرق فيها الجياد حبيسة، غير أنّ أحداً لم يكن يهرع بدلاء الماء لنجوم تاتين ولا إلى قلب تاتين. وكان تاتين يحترق بصمت، وما كان دخان حريقه الداخليّ العكر المسموم يني عن الصعود إلى عينيه.

عاد تاتين ليكون مرّة أخرى حارس مرمانا مزوداً الآن بالنجوم، عاد نسراً أحمر ذا طيران خفيض وصاخب شيئاً ما، وأخذ هذا المساء ذاته يعاقب حدائده اللامعة في شارعنا، شارع آنطونيو خيمينيث رويث، وتابع مهمّته في الأيام التالية في ملاعب ٢١ وقبالة مدرسة الصمّ والبكم. لئن لم يهتمّ لاعبو غرانخا سوارث كالعادة بملابس تاتين، إلاّ أنّ أحدهم، وهو الكاني انتبه إلى النجيمات التي كان يحملها حارس مرمانا ناشبةً في هيكله المعدني: انظر إلى الأعرج بالنجوم، قال لأحد رفاقه الذي سجّل علينا هدفاً لتوّه، والذي حتى لم يلتفت لينظر إليه، وإن يكن الحال كذلك من قبل، فقد بدؤوا بالتنكيت عليه والتهامس معه وشدّه من أذنيه وضربه على ظهره كما كانوا يفعلون فيما بينهم، وكان هو، تاتين يجيبهم بعرقلتهم وقذفهم بالحجارة أو الضحك منهم بصخب.

ذلك أن تاتين منذ أن ظهر بحدائده الجديدة ونظرته المتسخة، كان يدنو ما إن يصل ملعب الصم والبكم من فريق سوارث ويظلّ معهم إلى أن يحين دورنا في اللعب، متحدثاً إلى الكاني وسانشث أو إسكوبا. وإلى الفتيات اللاتي كنّ يأتين من كلّ جانب على إثر الفريق. وبينما نكون جالسين إلى جهة كان الأطفال الصغار الذين يأتي بهم لاعبو غرنخا سوارث، يعبثون بنجوم ساقي تاتين، والفتيات يدخنّ أو يجدلن جدائلهنّ ويبدين اهتماما بشلل صديقنا ويقرصنه ويلمسن ساقيه الهزيلتين ويسألنه بكثير من الوقاحة إن كان الشلل مؤلماً، ومنذ متى أصيب به، أو إن كان يتناول أدوية، أو يخلع الحدائد كيما ينام. وكانوا يضحكون جميعاً من غير أن نعرف ممّا يضحكون إلى أن تبدأ المباراة فيودّع تاتين أصدقاءه وينضمّ إلينا كأنه لاعب معار،

فيسدي إلينا معروفاً، حتّى إذا سجل الكاني أو الميغه أو سانشث هدفاً أحياناً، كان تاتين يشاركهم الضحك بسرور يقارب سرور لا عبي غرانخاسوارث أو يزيد. لأنّهم هم لاعبو غرانخا سوارث كانوا يسجلون أهدافاً كثيرة حتى صاروا لا يبالون ولا يتعانقون ولا يفعلون شيئاً، بل كانوا يركضون إلى منتصف الملعب ليبدؤوا اللعب ويروا من سيسجّل هدفاً آخر. وكانت الفتيات يصحن بتاتين كما يصحن بسانشث وكاني وإسكوبا أوآرياس، ويقلن له: هيّا، تاتين، ارمِ، ارمِ نفسك، وهن يضحكن دائماً ويتهامسن فيما بينهن دائماً حينما يلقي تاتين بنفسه أخيراً ويثير تلك الضوضاء المعدنيّة التي كانت ذات الضوضاء التي كانت تثيرها على بعدٍ يزيد على ألف كيلومتر من ملعب الصمّ والبكم، الراقصات عند موتهن على مسرح ملهى دون موريثيو ثسبدس، ضوضاء من صفيّحات بلّورية ونجوم، ولحم وعظام، وزجاج وحجارة وقطع (فلان) مسحوقة.

وكانت فتيات غرانخا سوارث يسقين تاتين ماء في نهاية المباراة، وكانت الصداقة التي عقدها معهن جدّ دقيقة حتى كنّ إذا رأيننا إلى جانبه، يسمحن لنا بالشرب من أباريقهن أيضاً، بينما يأخذ صديقنا القديم بالتدخين معهن. أخذ تاتين يدخّن أيضاً مثل ببيتو الذي مرّت عليه أعوامٌ وهو يجرّ حوله سحابة من البيسونته، والمنثي، والغويا، وثلتا، والتشسترفيلد، وما لا أدري من علامات تجارية أخرى، يدخّن مثل كاستيّو وكيني، وكلّهم غارقون في سحابة دخان موبوءة وكلّهم يعيدون عدّ النقود ويرحلون إلى أكشاك بعيدة حيث أصحاب الأكشاك لا يعرفون آباءهم،ويطهّرون أنفاسهم بالكاراميل بالنعناع، أو كما كان يفعل باريا الذي كان يأكل أعشاباً تنبت على ضفاف

الشوارع لاصقةً بالجدران، وتبول عليها القطط لئلا تشم أمه رائحة التبغ في نفسه فتشرع في نحيب وصياح كانا يحدّثان باريا عن أبيه وعن ألمانيا، أبيه الذي يتخلّى عن حياته هناك في فرانكفورت وميونخ وويلهمشافن، أو في مكان آخر من هذه الأمكنة، يتخلّى عن حياته في الثلج وفي المصانع كيما يكافئه هو على هذا الشكل. وإذا لم يأكل باريا ولم يدرس، وإذا وصل متأخراً أو جريحاً كانت أمّه تثير دائماً قصّة ألمانيا والبرد والمصنع، وطريقة الكلام، لأنّ أباه لا يفهم شيئاً مما يقوله الألمان، ولأن المسكين كان مثل الأطرش والأخرس في ألمانيا إضافة إلى البرد والمعمل.

لكنّ باريا كان يدخن على الرغم من ذلك كلّه حتى يصاب بالدوار تقريباً، وكذلك الغيّه أيضاً كان يدخن وإن كان يسعل، وديغو والنونو، كلّهم ماعدا الموكوس وأنا فقد ظللنا على هامش عشيرة النيكوتين وإن كنّا نكاد نتجرّع في نهاية الأمر من الدخان ما كان يتجرّعه باريا، لأن الدخان تحت غطاء سقف سيارة الآبيا كان نوعاً من قطن كثيف كنا نختنق وسْطه كلّ مساء، ونحن جميعاً جلوس حول ببيتو. «ذلك أنني أعاني مرضاً في القصبات». كان ببيتو يقول بفخر وهو يسعل:

وأنا –. كان باريا يسعل أيضاً.

فدنا ببيتو وقرّب أذنه من صدر المدخّن الجديد وهو يأمره:

اسعل ! – وكان ببيتو يجيب بالنفي بعد أن ينصت بانتباه –. ليس السعال ذاته. سعالي يضجّ في داخلي على شكل شلال، إنها القصبات. أنت لا. ما تسمعه هو سعال ولا شيء آخر.

ثم نأخذ بالاستماع كلنا إلى هذا الصدر أو ذاك في سواد الشاحنة آبيا التي أصبحت لا تعبق بها رائحة الشعريّة والحمّص، ولا شيء سوى الدخان. وكانت الرائحة ذاتها تعبق بنا نحن، تعبق بشعرنا وثيابنا وجلدنا. و«يخفف من السوء أني لا ألبس كنزتي الجديدة في الشارع»، كان يقول لي الموكوس بتواطؤ لمّا كنّا ننزل من الشاحنة. قالت لي أمي ألا ألبسها إلاّ في المدرسة أو إذا ذهبت إلى السينما إذا أخذتني إليها. «نعم، نعم هذا أقلّ سوءاً»، كنت أقول وأنا انظر شزْراً إلى كنزته العتيقة، إلى مكان الرتق الذي كان أشبه بندَبة جرح شفي شفاءً سيئاً،وهو موجود حيث قمت أنا، قابيلَ الصوف، بتمزيق ثوبه. ندبة ذات حروف مغضّنة وجلد ذاوٍ كالندبة التي كانت آخذة بالتشكل في داخلي منذ تلك الليلة التي ضربناه فيها أنا والغيه في شارع لانوثا، ندبة متبدّلة تختفي أحياناً كيما توتّر بعد ذلك جلد روحي بكلّ قسوتها، كما حدث لي في ذاك المساء لمّا نزلت من سيّارة الآبيا ورأيت كنزته الممزّقة، كنزته سيّئة الخياط، التي كانت تعبق بها رائحة البؤس، ورائحة دواء قديم وفحم مبلول، إضافة إلى مخاط الموكوس المريض بالقصبات حقاً والبردان دائماً.نعم، كان حلقه و قصباته، أو أيّاً تكن، تصرّ ولها دويّ كهف. وكان الموكوس يبدو وأنّ في داخله متاهة من أعجاز الشجر بدلاً من الغابة، متاهة من المناجم وسراديب تجري فيها عربات صغيرة ذات عجلات مكسورة وتصرّ دائماً، لكن ليس كقصبات بيبتو، بيبتو سيّد الضباب الذي كان يعلّم الغيّه وتاتين وهما على وشك أن ينزلا من شاحنة كويّكورتو كيف يصنعان حلقات من الدخان.

«تاتين عُملت له (غايّولا)»، وكان بيبّتو أوّل من حكى لي ذلك،

وكانت أوّل مرة أرى في عينَي ببيتو هذا المساء الماطر، شيئاً من القلق ولمحة من عدم الأمان. عملت (غايولا) لتاتين، قال لي ما إن رأى وجهي يطلّ من تحت غطاء سقف الآبيّا الذي كان مبللاً ويطلق رائحة غريبة.

في ساقيه؟ أهم الأطبّاء؟ – سألت بينما كنت أشرئب باتجاه الداخل وألمح وسط العتمة والضباب شكل باريّا إلى جانب شكل ببيتو.

كلا. هي غايولا. في قضيبه وهي استمناء. عَمِلت ذلك لاباليريا من غرانخا سوارث يوم الأحد ليلاً.

كدت أقتل نفسي لمّا دخلت الشاحنة وسقطت كما يسقط تاتين على الأرض وكالراقصات على خشب مسرح الملهى، لكن، من غير ضوضاء بلّور ولا حدائد سوى قرقعة عظامي وصرير الشاحنة الصغيرة.

احذر! – قال ببيتو من القاع –. يبدو أنّها حُمّلت بالزيت.

بل هو شحم خنزير –. وضّح باريّا.

شحم خنزير –. ردّد ببيتو بينما كنت أتزحلق مرة أخرى لمّا حاولت النهوض.

شحم الخنزير زلق أكثر من الزيت –. حكم باريّا قبل سقوطي الثاني.

ولمّا تجاوزت المنطقة الملوثة بالزيت أو شحم الخنزير وأنا أحبو،

وتحقّق ببيتو من أنّني على أرض صلبة، قال لي أنّ تاتين جاء هذا المساء وليس عنده رغبة في لعب الكرة، ثمّ جلس إلى جانبه، إلى جانب ببيتو، و لم يكفّ عن النظر إلى هذا أو ذاك الجانب من الشارع شاملاً كلّ شيء بنظرته، وشبه ضاحك كلّ الوقت، بينما كان دييغومانويل والغيّه يركلان الكرة باتجاه النونو. أوّلاً، سأل ببيتو همساً إن كان سمع بلاباليريا من غرانخاسوارث، وقبل أن يجيبه ببيتو، قال هو له! كلا، أنت لا تعرفها، فإذا كنت لا تذهب إلى ملاعب الصمّ والبكم لا يمكن لك أن تعرفها. لها فم وشفتان كالمحجم. ورفع صوته وهو ينظر باتجاه الدرج الصغير وشارع دييغوبرغارا، ويكاد يصيح صياحاً بهم ثلاثتهم الذين كانوا يلعبون بالكرة إن يعرفوا لا باليريا من غرانخا سوارث، تلك السمراء ذات الشعر الطويل جدّاً والقطيفة الحمراء ويرافقها أخوها الطفل الذي كان يحفر دائماً حفراً عند طرف الملعب. و لم يهتم بما إن كانوا يعرفون من هي باليريا، ولا إن كانوا يخلطون بينها وبين لاناتي، ولا بيكراس أو لابنيتا، فقال لببيتو ولهم جميعاً أنه سيقصّ عليهم، إذاً، فوراً ما فعلته به بالريا يوم الأحد عند بركة الصمّ والبكم.

وانتظر تاتين إلى أن يجيء كاستيّو كيما يقصّ التفاصيل، هذا ما قاله لي ببيتو من غير أن يكفّ عن التدخين في آبيا كويّكورتو بينما كان باريّا إلى جانبه يعانق كيس الخبز صامتاً ملفوفاً بالدخان ورائحة شحم الخنزير، أو أيّا يكن. انتظر تاتين ذو العينين الوحشيّتين إلى أن يكفّ كاستيّو عن القيام بحركات الخفّة بالكرة، وإلى أن يجلس إلى جانب ببيتو ويظلّوا جميعاً صامتين ليقصّ عليهم أمر الغايولا، حتى أنّه انتظر إلى أن يكون ببيتو أوّل من يسأل كاستيّو إن كان يعرف لاباليريا في ملعب الصمّ والبكم، وانتظر إلى أن يفكّر كاستيّو ويقول

لنفسه: لاباليريا، أهي ذات الشعر الطويل والقطيفة؟ هي هذه، قال تاتين. البنت ذات الطفل ذي الحفر، أوضح كاستيّو. وانفتحت بسمة تاتين،نعم، لاباليريا التي لبثت معها في ملعب الصمّ والبكم يوم الأحد. ظللنا نحن: الكاني وسانشث وأنا مع باليريا. وهي كانت تلمس كلّ الوقت نجوم ساقيه لترى إن كانت تخزها، أو إن كان بالإمكان نزعها عن حدائده، سائلة سانشث كم تساوي كلّ نجمة منها وأين تباع، أو إن كان يرغب في الحصول على إحداها، فقال لها: ولأيّ شيء يريد نجمة إذا لم تكن له حدائد في ساقيه. وكانت هي لاباليريا تلمس فخذي فوق الركبتين وتسألني إن كانت الحدائد تصيبني بالبرد، وأطفأ سانشث والكاني لفافتيهما على حجر وقالا أنهما ذاهبان إلى لاغرانخا، وفيما إن كانت هي ستبقى، فلم تجبهما لا بنعم ولا بلا، غير أنها مالت برأسها إلى جانبٍ ورفعت كتفيها، وانصرف سانشث والكاني وهما يضحكان وسْط الظلام، والكاني يقذف بالكرة. وكانت تسمع أصواتهما من الجانب الآخر للملعب حتّى ظننت أنهما لم يذهبا، وأنهما ينظران إلينا من الخرب، بينما الزجاج المكسور يتلألأ بضوء القمر وكأن أحداً ما يجري في الخربة. حكى تاتين أنهما، هو وباليريا، شرعا يسيران في الدرب الموجود بين الخرب والأدغال، وجلسا يدخنان على حرف البركة وضوء اللفافة يضيء باللون البرتقالي بريق القمر على وجه باليريا، وضوضاء سلْسهَ، ضوضاء ضفادع تنزلق في ماء البركة الأسود، وفي البلاليع التي شكّلتها على سطحها جذوع الأشجار وقطع الأثاث المنزوعة الأحشاء، ودعائم الخشب، ثم نظرت إليه باليريا باسمة والظلال ترتسم على وجهها قائلة له إن كان يعطيها النجمة، نجمة إبزيم الحزام، النجمة الكبيرة. وسألها تاتين إن كانت

تعجبها، وقالت هي أنْ نعم هي معجبة بها، ولو أعطاها لها فسوف تعمل له (غايولا)، هذا ما قالته. ونظر تاتين إلى الأرض وإلى القمر وإلى وجه باليريا وقال من غير كلام تقريباً: طيّب! موافق؟ قالت باليريا. طيّب! تمتم تاتين مرّة أخرى الذي ظنّ لما صارت يد باليريا على بطنه أنها ستأخذ النجمة، لكنّ باليريا لم تأخذ منه شيئاً، سوى أنّها فكّت أزرار البنطال وشدّته إلى تحت حتّى كان تاتين على وشك أن يرفعه وكأنه كان عند الطبيب بعد أن يكون فحص كفليه وعموده الفقري. لكنّ باليريا ما كانت تريد أن تفحص فيه شيئاً، وإنما وضعت يدها الباردة على بطنه العاري باسمةً، ثم أخذت تنزلها ببطء شديدِ محرّكة أصابعها متلمّسة تاتين الذي أخذ نفسه ينقطع وضوء القمر يدخل عينيه المسمومتين، ويد لاباليريا تتحرك ببطء يقلّ أكثر فأكثر من غير أن تكف عن الابتسام، أيلذّ لك؟ وتاتين لا يجيب ناظراً إلى يدها، ناظراً إلى أصابعها، ناظراً إلى ذراعها وكنزتها وثدييها المرتعشين، أيلذّ لك؟ وتاتين يسحق كنزة لاباليريا وثدييها، وهي تتجنّب قبلته، تتجنّب فمه شبه الباسم، وتزداد حركة يدها سرعة، وتسأله مرّة أخرى من غير أن تضحك، أيلذ لك، ياخنزير؟ وأخذت حدائد تاتين ترتعش ويد باليريا تقف وتتشبث به راكعة أمامه، واضعة قضيبه في فمها وتمصّه من غير أن تكف عن النظر إلى وجه تاتين، وعيني تاتين الذي اجتاحته تقلّصات، وكهرباء، وكان فيه كراسيّ كهربائية مصغرة كانت تصعد عبر إربيّتيه وتنحدر من صلبيه، ثم كانت تضيع في فم باليريا وفي شفتيها الغامقتين، باليريا التي كانت تبدو أنّها تتكلّم من غير قدرة على الكلام، واللعاب على لسانها وكأن القمر قد ذاب فجأة، ولطّخت قطراته البيض وجه باليريا وعينيها وشفتيها منسكبة على بطن تاتين

قافزة من ساقه إلى فراغ البركة، قطرات تسقط كالنجوم على الماء الأسود، وهي شهب الليل تقطر من خلال الأعمدة الخشبية والأثاث نصف الغارق في الماء الذي كان يرتعش ويتموّج في عمق البركة.

كان المطر يطرق سقف الآبيا الكتاني، وصارت الشاحنة كلّها رطوبة، يضاف إليها تلك الرائحة النتنة وشحم الخنزير، أو أياً يكن لاصقاً بيديّ ذاتهما وبثوبي، بملمسه الدبق. كان بيتو يتكلّم وباريا ينظر مفكراً في غطاء السيارة، معانقاً كيس الخبز. ولبثوا جميعاً صامتين هذا المساء لّما قصّ تاتين ما فعلته لاباليريا عند حرف البركة، وكل منا يهرب من نظرة عيني تاتين المائعتين، ومما بين ساقيه، كلّنا صامت إلى أن حذّر بيتو تاتين من أن ما عملته باليريا بفمها خطر جداً لأنه إذا نُفخ في المرء في ذلك المكان يسبب له جلطة في الدماغ ويموت لفوره، وقال تاتين باسماً نصف بسمة أنه سيصنع ذلك مرّة أخرى ولو اضطرّ إلى أن يعطي بالريا بقية النجوم كلها، ولو اضطر إلى إعطائها حدائده كاملة ويضطرّ بعد ذلك إلى أن يزحف في كلِّ مكان. أليس صحيحاً؟ سأل تاتين كاستيّو الذي لم يعرف لفوره ماذا يقول، ولم يكن واثقاً مما إن كان تاتين يكلّمه. أليس صحيحاً أن ذلك لذيذ جدّاً؟ كيني تعمل لك ذلك، تعمل لك (غايولا) على الأقل، أليس كذلك، كاستيّو؟ هذا ما يعملنه كلّهن عند محل الكهربائي، ألا تفعل لك شيئاً كيني؟ ألا تفتش فيما تحت ثيابها، كاستيّو؟

أصبحت بثور كاستيّو أشد بياضاً، واحمراراً عند القاعدة كأنها براكين ستشرع في قذف الحجارة والمهل. فنهض عن درجة السلّم وهو ينفض بنطاله الذي لم يكن ملوثاً.

ماذا فعلت بك، ياكاستيّو؟

سوف تضع لسانك في المؤخرة، وكذلك النجوم أيضاً.

نعم. ماذا تعمل بك كيني في محل الكهربائي؟

أنت تفيد من كونك أعرج.

لقد حكيت قصّة باليريا فتكلّم أنت الآن.

دار كاستيّو على عقبيه وأخذ يسير نحو ناصية شارع دييغو برغارا، وما يزال ينفض نفسه.

أعرج وديّوث.

وقال لي ببيتو وسط المطر والدخان والطاعون أنهم، أي النونو، ودييغومانويل، والغيّه وهو، ما كانوا يعرفون من كان يكلّم تاتين، إن كان يكلّمهم هم، أو يكلّم كاستيّو أو يكلم نفسه.

نعم، كيني لا بدّ لها من أن تعمل ذلك بفمها. – صمت تاتين وهو يرى كاستيّو يبتعد، وما كان بإمكانه أن يسمعه وهو يتكلم بصوت يزداد خفوتاً. – بفمها ومن غير أن تتوقّف عن النظر إليك.

نظر إليهم تاتين ببسمته الملتوية. كان ذلك بالضبط لمّا بدأت تمطر وأخذت تطلع من الشارع رائحة أرض جافّة. وبينما كان الآخرون يجمعون قمصانهم والكرة ويستعدّون ليصعدوا شاحنة كويّكورتو، ظل تاتين جالساً هناك ينظر إليهم باسماً كاشفاً عن أسنانه، وقطرات

من الماء تسقط ببطء على زجاج نظّارته. ولمّا سأله بيتو إن كان ينوي الصعود، أجاب بالنفي محرّكاً رأسه. نهض تاتين بنترة عنيفة كاد ينخلع منها ردفاه، ورآه بيتو الذي صار على متن باب الشاحنة الخلفيّ، يبتعد سالكاً شارع مرمولس أو شارع لابيّخرا، وشعره يتلألأ كحقل ممطور.

وما إن استقرّوا في الشاحنة حتى ظهر باريا الذي أطلّ فقط ليرى من في الداخل، لكن، لمّا أعلمه بيتو بقصّة (غايولا) تاتين، دخل متزحلقاً تقريباً مع كيس الخبز، وجلس هناك إلى أن ولّى دييغومانويل والغيّه والنونو، من غير أن يهتم بأبيه ولا بألمانيا ولا بالقسم الذي سيقسمه لأمّه متى جاء البيت مستمعاً مرّة أخرى إلى تفاصيل لقاء تاتين وباليريا، مستعيداً بصمت حكاية بيتو، متنصّتا إلى كلام هذا عن المخاطر التي يتعرّض لها من يُنفخ فيه في الفوهة التي يخرج منها البول. ولبثت صامتاً مثل باريّا، مفكراً أني سأسعى ذات يوم وربّما عاجلاً جدّاً، إلى أن تُعمل لي (غايولا)، وينزل بنطالي أثناء الليل كما فعلوا بتاتين، كما قد يسعى إلى ذلك الموكوس وباريا والغيّه، كلّ من جانبه، وكلّ واحد منّا في وحشة ليل مختلف كما يموت الناس في وحدة دائماً، ولا يهمّ أن يموت إلى جانبهم صديق أو جار، أو أن تموت مدينة كاملة مرّة واحدة بقنبلة ذرّية، ويأخذ الموت كلّ امرئ في طريق مختلف وغامض، يأخذ كلاً منهم في رواق لا نهاية له وفارغ.

وهكذا ربّما وجب علينا جميعاً أن نذهب كيما تُعمل لنا (غايولا) وسط أية خِربة أو على حرف بركة، كما يسير السجناء الذين سيُجلسونهم على الكرسي الكهربائي وحيدين إلاّ من حارس يضع

لهم السيور، وخوريّ لا يصنع شيئاً سوى زيادة الأمور سوءاً متكلّماً كلّ الوقت عن الموت والأموات. وهكذا ربما وجب عليّ أن أذهب ذات ليلة مع باليريا، أو مع أخرى مثل باليريا تسير إلى جانبي، وأكون مستعداً لتمصّ فيّ ما تريد أن تمصّ،وأن يُنفخ فيّ حيث يجب ألاّ ينفخ حتّى لو دخلني هواء ومتّ، كما كان يزعم ببيتو أن أناساً كثيرين يموتون بسكتة دماغيّة وشعاع أبيض يدخل الرأس ولا ينطفئ أبداً وأنّ هذا هو الموت: هو شعاع يجعل عينيك ورأسك في بياض إلى الأبد.

كان لويسيتو سانخوان يكتب صفحة ورقته وقد دلع نصف لسانه، وعيناه شبه مطبقتين من النعاس، وسلب عقله السكّين ذو المقبض الأحمر في محلّ خردوات ملدونادو، أو ربّما حلويات خيخونا التي سيختارها هذا الأحد في واجهة المحل بعيداً عن (الغايولا) وكلّ أرض خلاء. أمّا كونتشي كانكا فلن تجعل أحداً يستمني ولن تشرع أيضاً في مصّ شيء، وإنما هي كانت ترسم الأناجيل، ترسم جحيماً ملوناً تراود المرء الرغبة في أن يتجول فيه وسط صخوره وأنهاره ذات المهل الأحمر، وهو جدّ مختلف عن الجحيم الحقيقي الذي كان يظهر في إنجيل الأب دييغومانويل والذي يتلوّى فيه الناس على الأرض تأكلهم وسط بياض الصفائح أو سوادها وحوش تملؤها حراشف، وحيث يجب على المرء أن يعيش الأبدية كلّها وصدره يخترقه سيف، ويجاوره امرؤ آخر من غير رأس وأطفال جُعلت سيقانهم عجلات.

حتّى بيتّراكو ذاته ما كان يبدو منشغلاً بأمر (الغايولا) مهما تجر له عمليات لاستئصال الناميات. بل كان تفكيره ينحصر في الذهاب راكضاً إلى الآلمي، ويعمل غايولا للآلات الطابعة محرّكاً الحامل المتحرك

إلى فوق وإلى تحت وكذلك مفاتيح الآلة الطابعة. ولا يبدو على أحد أنّه يعلم شيئاً، وكلّ يسعى إلى غايته، بعضهم إلى الآلمي، وبعضهم الآخر يرسم الأناجيل، وآخرون كالغيّه والنونو، يتعلّمون ركل الكرة ركلة التفافية، ماعدا باريّا الذي كان يبدو أنه يرى نفسه جالساً على حرف البركة ومعه باليريا أو صديقة لها راكعة أمامه. لكن، إذا لم يكن باريا يقول شيئاً سوى الحديث عن ألمانيا، توصّلت إلى الاعتقاد أن ما حكاه تاتين كان كذباً على الأغلب، كان كذبة فاضحة لإثارة كاستيو وتسميم دمه.

لكنّ ذلك لم يكن كذباً في شيء، لأننا ذهبنا في الأسبوع التالي إلى ملعب الصمّ والبكم. كانت باليريا هناك ونجمة تاتين معلقة على صدرها، كانت تضحك كلّ الوقت وتصيح إذا سُجّل هدف على تاتين، أو ضربته الكرة على وجهه، أو جاءت وسط صدره. كانت تصفّر وتصفّق، وتكلّم صديقاتها بصوت خفيض، وكانت إذا نظر إليها تاتين تلوي رأسها وترسم بإصبعها بكثير من البطء شكل النجمة بلون النار. وما إن تنتهي المباراة حتّى تدنو منّا لاباليريا وهي تجتاز الملعب ومعها إبريق ماء والطفل الصغير الذي كان يحفر حفراً دائماً ويسير متعثراً وراءها. وشربت هي بعد أن شرب تاتين، وإذ كنت إلى جانبها ناظراً إلى فمها وإلى شفتيها غامقتي اللون، اللتين كادت تنسكب منهما قطرة ماء، قرّبت منّي الإبريق وقالت: اشرب إن كنت تريد الشرب. ولمّا كنت على وشك أن أشرب من حيث وضعت شفتيها، بدا لي أنّي أمصّ في آخر الأمر، مابين ساقي تاتين، لكنّي رفعت الإبريق وشربت، شربت وأنا أنظر شزراً إلى باليريا تلتصق بجسم تاتين وتُلصق شفتيها بشفتيه وتمصّ كما كنت أمصّ الإبريق. وبينما

كانت تبتعد عن تاتين وتضحك بصوتها الأجشّ، كنت أنا ما أزال أشرب مختنقاً بما لا أدري إن كان بالماء أو بلعاب باليريا، أو بلعاب تاتين، مختنقاً ومفكراً أنّ الناس جميعاً يمصّون أفواه الناس، وما بين سيقانهم كلّهم، يمصّونها عن طريق الآنية، وعنق القناني التي تنتقل من فم إلى فم، يمصّون دائماً أشياء سبق أن مصّها آخرون، يرتشفون من الأزهار ذاتها دائماً، كما كان يقول تاتين أن هذا ما كان يحكيه لهم الخوارنة كلّما شرعوا في دراسة التكاثر، فكانوا يكلّمونهم عن النحل والأزهار والأوبئة، وحبّ الطلع الذي تنقله الحشرات من جانب إلى آخر بدلاً من أن يكلّموهم عن الجماع.

وأنا كنت أنظر كلّ ساعة إلى أفواه. أمّا خير مكان كنت أستطيع أن أنظر إليها بإمعان، فقد كان الصور التي أرسلها أخي كارلوس ديل ريّو من برشلونة. وما كنت أنظر فقط إلى شحوب الأجسام ولا إلى نعومة أثداء الراقصات، التي كان لها نعومة قطع حلوى مندرين، إنّما كنت أتفحّص الشفاه أيضاً. فتنبّهت إلى أن الشفاه مختلفة جدّاً، هناك شفاه قشدية الشكل يطيب للمرء أن يمرّ بأصابعه وشفتيه ولسانه عليها، وشفاه قرمزيّة غامقة تبدو في الصور سوداً، ولا يعلم إن كانت ملطّخة بالدم أو أنها كانت مدخل نفق، وشفاه شاحبة لا تبدو شفاهاً، شفاه محنيّة كالعقبان التي تطير مهدّدة في سماء الوجه، وشفاه غليظة كأنّها حيوان راقد في الشمس، وشفاه جدّ مستقيمة كالأفق وكأرصفة الموانئ، وشفاه برّاقة كضوء الملاهي منتصف الليل. وكنت أتصوّر كل ساعة ما قد تكون مصّته تلك الشفاه في حيواتها، ما مصّت في حياتها من سوائل، ما مصّته من لعاب شفاه أخرى، ما مصّته من بصاق الرجال الأبيض، الذي قد يكون سكب عليها مئات وآلافاً وملايين من أطفال

بشكل مصغر للغاية، أطفال مجهريين كانت سقطت على تلك الشفاه التي جعلت بصري يتمرّغ عليها، ناظراً أيضاً إلى الصور الطامسة التي كان يرسلها أخي في ذلك الحين، والتي لم تكن صوراً يعتقد المرء أنه سيشمّ فيها بين لحظة وأخرى جسد الراقصات، ويحسّ بنفسهنّ يغشّي هذه الغلالة الزجاجيّة التي يبدو أنها تغطّي ورق التصوير. وكنت أنظر أكثر ما أنظر إلى شفاه الراقصات في الصور العتيقة، لأنّ الصور التي كانت تصل في ذلك الوقت، كانت صوراً مشوّهة تظهر فيها وجوه الناس مظلمة وشبه مخفيّة وشفاههم مضطربة، وكلٌّ مملوء بالظلام، وكأنّ الملهى قد احترق، ولم ينتبه لذلك أحدٌ. هكذا كانت صور بوربّتا. أمّا روبيرا فأصبح لا يلتقط صوراً أخرى، لا لأخي ولا لأحد من الناس.

ولم يذهب روبيرا مرّة أخرى إلى الملهى بعد تلك الليلة التي اعترض سبيله فيها الشرطيّ ماتشوكا وكلّمه عن غراميات زوجته القديمة مع آلبرتو سانتوس كامبري، وعن الحريق الذي اندلع في بيته، وعن شبق مالك الملهى القديم فلاذ روبيرا منذ ذلك الوقت، بمختبره في النزل معيداً تركيب صور قديمة وخلطها بصور أخرى أحدث منها، مختلقاً مسوخاً، وهو يرى ذكريات الملهى كلّها تمرّ أمام ناظره في ظل الأضواء الحمر. بينها راقصات أصبح لا يتذكّر أسماءهن إلاّ بمشقّة، وزبن غيّر وجوههم الزمن وشؤون الحياة، وموسيقيّون انتهى بهم الأمر إلى تغيير مهنتهم، وليلي وفاطمة كومبادوس وموتى آخرون بُعثوا مرتعشين تحت سوائل المصوّر روبيرا، وأشخاص يسبحون فوق بعضهم البعض متكوّمين وكأنهم في قعر جحيم سائل وعطر.

وهكذا كانت تدمج الصور بعضها بالبعض الآخر. رأس آلمودينا فرناندث بجسم درويش قديم، ووجه دون موريثيو تسبدس ضاحكاً وسط ألسنة لهب حريق، أجسام أقزام لها سيقان راقصات، صور كانت تملأ محافظ المصوّر روبيرا الذي كانت تسهر عليه من بعيد دونيا آنخلينس التي كانت تجهل سبب إبعاد زوجها عن الملهى، لكنها كانت على وعي بالألم الممضّ الذي كان يعيش فيه ذلك الغريق الذي تحول إليه روبيرا. «لقد طردني دون موريثيو»، ذلك كان التفسير الذي أبداه المصوّر لزوجته تلك الليلة. بينما كان يستلقي في السرير، ونفس الشرطيّ ماتشوكا ما يزال في حلقه،«هو لا يريد أن ألتقط صوراً أخرى في الملهى، ولا أن أذهب إلى هناك». «قم بالتصوير في مكان آخر وحيث تشاء»، أجابته دونيا آنخلينس، وهي تستند إلى مرفقها في الفراش ناظرة إلى قفا روبيرا وإلى شكله الجانبي. «لن أقوم بالتصوير مرة أخرى»، وقال روبيرا وعيناه مطبقتان، «سأبحث عن عمل آخر، عن شيء آخر لا أكون فيه مصوّراً».

لكنّ العمل الوحيد الذي بحث عنه فيليكس روبيرا هو أن يكون شبحاً. لقد تحوّل المصوّر إلى شبح في نزل ريّوس - إسبانيا، إلى حضور كان يُسمع كلّ ساعة بضوضاء صغيرة، منهمكاً في العمل خلف باب مخبره، محرّكاً سوائل وأوراقاً وأحواضاً، كان روحاً معذّبة في محلّ كوداك حضور لم يغيّر على الرغم من كل شيء إيقاع النزل، الذي كان في الحقيقة إيقاع دونيا آنخلينسِ المنكبّة على الرغم من ألمها، على رعاية أولئك المسرنمين الذين كان يشكل طليعتهم الصينيّ بونيّا المتأهب كلّ يوم ليتناول مقبّلات من القهوة وحلوى مغدلينا، والمتثائب دائماً في الممرّ متدثّراً بعباءته ذات التنّينات واضعاً شاربه الصنعي الذي خرّبه

النوم. وظلّت دونيا آنخلينس تقيس مدّة سلق البيض من أجل النادل آلبارث، وتلمّ له بكثير من التدليل صورة غريغوري بيك المنسيّة نصف الأيام وسط أغطية السرير، ظلّت تحدّث آلمودينا فرناندث عن الرقص والكعاب والسيقان والجوارب، وتصغي إلى قصائد الشحّاذ الذي استمر من غير أن يسنّ شيئاً، ظلّت دونيا آنخلينس من غير أن تسوّي سرير الترومبيتا، لكنّها كانت تغيّر له الملاءات المجعّدة بأخرى كانت هي نفسها تدعكها من أجل أن يبدو سرير ترومبيتا سرير موسيقيّ، وليس سرير موظّف، إذ كان أخوف ما يخافه الترومبيتا أن يظهر بمظهر موظّف مكتب، أن يشبه نفْسه لمّا كان يعمل في مصرف آلباثِته ويعزف على البوق سرّاً.

وبينما كان كل فرد في غرفة المعيشة ما عدا الخادم ألبارث الذي كان كما تتذكّرون، صامتاً دائماً ويبدو أصمّ أبكم بسبب السير إلى الوراء، أقول، كان كلّ فرد يقصّ أحداث الليلة الفائتة وكيف ظهر برنامجه، وكيف انزلقت لابيّا مانوليتا على خشبة المسرح، وكيف دخل ذلك الزبون ذو النظّارة المدوّرة، وهو سكران إلى حجرات الراقصات، وشرع يصرخ: عاشت إسبانيا، لمّا فاجأ ماري كارمن مولينا عارية، وبينما كان الترومبيتا يعزف موسيقى بالسكاكين والآنية، وأخي يغنّي في المطبخ بصوت خفيض لدونيا آنخلينيس التي كانت توقد تحت البطاطا أو تعمل عجينة الكفته، حتى إذا أخذت الصحون تصل إلى الموائد في آخر ساعة، كان روبيرا يخرج من مخبره من غير غرّة ولا هالات تحت عينيه، متعباً من صنع مسوخ كما الدكتور فرانكنشتاين معيداً كلّ الوقت دمج قطع من ناس مختلفين بحثاً عمّا لا يعرف من أسرار، فيكفّ أخي عن الغناء وتنخفض الضوضاء في غرفة المعيشة

إزاء حضور المصوّر، الشبحي الذي أخذ الناس كلّهم يعاملونه معاملة مريض ويسألونه عن حاله وكأن حزنه كان يأكل رئتيه أو يقتل دمه.

كان أخي وحده يجرؤ على أن يحدّثه عن الملهى وعن سوء الوضع فيه، واختلافه عمّا ذي قبل، ملهى يبدو من دونه، من دون روبيرا أنه قد تغيّر من الداخل وأن الديكور يبرق ببريق أدنى، حتّى الموسيقى كانت تصدح بشكل آخر وكأنّما سُرقت منها إحدى الأدوات. ووصل الأمر بأخي أن أعترف له أن الممثل كارمونا نصحه أن يقبل القيام بجولة مع المسرح الصينيّ ويترك الملهى لموسم واحد. لكنّ الحقيقة أن أخي كارلوس ديل ريّو ما كان يفكّر في مغادرة برشلونة، وإنما كان يقول ذلك تأييداً لصديقه الذي كان يستمع إلى كل شيء من غير أن يسمع شيئاً، مركّزاً نظرته على الحساء الذي كان يتناوله وكأنه ينظر إلى عمق أفق بحريّ وليس صحناً من الحساء فيه قطع من الجزر والكرّاث طافية في ذلك المستنقع العكِر والحار.

وهي؟ –. كان يسأل روبيرا أخي من وقت لآخر.

هي ما تزال هناك وتسألني عنك، وعن سبب امتناعك عن الذهاب إلى هناك.

وأنت، ماذا تقول لها؟

أنا لا أقول لها شيئاً. – كان يجيبه أخي.

كان روبيرا يتناول الحساء مغضّناً وجهه، بينما أخي يظلّ يقصّ عليه شيئاً عن الملهى، ولكنه ما كان يقصّ عليه في الحقيقة ما كان يحدث فيه.

كان أخي يتناول الحساء، و لم يكن يقول له أنّ الشرطيّ ماتشوكا ما يزال يتجوّل الآن كلَّ ليلة في قاعة الاحتفالات، ويتحرك فيما بين الطاولات والحجرات وفي كل مكان عدا ما وراء منصّة الحاجز الذي وضعه الوكيل آنسلمو أمام مدخل الخدم، فكان الشرطي يتسم له ويقرصه في خدّيه، ثم يضطر إلى أن يدور على عقبيه دون أن يدخل. كان يتجوّل وكأنّه صاحب الملهى، وأنّ الشرطيّ صار مغرماً بلوليتا برّويثو التي كان ينقصها نصف سنّ ويفيض عنها هزّ الردفينِ ورغبات في الضحك. وما كان أخي يكلّم صديقه روبيرا أيضاً عن تسكّع آبلينو باديًا في الملهى وفي نصف برشلونة منذ أن اعترض ماتشوكا سبيلهما أثناء الليل، من غير أن يكلّفه دون موريثيو بأيّة مهمّة ونسيه دون ماتيو، وظلّ يمسح قاعة الألعاب ومن غير همّة ليبحث عن راعٍ ولا ليضرب كيس الرمل، وكان يقضي الساعات على المقاعد المظلمة في محلات بيليارد تيسان بصحبة الفتيات اللاتي كنّ يصحبن الزبن إلى المراحيض، ومن حين لآخر كنّ يقدمن له خدمة مجانية ليُزلْن الحزن عنه، وبالمثل أيضاً كان الوكيل أنسلمو يقدّم له المشروب في الملهى حيث أصبح لا يكلّم تقريباً صديقه ألبرتوتيسان الذي صار يقرأ الآن أشعاراً على الراقصات، والترومبيتا وعلى زبون أعور يزعم أنه كان شاعراً محترفاً وينشر قصائده في الجرائد وحتى في الإذاعة. تناولا الحساء والتهما الشرحات المحشوّة والكفته، وسأل أخي المصوّر روبيرا إن كان يتذكّر ذلك الساحر المسمى رفائيل بيرث إسترادا الذي كان يُظهر ملائكة على المسرح ويزيلها منه، ويحمل أسراباً من الحمام في كمّ سترته أو فيما لا يعلم أين، وقال أنه كان ذات ليلة في الملهى ليحيّي أصدقاءه وليرى تشين لو، لأن الساحرين يتبادلان الإعجاب. لكنّ أخي كارلوس ديل ريّو لم يقل لصديقه أنّ دون موريثيو

تسبدس قرّر أن يشتري ملابس جديدة للراقصين والموسيقيين، ولم يكن نادراً أن تراه يدعو الزبن لتناول الشمبانيا، وأنّ الجمهور كان يعيش فترة من الجيشان والنرفزة المرحة، وكان الناس كلّهم في حالة ترقّب وكأنهم يعرفون بشكلٍ ما أنّ مأساة جديدة سوف تحدث على المسرح.

لم يكن أخي يقص على صديقه فيليكس روبيرا شيئاً من هذا الذي أقصّه عليكم، خاصّة أنه لم يكن يحكي له أن دون موريثيو تسبدس كان عيّن صولداد روبي الراقصة الثانية في العرض، وأنه كان يملأ حجرتها كلّ الساعات بالأزهار، وأن الراقصة وجدت ذات ليلة بعد عودتها من أداء برنامجها عقداً كلّه من الدرّ الأبيض معلقاً بأحد المصابيح الصغيرة التي كانت تحيط بالمرآة في حجرتها. لبثت صولداد روبي تنظر إليه بإمعان، لكنّها جلست على مقعدها بعد أن لاحظت ذلك الوهج الذي كان يصدر من قلب البلّورات والتي كانت تتلألأ مثل قطرات من الشمس، ثمّ شرعت بدهن وجهها بالمرهم وتنظيفه من المكياج ببطء كبير إلى أن جاء دون موريثيو حجرتها متلعثماً وباسماً بسمة حالمة. ورأت صولداد روبي من خلال المرآة، بسمة رجل الأعمال تتهاوى، وحاجبه يسقط لمّا رأى العقد معلّقاً إلى جانب الزجاج ومُزدرى وقد صار ساخناً من حرارة المصابيح.

ألم تريه، ألم تري العقد صولداد؟

لكن صولداد تابعت طلاء وجهها بالمراهم من غير أن يقدر أحد على أن يؤكد إن كان ذلك الوهج من عينيها، والذي كان شديداً جدّاً مثل وهج العقد ذاته، وهو وهج ناجم عن الكبرياء أو الحياء أو الخوف.

هو عقد من الماس. وهو من أجلك –. وكان وجه دون موريثيو يشي بالحزن –. هو لك صولداد. ألم تريه؟

صار مكياج الأجفان الأزرق لطخة تركوازيّة فقط، صار بقعة متعدّدة الألوان كانت الراقصة تسحبها بقطعة قطن حتى الصدغين، حتى منبت الشعر الذي كان بلون القمح. «نعم رأيته»، قالت وعيناها شبه مطبقتين.

أو لم يعجبك؟

وانفتحت عينا الراقصة صولداد روبي تحت سحابة الأجفان القاتمة،باللون والعمق الذي يكون خلال العواصف لمياه المستنقعات والينابيع المملوءة بالخضرة وانعكاس العشب، الأصفر. وقالت الراقصة بصوت كأنه في الحقيقة ريح بعيدة، وهمس هواء مضطرب، أنها لا تريد عقوداً ولا أزهاراً ولا هدايا، وإنما هي تريد أن ترقص فقط، ترقص في الملهى. واضطرّ دون موريثيو ثسبدس إلى أن يتوسّل ويقدّم شروحاً طويلة ويخفف من عرق جبينه بمنديله الحريري، ولم تقبل صولداد روبي العقد إلا بعد كثير من الرجاء، وركوع رجل الأعمال أمامها، وتقبيل أناملها وسطوح أظافرها المطلية بينما هي جالسة على مقعدها من غير مكياج تقريباً على وجهها وإنما بأحمر الشفاه القرمزي على فمها الذي لم يكن يشبه فماً. على هذا الوضع رأتهما من الباب الموارب لابيّا مانوليتا التي كانت تدعى في الحقيقة آماليا مورينو وكانت طيلة أعوام عشيقة دون موريثيو ثسبدس.

كلّ يوم كانت عينا لابيّا مانوليتا تزدادان امتلاء بالقطران. وكانت

تبتلع كلّ شيء تلكما العينان اللتان لم تكونا غير بئرين من حبر أسود يغرق فيه مشاهدون وخدم وموسيقيّون وراقصون، ولكان استقرّ في قعرهما بحارة أوليس كلّهم، وأوليس نفسه مهما يشدّ رفاقه من وثاقه إلى الصاري الأكبر. وكانت أشرعة وجذوع وقوارب كاملة تبتلعها تلك الهوّة الموحلة في عيني لابيّا مانوليتا، اللتين ما كان يجرؤ أحد على أن يطلّ على قعرهما، بل كانوا جميعاً ينظرون إليها عرضاً، أو كانوا يوّجهون بصرهم إذا تحدّثوا إليها، إلى ما بين حاجبيها وإلى طرف أنف الراقصة السامية. وحدها دونيا آديلا ثسبدس كانت تتحمل أثناء زياراتها المعدودة للملهى، نظرتها برباطة جأش، بينما هي، لابيّا مانوليتا، كانت تحدّثها عن صولداد روبي، الراقصة التي لم تكن راقصة، والتي يجب الحذر منها غاية الحذر، لأنها لا تريد إلاّ أن تُوقع الرجال في حبائلها مستغلّة كلّ لحظة لتلتصق بدون موريثيو وتطويقه كأفعى مملوءة سمّا. وكانت دونيا آديلا ترتعد منكمشة داخل جلود الثعالب والسناجيب متمتمة: بنيّتي آماليتا، كم تصبحين كريهة متى شئتِ!ثم تُنكر بهزّ رأسها وهي تنقل إلى شفتيها الساميتين جرعة من الشمبانيا:

حتّى يبدو أنّ نفسك يتعكّر إذا تكلمت هكذا كلام –. كانت تستفزّها لترى إن كانت الأخرى تدعها تتذوق المشروب والموسيقى بهدوء.

أقول لك ذلك لأنّه زوجك.

شكراً جزيلاً، آماليا. لكن، كان بإمكانك أن تفكّري في ذلك لمّا كنت تستلقين معه في السرير. كنت تتركينه لي ممتصّاً.

كانت لابيا مانوليتا تتحرك في موجة سوداء تتجلّى الآن في كلّ خطوة، سواء في ذهابها إلى نزل ريّوس – إسبانيا، أم عالقة في حجرة آلمودينا فرناندث، أو متكلّمة عن الأموات والأزمنة الماضية منتهزة أدنى فرصة لتدخل مخبر روبيرا بحجّة أن ترى تجاربه وتحثّه على العودة إلى الملهى، وهي لا تستطيع أن تفهم سبب ذلك الهجران بعد سنين طويلة من العمل، على الرغم من حبّ الناس له هناك، لأن أحداً لا يلتقط صوراً مثله، ولأنّ أيّ فنان ما كان يرضى أن يصوّره بوربتّا الذي كان يظهرهم مغضّنين موضوعين في الظلال وكأنهم في كوخ. وإذا كانت مشكلتك مع دون موريثيو، فإن كلّ من في الملهى عانى الأمر ذاته، وإنهم جميعاً سيكونون عوناً له في صراعه، ثم كانت لابيّا مانوليتا تسكت متحرّية بعينيها ألم روبيرا، ثمّ تنغّم وتخفض صوتها لتقول له أن هذه الفتاة صونصولس تسأل عنه، وإذا كان حدث له شيء مع الراقصة فيمكن أن يُسوّى، لأنها هي آماليا، مستعدة لمساعدته في كلّ ما يحتاج إليه، وإن يكن ذلك من أجل مصلحتها الخاصة فقط، لأنّ روبيرا كان يعلم الحبّ الذي كانت تحبّ به دون موريثيو ومقدار تحمّلها له كيما تأتي الآن فتاة لها رائحة خمّ فتحطم حياتها.

كان المصوّر روبيرا يستمع إليها وهو مكبّ على محافظه السود، وما كان يقول لها شيئاً سوى:لا،لا، لن أذهب مرّة أخرى إلى محلّ دون موريثيو، وأنّه سيعمل في شيء آخر غير التصوير، هذا ما كان يقوله. وإن تكن الحقيقة أنّه لم ينقطع عن الذهاب إلى الملهى. فما إن يفتح الوكيل آنسلمو الملهى في كثير من الأمسيات، حتّى كان يظهر حذاء روبيرا ينزل الدرج ببطء، ومن هناك كان يحيّي آنسلمو بكلمة أو بإشارة فقط، ثمّ كان يدخل القاعة ناظراً ببطء كبير إلى المصابيح المطفأة وإلى المسرح

وستائر المخمل الأحمر، إلى هذا الطحلب الدامي الذي كان يصعد حتى السقف. وكان المصوّر روبيرا يتسكّع في الممرّات التي كانت تفضي إلى حجيرات الراقصات ويداعب الجدران، ويتشمّم البزّات المعلقة على الأسياخ التي كانت تخترق الحجيرات من جانب إلى آخر، وفي نهاية جولته كان يجلس على إحدى الطاولات بغرّته، غرّة المغامر التي صارت ذاوية قليلاً، ويشرب كأساً من الجنّ يقدّمه له آنسلمو الوكيل، وبعد أن يشربها وهو ينظر إلى المسرح الصامت المظلم كان يودّع آنسلمو بإشارة جديدة أو بكلمة واحدة فقط، ثم ينصرف قبل أن يأتي أحد.

كان ذلك لمّا رأى روبيرا في زياراته العرضية صورة صولداد روبي. كانت صورة إعلان تبدو فيها الراقصة وقد كُتب اسمها بخط عريض، وتغطّي رأسها قبّعة صغيرة من الحجارة الزرق، وكأن شعرها القصير واللامع قد تبلمر في بحر ذي أمواج متجمّدة تخرج منها كل الأطياف ودرجات اللون الأزرق. وكان وجه الراقصة يبدو مع وهج عينيها الأصفر المحاط بمكياج أزرق تبرز فوقه ندف بلّورية من اللون ذاته، أنّه طالع من أسطورة أو من حلم، ولمّا مدّ روبيرا أصابعه ليداعب الصورة، كان على يقين أن يده سوف تغوص في الماء، وأن ذلك الوجه كان يطفو تحت سائل يفصله عن العالم وعن قوانين الزمان. وحكى آنسلمو الوكيل لأخي أنّ دمعة، دمعة واحدة، طفرت من عين روبيرا اليمنى، وسأله ووجهه مضاء وكأنّه كان يطلّ على وهج مسبح مُنار في الليل، من رسم هذه الصورة، أو إن كان دون موريثيو قد طرد بوربتّا.

في ذلك اليوم تبادلَ الكلام روبيرا والوكيل آنسلمو أكثر من أيّ يوم آخر، منذ أن لقي المصوّر الشرطيّ ماتشوكا، وأخذ يأتي الملهى خلسة.

غير أن روبيرا ما كان يبدو عليه أنّه يسمع شيئا، بل كان ينظر إلى صورة الراقصة روبي، ويمرّ بعينيه على عيني الصورة وشفتيها وسنّها البيضاء التي كانت تطلّ من خلال حاجز أحمر الشفاه القرمزيّ الحلو، وعلى عنقها الأبيض الأملس المزدان بعقد الماس الناعم متدليّاً إلى ما تحت الترقوة كشلال من ماء متجمّد. وكان ينظر بكثير من البطء إلى بداية استدارة الثديين تغطّيهما قبّعة من الحجارة الزرق التي كانت تشكل سلسلة حلزونية ذات رسوم متناسقة يُلمح فيما بينها نعومة الجلد الذي هو بلون القشدة ويكاد يكون وردياً. وهكذا، بينما كانت الدمعة تتبخّر من وجنة روبيرا الذي كان ينظر إلى صورة الراقصة الثانية في لوحة الإعـلان، قال له الوكيل آنسلمو أنّ دون موريثيو بحث عن مصوّر خاص من أجل ذلك العمل الذي يريد أن يقدّم به عرضاً جديداً، وكان مصوّراً يعمل مراسلاً لكرة القدم، تعوّد التقاط الصور في وضع متحرّك، وكان يدور ذات ليلة في الملهى مندساً وسط الجمهور، ووسط الفرقة يلتقط صوراً بكثير من اليسر والسرعة وليس كما بوريتا الذي كان يزداد بطئاً يوماً بعد يوم في الضغط على زر آلته. وإزاء إلحاح دون موريثيو الذي عرض على المراسل المصوّر أن يعمل في الملهى بأجر أفضل من الأجر الذي يتقاضاه لقاء تصوير لاعبي الكرة، ردّ هذا الأخير الذي كان يدعى أوشوا أو ما يشبه ذلك، كما خُيّل إلى الوكيل آنسلمو، أنه لا يمكن له أن يظلّ هنا، إذ ليس من عادته أن يرى في كرة القدم رجالاً ذوي عيون مِزوّقة، ولا ببناطيل ضيّقة جدّاً، ويخطون خطوات صغيرة إلى الأمام وإلى الخلف. ثم هناك الراقصات اللاتي لا يُعرف أيضاً من هنّ بذلك المكياج والأسماء المبدولة. ولمّا رأى صولداد روبي التي كانت تسير تلك اللحظة قريباً منهما، قال المراسل أنه لا يريد

أن يعاني آلاماً، وأنه إذا ظلّ للعمل هنا، فهو على ثقة أنّ حياته ستتحطم. كان ذلك لمّا التقط الصورة الموضوعة في الإعلان بسرعة كبيرة جدّاً، بالضبط لمّا مرّت صولداد إلى جانبه وإطلالة بسمة كانت على وشك أن تطفو على شفتيها كموجة لحظة تحطمها وانتشارها على الضفّة أو على الشاطئ الرملي اللذين كانا شفتي صولداد روبي ووجهها. وما إن تمّت الصورة، ظلّ اوتشو أو أيّاً يكن اسمه، وآلة التصوير لاصقة بوجهه ناظراً من خلال منظارها إلى أن صولداد روبي تبتسم له بسمة صريحة وقد بهرتها ومضة الضوء ومن غير أن تقطع سيرها باتجاه الحجرات. وأزاح الآلة ببطء شديد عن وجهه ورفض بحركة من رأسه الكأس التي قدّمها له دون موريثيو متمتماً في آن واحد أن عموده الفقري قد ارتفع كعرف الديك من الخوف.

قال الوكيل آنسلمو لروبيرا أن المسمّى أوتشوا لم يعد قطّ إلى الملهى، وأنّه لمّا راح دون موريثيو إلى بيته ليأخذ الصور التي التقطها هذه الليلة وألحّ عليه مرّة أخرى، وقدم له عروضاً جديدة للعمل في الملهى، أمسك الرجل الآخر دون موريثيو من ذراعه وأخرجه من بيته وصفق الباب في وجهه. ولمّا نزل المقاول على الدرج طابقاً واحداً، فتح المراسل الباب مرّة أخرى وألقى إليه من فوق الدرابزين ظرفاً من تجارب الصور وكل النسخ والتجارب التي كان عملها وكأن كل ما كان له علاقة بالملهى والراقصات، مملوء بالجراثيم، نظير ما يحدث لي في ملعب الصمّ والبكم وفتيات غرانخاسوارث اللاتي إذا رأيتهن كنت كأني أرى نفسي أسير منتصف الليل في أرض خلاء وكأنّما أُقاد وسط الخرائب حتّى كرسيّ كهربائي تُرك مُهملاً هناك كما كان كرسي تاتين الكهربائي في مكتب حدائد لابيّخا.

وكان الكرسيّ الكهربائي عربة منزوعة الأحشاء موجودة في أعلى جبل الحدائد المفتولة. كانت رينو٨ ورديّة اللون، وكان تاتين يقضي في داخلها الأمسيات جالداً عميرة أو مستمنياً. وكانت تسمع من عند قاعدة تلك القمّة من الجفنات المسحوقة والغسالات المجوّفة، ومن ألواح الصفيح الصفر بسبب تأكسدها، فرقعة الحدائد، ورعشة معدنية تنزل صاخبةً ومتذبذبة من تلك العربة التي كنّا نسمّيها الكرسيّ الكهربائي بسبب التقلصات التي كانت ترجّ شاغليها. أحياناً كنّا نسافر حتى أربعة أشخاص في الكرسيّ الكهربائي وكلّ منا مشغول (بغيولاه) وأفكاره، وكل منا مستغرق في دوار ما بين ساقيه، وإغماءته.

وكنّا نسافر كلّنا مع كيني في الكرسيّ الكهربائي. وما كان يهمّ أن نكون أكثر إعجاباً ببنت خالتها إسبرانثيتا التي كان شعرها أزهى، وعيناها أحلى ورائحتها أذكى. وكنّا ساعة بدء الاصطخاب في عربة البيّخا الورديّة، نثير جميعاً ذكرى كيني التي كانت صورتها تأخذ بالتشكّل في ذهن كلّ منّا، وكان تاتين ذاته الجالس دائماً وراء مقود الكرسيّ الكهربائي، وكأنه يقودنا حقّاً فيما لا يعرف من طرقات الخيال والحياة، يشرح لنا أحياناً الجولة الذهنيّة التي هو آخذ بالقيام بها في جسم كيني، وهكذا كان يسألنا بصوت شبه مخفيّ عن الثديين، أترون الثديين؟ ها أنا المسهما، أجسّ أسفل بطنها، وكذلك سروالها الداخلي، وسوف أنزله، ها أنا أنزله، وهكذا ظهر الشعر. وكنّا جميعاً ننزل سراويل كيني وسط الاختناق والاحتجاج والضحك، ثمّ كنّا ننظر مرة أخرى إلى ثدييها ونلمسهما بأناملنا وألسنتنا. أمّا أكثر ما كان يعجبني في كيني ويثير قلقي، فلم يكن النتوءين تحت كنزتها،

حتى ولا فمها ولا مشيتها البطيئة والمتلويّة جدّاً، بل كانت الهوّة في عينيها، هوّة كانت بئراً مظلمة يلتقي فيها، في البئر، فمها وخيلاؤها وشخصها كلّه، بئر رأيتها في كامل عمقها لمّا كنت طالعاً من إحدى تلك العقوبات اللامتناهية التي كانت تعاقبنا بها دونيا كارمن، فلقيتها مصادفة وجهاً لوجه وليلاً، بعد أن اجتازت هي وكاستيّو، ناصية شارع قطالونيا، بالضبط لحظة مغادرتهما شجيرات محلّ الكهربائي، ونظرت إليّ عينا كيني المعتكرتان بأثر اللقاء الذي اختتم للتوّ، ببريق لم أره قطّ لدى أيّ شخص آخر، هو وهج لم يكن ذات الوهج الذي كان يضفيه البكاء على عيون عمّاتي إذا تذكرن موت العمّ بيكتوريانو، أو الوهج الذي يدخله الكحول في عيون بعض الرجال في حانة ٢١. لكنّ ذلك الوهج استطاع لحظة حطّت العينان عليّ، أن يذكرني بوهج الجمر في الحرائق إذا هبّ الهواء الساخن المرتعش فيما حولها، وقد لمحت في عمق تلكما العينين عداك عن الشفتين وجسم كيني كلّه، الوسوسة الموجودة في داخل بركة ملعب الصمّ والبكم، وفحيح الأفاعي عند انزلاقها في سواد مياهها، وغناء الجداجد وضوضاء الخرب وصرير القمر الذي يزعم تاتين أنّه سمعه بينما كانت باليريا تركع أمامه وشفتاها الغامقتان الحارقتان تمتّصان منه الحياة.

وبينما كنّا نضطرب في دروب الحياة وألعابها وأسبابها، أخذ تاتين يفقد نجوم ساقيه، التي كانت تحطّ في طيران ليلي وسحري على صدر باليريا أو صدور صديقاتها. ولئن لم يستول على تاتين الإهمال مرّة أخرى، بل كان يظهر دائماً مسرّح الشعر جيّداً وثيابه نظيفة وحسنة الهندام، فإنّ نظرته لم تغب عنها التعاسة قطّ، فلم يصعد مرّة أخرى إلى آبيّا الكويكورتو التي ظلّت فارغة باستمرار، ومركونة بصمت إزاء

بيتنا كحيوان عجوز ظلّ في حشاه بيبيتو المعتزل يتابع الاجترار وسط سحابة كثيفة من الدخان، بيبيتو الملك الذي تجاوزته مغامرات تاتين، بيبيتو وسيّارة الآبيا كانا رمزين لزمن مضى، وحلّ محلّه سريعاً مجال البيّخا الرحب، ومكبّ حدائدها القديم، تلك الغابة المعدنيّة التي تحوّلت إلى ملاذ لتاتين، ملاذ لطرزان مشلول انتزع منه قلبه، وظلّ يتسكّع فيها سائراً كأنه إنسان آلي، مستمنياً أو ببساطة جالساً إلى مقود الكرسيّ الكهربائي وبصره ضائع في أفق من الحدائد والجنان المهجورة.

وأنا كنت أرى في ذلك كلّه آخر فترة من عصر أو ربّما كانت بداية عصر. وكنت أحسّ بذلك كلّه أنه على وشك أن يتحطم، على الرغم من مرونة الحياة وقد اكتسبت توتّراً تستطيع بمشقّة كبيرة أن تتحملّه. وأخذت أفكر أنه ربما من الخير لي أن أهرب وأغيّر اسمي أيضاً وأكون أنا آخر، من غير أن أكفّ عن أن أكون أنا ذاتي، كما فعل أخي والصينيّ بونيّا والترومبيتا وكلّ هؤلاء الناس الذين كانوا يقضون الليل في الملهى بأسماء مبدولة وحياة متغيرة هاربين من ذواتهم ذاتها، كما أريد أنا أن أهرب من ذاتي ومن تلك النذر السيّئة التي ألمحها في لون السحب، وفي شخير شاحنة أبي الليلاند، أو في الظلال التي كانت ترافق أصدقائي في الشارع مستطيلة وأكثر تشوّهاً من أيّ وقت آخر.

كنت أريد أن أفرّ من ذاتي ومن الأحداث التي كان يعدّها لي القدر، وإن وقعتُ في النهاية كما ترون، في ما هو عكس ذلك كلّه، فبدلاً من أن أشرع في هربٍ وأمحو ذاكرتي أو أتقنّع بقناع، شرعت في هذه القصّة لأتعمّق في ذاتي وأستردّ زمناً صار يبدو لي بعيداً. أنا أفكر وتفكيري إصبع يتقرّى صورة أشخاص الماضي وأشياءه.

أفكر وإذا فكرت أسمع ضحكة أختي ماري كارمن التي كانت تسمي نفسها حينئذٍ أولغا، الراغبة هي أيضاً في فرار جزئيّ، في هرب من ذلك الزمن الذي بيّن لنا البعد فقط، هدوءَ طبيعته. كنت ماأزال أسير في متاهة الحروف وذكرى حانة ٢١، مرافقاً أبي دائماً، ومستمعاً إليه باستمرار يحكي مغامرات أخي في برشلونة بينما معاونه دوبلاس يوافقه متجهّم الوجه، وإلى توتو يسأل وسط رائحة المقالي إن كان حصل موت آخر في الملهى، وإلى المقدّم بيّغاس يتهيّأ ليقصّ أنه عرف أثناء الحرب جندياً حُكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص في ثلاث مناسبات في شهر آب دائماً، مرّتين في هذه الطائفة ومرّة واحدة في طائفة أخرى، و لم يمت قطّ وما كان يهمّ أن أُطلقت عليه رصاصة الرحمة في تنفيذ حكم الإعدام الأخير، ودُفن نصف دفن في حفرة خرج منها بعد عشرين ساعة وفمه مملوء بالتراب، ومصاباً بدوار شديد، ورأسه ملوّث بتراب جافّ، متثاقلاً بسبب الثقوب الجديدة في صدره وبسبب الصدمة والحرق الذي سببّته طلقة الرحمة على صدغه الأيمن على الرغم من أنه ألِف شكليّات البعث حياً. وقد كان طقس الإعدام عند ذلك الرجل محض رتابة، وراح يضجر جزئياً شيئاً ما مهما يجهد كلّ ضابط وكلّ فصيل إعدام في إدخال شيء من الجدّة على مقدمات إطلاق النار، فيبّهرونه بالشتائم والرمي بالحجارة أو بنظرات تنمّ عن الخوف كما حصل لذلك الجندي في فصيل الإعدام الأخير لمّا ابتعد برصاصته من فوق رأسه، فانتابته رعشات شديدة، حتّى ساورت المحكوم عليه الرغبة في أن يبثّ فيه العزم ويقول له أن الأمر ليس بهذه الخطورة.

أصبحت قصص المقدّم بيّغاس كل مرّة أطول، وكل مرّة يزيد في تزيينها بالثرثرة والتفاصيل. ذلك أنّ أبي كان يسمح له كلّ يوم بوقت

أطول، لأنّه صار قليل الكلام وقد عدته رسائل أخي التي كانت ترد من غير مضمون وهزيلة وكأنّ الحروف سقطت من الورق بفعل حركة القطار الارتجاجية ليلاً، وإذ كان أبي يرى رسائل أخي كارلوس ديل ريّو وبطاقاته البريدية ملأى بالفراغات البيض حيث كانت من قبل تكتنز بالحروف الفخمة، فكان ينظر أحياناً إلى قاع الظرف ليتأكد، أقول، إن كانت هناك الحروف والكلمات التي غابت من الرسائل.

«كارليتوس شحيح»، كان أبي يقول خائب الأمل محدّثاً نفسه، بينما كان يلقي نظرة على صورة من الصور التي كان يرسلها أخي في تلك الأثناء، والتي ما كان لها أن تستقرّ في خزانة الخزف، لأنها كانت صوراً من عمل بوربّتا، وما كانت أمّي ترى فيها غير العيوب، فقد كان المصوّر يُظهر فم أخي غريباً جداً، وعينيه مطبقتين وأنفه طويلاً جدّاً، وإن بدا من جهة أخرى أنّ تلك التقارير المصوّرة الضئيلة كانت تؤكد نظريتها عن أنّ شكل الراقصات كانت مسألة مكياج وأضواء، وإذا ما أظهرهنّ أحد ما مجرّدات منه، ومن ذلك الإعداد كلّه، يظهرن على حقيقتهن درْداً، عوج السيقان، وحُوْلاً شيئاً قليلاً. لكن تلك الصور ظلّت تنتقل في حانة ٢١ من يد إلى يد، وكان كلّ فرد يقضي مدّة أطول ممّا يلزم في دراسة الظلال التي كانت تتحرّك فيها الراقصات، وما كان أصدقاء أبي كلّهم، وكذلك روّاد الحانة بعامّة، يكفّون عن إبداء الأسف على طرد روبيرا، ولا عن لعن بوربّتا الذي حرمهم من متعة النظر إلى أولئك النساء اللاتي كنّ يتطابقن جيداً مع القصص التي كان يحكيها أبي، وتضفي عليهن كثيراً من الملاحة.

لكنّ الأزمنة تغيّرت في الملهى أيضاً. كان ذلك لمّا عرف أخي في تلك

الفترة آليدا فالي التي كانت أحد عمالقة الشاشة، والتي ظهرت ذات ليلة في قاعة احتفالات دون موريثيو ثسبدس، ولمّا رأت أخي على المسرح كفّت عن الكلام، وراحت تنظر إليه بجدٍّ بالغ ساهية عمّا كانت تتكلم به، وحتى نسيت أن تتنفّس و لم تسترد آليدا فالي نفسها إلاّ بعد أن انتهى أخي من غنائه وترك المسرح وسط التصفيق، ومالت بشكلٍ خفيف على صاحب الملهى وسألته: من هو؟ أأعجبك غناءه، دونيا آليدا؟ أوَ كان يغنّي؟ أجابت لافالي، ذلك كما يسمّيها الخبراء: لافالي، بينما كانت تستوي على قدميها وتسأل كيف الوصول إلى حجرات الفنانين. ولمّا انقضت أيام السرور الأولى التي كان يسير فيها أخي وهو يغنّي في أروقة النزل على الرغم من شبه الحداد المخيّم هنالك، قاصاً على دونيا آنخلينس أنّ آليدا ڤالي راحت تنظر إليه عبر المرآة من باب الحجرة مستندة إلى إطار الباب استناداً وحدهم عمالقة الشاشة يعرفون أن يستندوا به إلى أطر الأبواب، وكيف أنها كانت تقول كل ساعة: Bambino، mipiccolo carlo، Ragazzo وهي تشرب الشمبانيا أو تخلع نعليها في أي مكان بقذفهما بركلة واحدة من فوق كتفها كيما تشرع في السير حافية في كل الأنحاء، وأن أكثر ما يعجبها في الدنيا بعد إعجابها بالصغير كارلو كان السير حافية القدمين، حسب قولها. إذاً، كما أقول، لمّا انقضت الأيام الأولى التي كان فيها أخي كارلو يحتفي بعلاقته بلا فالّي على قاعدة الغناء، اخذ يغزوه مدٌّ من الكآبة جاءت موجته الأولى فجأة، بينما كانا كلاهما يشربان الشمبانيا على ضوء شمعة، فرأى أخي لافالّي تتلمس ملتقى سنين بطرف إصبعها، وهي حركة تافهة تكاد لاتُلمح،لكنها ذكَرت أخي بالطريقة التي كانت العمّة مانوليتا تقلب بها فكّ أسنانها، وكأنّ عملاق الشاشة ڤالّي كفّت عن أن تكون فجأة عملاقاً.

ألقت هذه البذرة اللعينة بحذورها في رأس أخي، واخذت لافالّي وعملقة لاقالي تتضاءل بمرّ الأيام،وبدأت الممثلة تتحوّل إلى امرأة تفرط في الضحك وقدماها متسختان دائماً لفرط السير حافية، مدخلة كل لحظة وسْط كلّ كلمة هذه اللازمة: Ragazzo وعزيزي كارلو، و bambino والتي جعلت أخي يرغب في أن يقول لها أن اسمه رامون وليس راغاتسو[٩] في شيء. وإذا كان يقبّلها على فمها فقد كان ذلك على الأغلب، كيما تظلّ للحظة من غير أن تضحك، ومن غير أن تقول له راغاتسو، وهذه الأشياء التي كانت تقولها، حتى فقد الرغبة في الذهاب إلى السينما، وكان ينظر بفزع إلى الجمهور وهو يؤدي برنامجه مفكراً أن المصادفة أو تصوير فيلم يمكن أن تقود ذات يوم جينجر روجرز، أو هيدي لامار إلى الملهى، فيكتشف أنهما لم تكونا من عمالقة الشاشة أيضاً، وأنَّ لهما علاوة على كرّ الزمن والتدهور الجسدي، وإلى جانب هوسهما وترطيب ذلك كلّه بالشمبانيا،عيوبَ العمّة مانوليكا كذلك، أو عيوب أمّ فورتِس التي كانت تُحصي كلّ الخطا التي تخطوها في اليوم وتُضيفها إلى الخُطا كلّها التي كانت خطتها في حياتها منذ حوالي ستين عاماً محرّكة شفتيها باستمرار وهي تقوم بحساب جمّل قدميها.

وإذْ رآه ترومبيتا منحطّ القوى ومن غير عزاء صديقه روبيرا، اضطرّ إلى أن يشجّعه ويقول له أنه يجب عليه أن يدرك أنّ لاقالي عملاق، لكنّ عملاقاً ايطالياً هو أشبه ألا يكون عملاقاً تقريباً، ما عدا صوفيا لورين

٩- راغاتسو: صبي- بيكولوكارلو: كارلو الصغير- بامْبينو: طفل، بالايطالية كلّها.

التي هي، نعم، مماثلة للعمالقة الأمريكيين في هوليود حيث عمالقة الشاشة الحقيقيّون. وما عدا ذلك تقليد يا كارلوس، فأزلِ الوهم عن نفسك. لكنّ أخي كان أزال الوهم عن نفسه، ولئن أحسّ براحة كبيرة وحتى بشيء من الحنان لمّا أنهت لاڤالي تصوير الفيلم في كوستابرافا وسمعها لآخر مرة في المطار تقول له من خلال الزجاج: شياو! وداعاً! كارلو عزيزي، بامبينو، فقد ظلّت تلك الكآبة في داخله خالقة جيشاناً نادراً في روحه التي أخذت تصبح أكثر تماسكاً وكثافة، مثلها مثل البيض الذي كانت تسلقه دونيا آنخلينس والساعة في يدها، من أجل الخادم آلبارث. «هو تعيس آخر»، كانت صاحبة نزل ريوس- اسبانيا تتأوّه ونظرتها تحط على الماء الذي يغلي بينما تهزّ رأسها مستنكرة: «هذا يبدو ميتاً أكثر مما هو نزُل، يا كارلوس»، ووافقها أخي بصمت وقد فقد الرغبة في الغناء، وصار يكتب تلك الرسائل ذات الحروف القليلة التي ما كان يقصّ فيها شيئاً ممّا كان يجول في داخل رأسه أو في قلبه. ما كان يذكر غير الملابس الجديدة التي اشتراها دون موريثيو، وأنّ الملهى صار أكثر نشاطاً عمّا ذي قبل، وأنّهم يصفّقون له كثيراً. وما كان يقصّ لنا كتابة انّ روبيرا عاد في اليوم التالي لفقدانه النطق إزاء صورة صولداد روبي في الإعلان ونَدَبةُ دمعة واحدة تبخّرت من وجنته بينما كان آنسلمو الوكيل يحدثه عن المصور الصحفي أوتشوا، عاد إلى الملهى مع آلته ليلتقط الصورة التي ستكون في الحقيقة آخر صورة له، والتي لم تكن شيئاً آخر غير صورة صنورة.

لكنّ أخي حكى لِي بعد سنين كثيرة من ذلك، أن المصوّر روبيرا حضّر آلته وشحنها بفيلم طوله شبر تقريباً، وخرج بعد ذلك من النزل بغرّته وملامحه المغامرة وقد بُعثت مرّة أخرى. رآه الصيني بونيّا لما التقاه

في الممرّ، رآه ترومبيتا يمرّ من أمام باب حجرته الموارب، ورأت ألمودينا فرناندث ظلّه وهو يمرّ من خلال زجاج غرفة الحمّام المُحبّب، ومن الحانة الواقعة إزاء بوّابة نزل ريّوس- إسبانيا رآه خارجاً أخي الذي كان مع كارمونا الممثل الذي رآه هو أيضاً. لكن أحداء لم يعرف إلى اين هو ذاهب، ولا حتى دونيا آنخلينس كورتِس إسبلا زوجته التي كانت تخمّن كّل شيء دائماً والتي رأَت أيضاً من شرفة غرفة المعيشة أنّ المصّور روبيرا كان يتوغّل قدُماً في الشارع مع آلة التصوير المعلّقة بحزام،وإن تكن خطاه صغيرة ومن غير العزم السابق الذي كان يشق به وقت إزهار الجيرانيوم على الشرفة، طريقه وسْط جموع الناس وبائعي الأشياء الرخيصة الثمن، الذين كانوا كما هم اليوم يتكوّمون على الأرصفة.

نزل درجات السلّم بخطا سريعة وصامتة لّما كان آنسلمو الوكيل ما يزال يرتدي سترة الخروج، ولم يكن أنهى إشعال الأضواء. ولم تكن بين الوكيل والمصور تحيّات ولا كلمات، بل تبادلا النظرات، نظرة آنسلمو الحزينة ونظرة فيليكس روبيرا المتألمة، روبيرا الذي كان يتحرّك في الملهى بهذه الثقة والتصميم اللذين افتقدتهما فيه دونيا آنخلِنس منذ لحظات خلت، ثم رفع بحرص كبير صورة صولداد روبي عن العمود، ووضعها على محمل وسْط عتمة المسرح، وخطا خطوات إلى الوراء، ولّما صار وسط أطر المسرح والحبال الكثيرة هناك أشعل مصابيح الضوء كلها. وكان يلمح تحت جلد صولداد رووبي تدفّق الدم ولون نبضها وكأنّ الصورة كانت تتنفّس، فيضفي نفسها على الهواء رائحته.

مشى روبيرا بخطا وعزم مخمّدين واتخذ موقعاً له إزاء الصورة، وركع أمامها. ثم رفع المصوّر يده وكأنه كان ينوي أن يرسم شارة الصليب غير أنه كان يحمل آلة التصوير عالقة بيده. ونظر من غير أن يتنفس من خلال منظار الآلة، وضبط ضبطاً دقيقاً مسنّنات التشغيل وعدسة الآلة، وهناك التقط فيليكس روبيرا وسط المسرح آخر صورة في حياته. ثمّ نهض وكأنه تلقّى على لسانه وفي روحه سرّ القربان وسار وكلّه بطء وانكماش ليطفئ ضوء المسرح. وأمسك من الخلف لوحة الإعلان عن الراقصة من غير رغبة في النظر إلى صورة صولداد روبي، وعلّقها مرّة أخرى على العمود حيث وجدها عند وصوله. ورآه آنسلمو الوكيل من عند الحاجز، يصعد الدرجات حاملاً داخل الآلة، وفي أعتم نقطة من قلبه تلك الصورة لصولداد روبي، صورة تكاد لا تبلغ بقعة ضوء موشومة على قطعة من السيلولوئيد التي ستعني له نهاية عصر في الملهى، وفي حياة خلقٍ كثيرين يُهرعون إلى هنا فراراً من ذواتهم، ومن الغابة والضواري والضوضاء التي يحملونها جميعاً في داخلهم.

عاش روبيرا محتبساً في حجرته مع قطعة من السيلولوئيد ومع سوائله المظهّرة والمثبّتة ومحاليله الفضيّة وضوئه الأحمر ومحافظه السود ذات المسوخ والأشرار، حتى أنّه ما كان يخرج ليلاً مع بوبيدا الشحّاذ الذي لم يكن يشحذ شيئاً قطّ، والذي كان تدبير قوته معجزةً ما كان يعرف أحدٌ أن يفسّرها، العاطل دائماً والمتسكّع في ساعات الليل على درّاجته المجهّزة بحدائد لا نفع فيها وحجر السّنّ الذي ما كان يستعمله. وقد كان روبيرا يطوف معه في الأزمنة الأخيرة الشوارع النائية والحدائق في الجانب الأعلى من المدينة كيما يرى النجوم والمدينة المضاءة وسوادَ البحر المتلألئ، وتلّويَ الجادّات والشوارع، لكنّ زوج دونيا آنخلينِس

أصبح لا يخرج تقريباً من مخبره منذ ذلك المساء الذي التقط فيه ما سوف يكون آخر صورة له. كانت تعبق به رائحة الفورمول، أو أيّاً يكن من سوائله، وصار لون جلده أصفر وكأنّما هو صورة قديمة قتل فيها الزمنُ اللونَ وجعلها بنيّة داكنة.

لكن البسمة كانت تطفو على فمه دائماً على الرغم من ذلك كله، وكان شاربه يتموّج إذا لقي أخي في الممرّ، أو إن استطاع هذا الأخير أنِ يدخل مخبره. لكنّ روبيرا أصبح لا يُريه تراكيبه التصويرية ولا المسوخ التي كان يحفظها في محافظه السود، وكان المصوّر يسمع الأخبار التي كان ينقلها له أخي عن الملهى ناظراً إلى الأرض مغضّن الجبين، من غير رغبة في سماع ما كان يقوله له صديقه. وأقصى ما كان يبلغه هو الاهتمام بلافالّي. ولافالي، أتكتب إليك، كارلوس؟ وإن صار يعلم أنّ لافالي ما كانت تكتب إليه منذ شهر، وان أخي ما كان يريد أن تكتب إليه، وكان روبيرا ينظر إلى أخي كما قد ينظر الأموات إلى الأحياء الذين يبكونهم، إن استطاعوا أن يروا وإذا أدّت عيونهم وظيفتها. «أنا هنا بوضع جيّد، يا كارلوس، هنا أستطيع أن أكون على خير ما يرام، أنا شبح يهيم في الدنيا والزمن وفي الأحلام أيضاً، سوى أنّ لي جسماً، وأن جسمي لابدّ له من أن يكون في مكان ما، لكنّي ما إن أطبق هذا الباب حتّى يختفي كلّ شيء فأنسى جسمي وحياتي، وأصبح حيثما أريد أن أكون فقط، سائراً داخل الصور، ذلك كأنّما أسير داخل حياة أخرى، أسير داخل فيلم، وهكذا كما نريد جميعاً أن نعيش، أليسٍ كذلك، يا كارلوس؟ كما يعيش أهل الأفلام من غير أحلام أخرى ومن غير قلق ولا خوف، سوى ما يظهر عليهم على الشاشة، من غير هذه الديدان كلّها التي تأكلنا من الداخل وكأنّنا

أموات لا يتكلّم عنهم أحد». وكان أخي ينصرف من غير أن يجيبه، تغشّي روحه كآبةُ الذكريات ورائحة تلك السوائل.

لم يكن أخي كلّم صديقه روبيرا بعدُ، وكان كلّ ما في النزل هادئاً يومَ جاءت فيه لابيّا مانوليتا آخر مرّة نزل ريوس – إسبانيا بحثاً عن عزاء أو ما لا يُعرف من شيء. كانت آلمو دينا فرناندث بدأت مكياجها مستبقة الوقت، وعيناها في المرآة وأغنيةٌ ضائعة على شفتيها، ودونيا آنخلينس منكبّة على عملها في المطبخ، والشحّاذ بوبدا نائماً، والخادم آلبارث والصينيّ بونيّا يلعبان الورق بينما أخي والترومبيتا يتحدّثان عن الموسيقى والملهى. أماّ لابيّا مانوليتا التي كانت تقضي نصف أيامها من غير أن ترقص لإثارة الاضطراب في برامج دون موريثيو، فقد كانت أوّلاً في غرفة آلمودينا فرناندث مستلقية على السرير الذي كان لسنين طويلة من مقتنيات المرحومة ليلي، ناظرة بصمت إلى الأخرى وهي تضع (المسحوق) على وجهها بفرشاة كثيفة وليّنة سوى أنّها كانت تُبدي من حين لآخر تعليقاً على دون موريثيو، وعلى جوّ الغرفة الحارّ، وعلى كريم ما يُزيل المكياج ويجعل البشرة بشرة فتاة صغيرة: كما لّما كنّا فتيات صغاراً، أتذكرين نفسك، آلمودينا، أنّك كنت فتاة صغيرة؟ يبدو لي أنّي كنت دائماً كما أنا الآن، أو ما لا أدري، وأشعر في أحيان أخرى أني في الثامنة عشرة من عمري، ولا أعرف نفسي إذا نظرت في المرآة. لكن آلمودينا فرناندث كانت تتابع عملها من غير أن تجيب، مظلّلة بالسواد عينيها، جاعلتهما مهيّأتين لتلقّي الطبقة الأخيرة من المكياج في الملهى، محدثة صوتاً بفمها فقط، صوت: هوم، الذي كان يمكن أن يعني نعم، أو لا، وإن كان ما تريد قوله في الواقع هو أنّها لا يهمّها شيء من فلسفات لابيّا مانوليتا ولا فلسفات أحد.

وهنا تركت لابيّا مانوليتا ذات العينين الغامقتين، آلمودينا فرناندث تضع اللمسات الأخيرة على شعرها ومكياجها، ثمّ مرّت من أمام باب الترومبيتا، وحيّت أخي محرّكة أصابعها وكأنّها تداعب آلة الهارْب، سوى أنّها لم ترفع يدها تقريباً، و لم تقف، كما أنها لم تقف في غرفة المعيشة، حتى لم تنظر إلى الصيني بونيّا ولا إلى الخادم آلبارِث، وبشقّ النفس أوقفت خطاها في عتبة المطبخ لا لشيء إلاّ لتذكر اسم صاحبة النزل: لينا- وكانت لابيّا مانوليتا الشخص الوحيد الذي ظلّ يسمّي دونيا آنخلينس باسمها الفنّي-، لينا، الملهى والحياة ليسا كما كانا. وأجابتها دونيا آنخلينس مبتسمة واستمرّت في عجن كتلة من الطحين صبغتها بالسواد نظرةُ لابيّا مانوليتا، التي غادرت عتبة المطبخ، وتقدّمت في الرواق مسرعة الخطا، مدفوعة بدافع غير معروف حتى مخبر روبيرا الذي كان بابه مفتوحاً،وكان مضاءً بأضواء حمر.

لم يكن احد في الحجرة، لكنّ لابيّا مانوليتا سمعت ما إن صارت في الداخل همس أصوات بعيدة، وخفق ثياب وصدى خطا، ومدّاً من الأنفاس والضحكات المخنوقة، وضوضاء ساكني النزل القدامى الذين كانوا يتكوّمون في الظلمة ويكتسبون حياة، وربّما كان ذلك غمغمة الشارع والعالم تتسلّل من خلال الجدران، أو من شبّاك ما. تآلفت لابيّا مانوليتا والعتمة الحمراء وطافت متلمّسة طريقها في الحجرة ونبضها متسارع، متحاشية الحبال والصور التي كانت معلّقة من هذا الجدار إلى الجدار الآخر: صورة رأس الخادم آلبارِث يتوّج جسم سمكة، وصورة مصغّرة لراقصة، وصورة دون موريثيو ثسبَدس وبعض ذبابات خارجة من فمه، والمغنّي المنفرد آرثورو ريّس على خشبة مسرح مغطّاة بالقمامة وله أرجل حشرة بدلاً من الساقين،

وصار الميكروفون رأساً، ورأت لابيّا مانوليتا طافياً في سوائل الجفنات عدداً ضخماً من السيارات خارجة من بطن ليلي العاري، وعيناً تطلّ على شكل شمس في منظر من الصبّار والعقارب وسبلاً تغوص في بحر وتطفو عليه، بحر مظلم بشدّة ويكاد يكون أسود، وهنا رأت الصورة تبرز من حقيبة سوداء شبه مفتوحة إلى جانب أحواض السوائل.

وهناك كانت صولداد روبي عارية، مع قبّعة من الحجارة، ورأسها ملآن بمرايا دقيقة وشفتاها منفرجتان عن بداية بسمة. وقرّبت لابيّا مانوليتا الصورة من المصباح الصغير بسرعة وأصابعها ترتعش، واستطاعت أن ترى بوضوح جسم الراقصة العاري وقد أكله الضوء الأحمر، رأت جلدها اللمّاع، وعذوبة اللونين الأبيض والرمادي، وقد تحوّلا إلى لون وردي كان يبرز وسط صورة صولداد روبي جالسة على كرسيّ بلا مسند في منتصف مسرح الملهى وساقاها مفتوحتان ودمعة من لحم تطفو وسْط ظلمة العانة. ورفعت لابيّا مانوليتا بصرها وهي ترتعش بسبب الهزّات والزلزال الذي كان يسري في نبضها وأصابعها، وعبرت المخبر محاطة بأصوات وقهقهات قديمة وشهيق وأنفاس ذاوية، وسارت وسط مسوخ روبيرا حاملة ورقة الصورة بين يديها. وأدخلت الصورة مسرعة في حقيبتها، وتقدّمت نحو باب الحجرة، وخرجت إلى ضوء الرواق،وخرجت معها تخفق فيما حولها كأنها خفافيش في المساء، أنفاسُ لهاث المخبر، التي ستختلط بنفخ الترومبيتا في فم آلته، وباحتكاك ورق لعب الصيني بونيّا على طاولة غرفة المعيشة، بالصدى القلق لخطا لابيّا مانوليتا ذاتها، ودوران الماء في حوض غرفة الحمّام وحركة روبيرا فيه.

وهكذا نزلت آماليا مورينو التي كانت تُعرف في الملهى وفي برشلونة كلّها باسمها المزيّف لابيّا مانوليتا، درجات نزل ريّوس- إسبانيا مختنقة النفس، مضطربة النبض. ولمّا صارت في درجات الدور الأول الأخيرة، شرعت تبكي بدموع سود بينما كانت تضغط الحقيبة على جسمها، وذابت عيناها لمّا تذكّرت بكاءها ذاته في ليالٍ وفي شهور سابقات، وهي تتوسّل لدون موريثيو أن ينسى تلك الفتاة، تتوسّل لابيّا مانوليتا المهانة مكتشفة في هجرانه لها أنها كانت تحبّ في الحقيقة ذلك الرجل الذي كان يقضي حياته لاهثاً، منظّفاً جبينه من العرق. كانت تبكي حبراً من محلّ بيليكان الراقصةُ آماليا مورينو في شوارع برشلونة، وقد اتخذت قرارها، مستذكرة عيني دون موريثيو ثسبدِس منذ أسابيع خلت، بينما كانت توافق بعد ذهاب الغضب والرجاء، على مغامرته مع الفلاّحة البائسة، مشترطة عليه ألاّ يهجرها الآن وقتَ يودّع الشباب جسمها أيضاً، في ذلك المساء الذي شعرتُ فيه أوّل مرّة بحضور الموت،كانت لابيّا مانوليتا تبكي، وذاب سوادُ عينيها في طريق البراليلو.

لا أدري إن كنتم تعرفون كم من الأحداث يمكن أن تحدث في آن واحد. أنا أحسب أنها كثيرة، وربما هذا ما كانت تؤمن به أيضاً لابيّا مانوليتا التي قالت لأخي وقد فرغت بعد ذلك اليوم، بعد ذلك الفجر، عيناها من الظلمة وكأنّهما كهف مُضاء، كأنهما محبرة من غير حبر، أن كلّ الأفكار التي كانت اكتسبتها في حياتها قد طارت هذه الليلة من رأسها مرّة واحدة ربما حدث ذلك في آن واحد، وربّما كان العالم لحظة واحدة نأخذ بفرطها على شكل سيّء إلى شرائح وإلى قطاعات من الزمن كيما نحاول فهمه. غير أنّنا لا نفهم أيّ شيء بهذه الطريقة

أيضاً ونظلّ نتحمّل تبعة جهلنا. ها هو رجل حزين يسير قدماً على الرصيف، ويتنفّس، ومع تنفسّه يتنفّس العالم كلّه، وتستنشق الهواءَ رئاتُ العالم كلها، وتنتفخ إسفنجته الدامية والوردية، اثنا عشر ألف مليون رئة تعمل بإيقاع واحد، والخلايا السكرى بالأوكسجين تجري مجنونة في متاهة العروق، وساعات العالم، كلها تخفق في الثانية عينها، وكلّ ساعة منها تشير إلى وقت مختلف بالنسبة لكل عين من العيون التي تنظر إلى الساعات، بالنسبة لكلّ أُذن تسمعها.

ضوضاء تاتين ذاتها وضوضاء الراقصات الساقطات موتى متشابكات تعبر عروق الزمن مثلما تجري الخلايا المحمّلة بالأوكسجين في عالم العضوية البشرية اللامتناهي، وكلّ يرقص على الإيقاع ذاته: لابيّا مانوليتا باكية محتبسة في مكتب دون موريثيو ثسبِدس، وتاتين مقعياً على كرسيه الكهربائي بينما كيني تسير في عمق شارع دييغو برغارا، ولويسيتو سانخوان يغفو على مقعده ذي المقبضين في بيته، في حين ينقبض وينبسط قلبُ كونتشي كانكا وهو يضخّ دماً وأفكاراً من قنطرة صدرها المظلمة، وآبلينو باديا يطل على الفراغ من جرف هارٍ ومؤقتاه تفرزان سائلاً بينما كيمياء ذهنه تنتج مشاعر وذكريات، ويتفسّخ كرتون آخر علبة أرسلتها له أمه وسط القمامة في مزبلة بعيدة، ويمحي اسم آبلينو باديا شيئاً فشيئاً من غلافها، ويستمر الورق العطِن في التفسخ وتظلّ أمّ آبلينو باديا ترسل العلبة إلى ابنها، ويظلّ هو يتلقّاها ويظلّ هناك أيضاً على أُذني الجُرف متذكراً أمّه الميتة. وكلّ ما يحدث ذات مرّة هو حادث دائماً، وكلّ ما سوف يحدث هو حادث الآن وقد حدث. وليس للعالم نبض ولا إيقاع.

لمّا كان تاتين يرتعش داخل العربة الشاغرة ولابيّا مانوليتا تبكي على بعد ألف كيلو متر، كان المساء زهرة ذات تويجيّات متفتّحة، كان وردة بيضاء كشف فيها لولب الزمان القناع عن وجهه. وكان الهواء يرتعش وسط شجيرات محلّ الكهربائي في شارع قطالونيا، بينما كان المقدّم بيّغاس يشرب الجعة في حانة ٢١، ودوبلاس وأبي يرحلان في شاحنة الليلاند في طريق لا يفضي إلى أيّ مكان، طريق يُفضي إلى نفسه ذاتها، وتقوم على طرفه أشجار،ونسغ الأشجار ينبسط في عروق الأوراق، وعلى البعد كانت القطارات تعبر الأفق وهي تعوي، قطارات كان يسافر فيها أخي رامون وأخي كارلوس ديل ريّو والرسائل التي كانا يرسلانها من برشلونة، وسوائل روبيرا تضمّخ الصور وورق الرسائل، ودونيا آنخلينِس ما تزال في المطبخ في نزُل ريّوس - إسبانيا وعيناها ضائعتان في طعام يغلي، ودون موريثيو يسير في شارع مونتانير و شارع كامِلياس بصحبة زوجته،وصفيحة ورديّة تداعب سماء المساء فوق جبل الحدائد الملتفة في مكبّ حدائد البيّخرا، وامرأة هي أمي تسير وسْط خضرة جنانها عبر درب ذي تراب أسود، وندبة الصوف في كنزة الموكوس ووجهه مسودّ ورائحة دخان البؤس متغلغلة في عظامه، عظام صديقي، والصينيّ بونيّا يضع في حقيبته الصغيرة قناع السحر، والترومبيتا يخرج من الحانة التي كانت إزء نزُل ريّوس - إسبانيا، والتي لم اعرف ولا اعرف ماذا كانت تُسمّى، ولا ما هو اسمها الآن، وجسد كوسمه كوسمه انتشر فيه الدود داخل كهفه من الآجر والإسمنت، ويصرّ صرير نسيج عتيق إذا حُكّ، وحيوانات السيرك تتحرّك في أقفاصها سائرة مرّة أخرى ما كانت تسير حتى لا تذهب إلى أي مكان، وبينيتو ديل أورو تدور في أرجوحة رأسي،

وصور خزانة الأواني تهتزّ بفعل هزّات أرضية لا يُشعر بها، ومانوليتو تيخادا ينزل شارع اوخينيو غروس متنفّساً مختنقاً على درّاجته في حين كان الشرطيّ ماتشوكا يغادر مفوضيّة الشرطة، وآلبرتو تيسان يكتب وما زال يكتب في وحشة بليارد تيسان قصيدة عنوانها «كانون الأول»، وكنت أشمّ في الكون رائحة ارض ممطورة، وتتراكم في سقف حنكي طعومه، ويهمس أحدٌ ما في أذني كلمات وعلمتُ أنه الموت، وأجري خلف كرة ذات جلد بالٍ وأرى عربات جنائزية تخترق عينيْ لاباليريا، وآنسلمو الوكيل يشعل أضواء الملهى ويُنزل الكراسي عن متون الطاولات، والخادم آلبارِث يركع في حجرة الحمّام ويدُه ملأى بالبصاق الأبيض وقضيبه العاري يبكي بصمت أمام صورة غريغوري بيك، بينما لوليتا برويثو تدخل حجرتها وتنظر إلى عينيها في المرآة ومن تحت قميصها يطلّ مطّاط مثبته الأسود، كأنه سلخ أفعى، كان ضربة سوط يلتف عند استدارة الثديين، وباريا يخطو خمس خطوات إلى الأمام والكرة المغبّرة تحت ذراعه، وكنا، الموكوس والغيه وأنا نسير خلفه في البيّخا، وكان تاتين صعد جبل مكبّ الحديد ويحكّ بأظفاره بلّور الكرسي الكهربائي، وكان يرى مرّة أخرى، كما قد كان رأى هذا الصباح كيني والربيع على فمهما والسخرية في عينيها،متحاشيةً نظرته مجتازة شارع مَرْمولِس، كيلا تمرّ من أمامه، هو الذي لبِث يلعق الهواء، ورائحة جسم كيني وذراعيها العارين ظلت طافية عند مرورها، والسماء الورديّة وعروق الاوكسيد الصفر تنعكس في عيني تاتين، كنّا نسير صامتين، وكان مانوليتو تيخادا الذي كان سواد الزغب يغطّي شفته العليا يزفر من فوق درّاجته ذات الرايات الصغيرة والجرس درّاجة لوطي، وكانت لوليتا برّويثو طلت جفنيها

بمكياج أزرق، برقاقة شفّافة، وحراس مقبرة الحدائد يشربون خمراً ذا لون أخضر في كشك بِبّا الغجرية، الخشبي، بينما المصوّر روبيرا يختلق مسخاً جديداً له وجه فاطمة كومبادوس، وجسمه مغطّى كله بالجراح والوشم المقدّس وبيتراكو يكتب حروفاً من رصاص على آلته الطابعة في آكاديميا آلمي ولويسيتو سانخوان يغفو متحرّراً من الغابات والمستنقعات التي يغرق فيها المرء، بينما أنا كنت أشعر في حيّز داخلي الضيّق، بجذور روحي تتصادم باحثة عن حفرة، وتتحد شفتا كيني بشفتي كاستيو تحت شحوب السماء، وتاتين كان يرانا من قمّة الحدائد مقبلين في طريقنا إلى البيّخا، وكان يُلمح في ضوء زجاج العربة المهجورة ظلّ كتفيه ورأسه،ويرنّ جرس درّاجة مانوليتو تيخادا، لوطيّ، كان يتمتم الموكوس وهو يتبسم لي، وبدأ أوائل الزبن يفدون إلى الملهى، مانوليتو، أتريد أن تعمل (غايولا)؟ يسأل الغيّه، سوف يعيرك تاتين كرسيّه الكهربائيّ،قال صوتي، لوطيّ! ابتسم مرّة أخرى الموكوس، يصل مانوليتو تيخادا مع دراجته أسفل الحدائد وصفائح المكبّ،وأخذت الحجرات تنتعش بأصوات الراقصات، وتتعرّى لوليتا برّويثو وبشفتيها القرمزيتين تمسك بقضمة خفيفة حاملة ثديين من حجارة،«إذا أردت، نحن نعمل لك (غايولا) ونستمنيكّ، مانوليتو؟»، قال باريا من غير أن يرفع صوته أو يغيّر من جهامة ملامحه، «اتركوني»، وينزل ببطء عن دراجته مانوليتو تيخادا، ويضغط شفتيه الغليظتين المملوءتين بالدم على بعضهما، «هو لوطي!» كان باريا يضحك، «سوف نأتيك، مانوليتو»، قال مرّة أخرى باريا من غير أن يتزحزح، «نأتيك في مؤخرتك»، والشرطي ماتشوكا ينزل درجات الملهى ويستند بمرفقه إلى منصّة الحاجز، «خنازير»، يحتجّ

مانوليتو،وينثني باريا ليلتقط حجراً، وأنظر أنا مرّة أخرى إلى الرينو٨، والى ظلّ تاتين وراء مرآة الزجاج، العكَرة وباريا يقذف الحجر مطلقاً صفيراً جافّاً، والكرة تسقط من يده الأخرى، وينفجر الحجر كطلقة على صفائح الحديد المؤكسدة على بعد شبر واحد من وجه مانوليتو تيخادا، ينحني الغيّه بحثاً عن حجر ويضحك الموكوس من غير رغبة الآن، وكيني تضغط بجسمها جسم كاستيّو متمتمة وفمهما على فمه، بكلمات لا يُمكن أن تُسمع، وتضبط لوليتا برّويثو سروالها الداخلي الصغير، ويختفي سواد عانتها تحت الصُفيّحات اللامعة وانعكاساتها الزرق، ويرى روبيرا طافيةً في سائل مخبره عيناً قد تحولت إلى ساعة ذات عقارب تدور حول البؤبؤين، تطفو العين على سهل صحراوي ونطفو كلّنا جميعاً فوق سحابة الزمن، وحجر باريا تضرب مانوليتو تيخادا على خصره،ويتقلّص وجه مانوليتو وباريا يقذف حجراً آخر فيُطلق شرراً من عمود حديدي، ومانوليتو يعرج ويلتقط الموكوس حجراً من على الأرض من غير أن يضحك، وأنا أرى أصابعه، أرى هيكل أصابعه، أرى النَدَبة المخيطة في كنزته، وأمّه تسير في شوارع ترينيداد الخالية من الأرصفة والضوء، ويختبئ مانوليتو تيخادا خلف ألواح خشبية كانت ترتدّ عنها الحجارة، بينما كنا نتقدّم «سوف نــ...، يا ما نوليتو، وأنا أقذف أوّل حجر دفعت به من فوق الحدائد، في حين كان الشرطيّ ماتشوكاة يأتي على كأس جديدة من الجنّ وأخي كارلوس ديل ريو يدخل الملهى مع آمودينا فرناندث وصرخ مانوليتو تيخادا، ويجري في متاهة من الآلات المنزوعة الأحشاء، ويدقّ حجر وسط ظهره بضوضاء صمّاء ويصرخ ويبدأ في البكاء بينما باريا يطلق مرة أخرى عزقة تسمّرت في لوح من الصفيح قريباً من

صدغ مانوليتو، وصولداد روبي تُنهي لتوّها لمَّ شعرها أمام المرآة ذات المصابيح الصغيرة، ويظهر الشفق والليل في مرج قمح عينيها، وينظر آلبارث الى عيني ماتشوكا، وماتشوكا يشرب مرة أخرى، وينبح كلب على تخوم مكبّ الحدائد، ويسود صمت، ويتوقف النبض في مثل رفّة جفن الزمن، وينتزع الترومبيتا الموسيقى من الليل، ويتسلّق مانوليتو تيخادا جبل المعدن، ويسحق باريا دوساً بالأقدام مصباح دراجته، وينتزع الرايات الصغيرة وهدّاب المقود منها، وهو يضحك ضحكة زنِخة، لوطي! وكان الكرسي الكهربائي يلمع بلونه الورديّ الحزين تحت ضوء المساء الأخير، واصطبغت يدا مانوليتو تيخادا بصفرة الأكسيد الوسخة، وكان يصعد وهو منحنٍ، ولمّا التفت بوجهه لينظر الينا من فوقُ جرحت فمه حجرُ الغيّه، وتلبس قبّعتها من الحجر الأزرق صولداد روبي الراقصة ذات العينين بلون المساء، وتتحطّم في إنساني عينيها زرقةُ البحر بموجة رقيقة، وكان الزبد يتلألأ، والدم يخرج من شفتي مانوليتو تيخادا أو فمه، وعينا ماتشوكا ذاتا العروق تنظران وهما نصف مفتوحتين،ورفع شفتيه مبتسماً، ودونيا آنخلينِس كورتِس إسبلا تسير في الرواق الشاغر في النزل والماء يترجرج في جفنات زوجها وباريا يقذف مرة أخرى حجارة وصمولات، ويسيل القيح والدم من وجنتي كاستيّو،بينما كيني تمصّ عنقه في ظلال الشجيرات، ويعبر الشرطيّ ماتشوكا الملهى ويضيع في مدخل الحجرات، وتحتجّ الراقصات العاريات، وينزلق مانوليتو تيخادا بصخب وتنهار تحت ثقله حدائد وألواح صفيح فتنزلق بصخب إلى أسفل الجبل، وكانت قطعة من قمر طافية في سماء لا لون لها، وكان الكرسيّ الكهربائي راية وردية في الريح، راية وتاتين داخلها،

وماتشوكا ينظر إلى لوليتا برّويثو في المرآة ويقبّل قفاها ونفَسُه يفوح منه الكحول ويمرّ بأصابعه على بلّور ثدييها البارد، يظهر مرّة أخرى وجه مانوليتو تيخادا وهو يقف وسط سهل عالٍ، ويقذف باريا صمولات كالطلقات، ويشرع الموكوس في التسلّق، ويصيح الغيّه بصوت مشوّه: مانوليتو، ماذاحدث لدرّاجتك؟ في حين كان يقفز فوق أسلاك العجلة الخلفية، ويطمر أخي نفسه في سترة من أطلس أزرق، ويبدأ الدخان يصّاعد في الملهى ويختفي مرة أخرى مانوليتو تيخادا ثم يظهر من جديد على سفح الحدائد، وأقذف أنا براغي، وتطفو عروق كونتشي كانكا ورسوم طحالب ميتة في ذاكرتي، وضحكة باليريا وشفتاها في ملعب الصمّ والبكم والماء المتلألئ في شفتي تاتين وضوضاء ساقيه وصوت أبي وهو يتحدث عن الضوضاء التي تحدثها الراقصات عند سقوطهن ميتات على مسرح ملهى برشلونة حيث كانت تنظر حينئذ إلى الأرض لابيّا مانوليتا من غير أن تبكي بعدُ،بينما كان الشرطيّ ماتشوكا يفكّ أزرار بنطاله في الجانب الآخر من الجدار ويخرج شيئه ويحتك بالصفيّحات اللامعة في السروال الداخلي للوليتا برّويثو التي كانت تثني عنقها وتطبق عينيها نصف إطباق من غير أن تنظر. وصولداد روبي تظلّل شفتيها، والمغني المنفرد آرثورو ريّس يصعد المسرح ليُعدّ الميكروفونات، ودون موريثيو ثسبدِس يصل باب الملهى، «لوطي» يصيح الموكوس وهو ينظر إلينا من منتصف ذلك المنحدر من الآلات المفككة، مبتسماً وشعره مشعّث كطفل تُرك وحيداً. «أمسكه» كان باريا يصيح، «أمسكه»،وتصيب حجري تيخادا على عقبه فيطوي ساقه ويتابع تسلّقه، ويطلّ تاتين برأسه من باب العربة، أنا كنت أنظر إليه وكانت صورته في قمة مكبّ

حدائد لابيّخا، ترتسم على سماء باهتة تحت أثر آخر ضوء من أضواء النهار.

لا أدري إن كان الزمن زهرة تتشابك في نفسها، إن كان تويجاً من البتلات البيض على شكل حلزوني، ووردةً لم توجد يضيع فيها جنوننا، ولا أدري أيضاً إن كانت صورة تاتين تستمر خارجة من لحظات الأبدية كلّها، من تلك العربة المعطّلة وسْط حدائد مكبّ لابيّخا من غير اهتمام بأن يكون المكبّ قد وُجد وأن تكون أُقيمت على أسسه بيوت ومبانٍ يقطنها ناس لم يكونوا موجودين أيضاً حينئذ، أو أنهم وُجدوا بطريقةً أخرى، ولا أدري إن كان أبي ما يزال يهيم في طريق لا نهاية له ولا يقود إلى أيّ مكان إلاّ إلى ذاته،يرافقه معاونه دوبلاس، ويُسمع بعيداً صخب قطار هو في المكان ذاته دائماً على الرغم من سرعته ملتهماً الكيلو متر نفسه ذات مساء فيه شجر تفاح مزهر، لكنّي، نعم، أعلم أنّي وجدت نفسي منذ اللحظة التي أطلّ فيها تاتين من العربة المنزوعة الحشا، أقصّ ما كان يحدث في هذه اللحظة،وفي الهواء إلى جانبي ولمحت نفسي أقصّ ما أقصّه عليكم الآن وكأنّ الأعوام انقضت ولا شيء مما كان حولي قد وُجد قطّ، ذلك ما عرفته، وذلك ما رأيته في هذه اللحظة لمّا ابتعد مانوليتو تيخادا عن مدى ذخيرتنا من الصمولات والحجارة والبراغي، وصارت ظلمات الليل الأُوَل تمنعنا من رؤية وجه تاتين وملامحه في أعالي ذلك الجبل من الأكسيد واللمعان الفضي البائس. وكانت تطفو تويجيّة زهرةٍ على شفتي امرأة في السائل الكاشف الخاصّ بالمصوّر فيليكس روبيرا، وعلى التويجية حروف مكتوبة بقطع من الليل، وكانت كلمات: أمسِ، والله، والدم وعلامات استفهام وحروف ضائعة تظهر تحت نظرة روبيرا وضوئه

الأحمر باديةً وسط عروق التويجيّة الناعمة والخطوط الغامقة لتلكما الشفتين اللتين كانتا تمسكان بها، وأخذتا تصبحان سوداوين في موجة الطشت الصافية. عَلِق الشرطيّ ماتشوكا والراقصة لوليتا برّويثو في الزهرة، وكانا يجرّان قدميهما بين جدران الرواق ويسيران فماً على فم بين تعثّر وعضّ حتى مخزن الملابس، وتشتدّ الموسيقى على المسرح وينضمّ إلى اللحن الأعضاء المتخلّفون عن الفرقة، ويعبر دون موريثيو الملهى في طريقه إلى مكتبه، ويوقفه احد الزبن باسماً ويتصافحان، ويرشح دون موريثيو بعرق خفيف، وربّما في رقاقة الزمن ذاتها وفي تويجيّة الزهرة نفسها، ومانوليتو تيخادا يصل إلى مصطبة بين ألواح الفولاذ، ومن هناك كان ينظر إلينا من غير دموع الآن، «انزل مانوليتو، سوف أنـ...» كان يصيح الموكوس وسط الضحك في منتصف مرحلة الصعود، ويهزّ الهواء شعر تاتين، وفي شارع قطالونيا تُدخل كيني يدها في بنطال كاستيّو وتحصره على قضبان باب الكهربائي، وتنغرز قضبان الباب في ظهر كاستيّو وتخمش الشجيرات رأسه، ويغنّي أخي في رواق الحجرات وماري كارمن مولينا تبتسم كاشفة عن أسنان لوّثها أحمر الشفاه القرمزي، «أنـ... نفسك»، يا موكوس، كان يصيح مانوليتو تيخادا من أعلى مصطبة الفولاذ وهو يدفع على المنحدر دولاباً كان يدور بمشقّة وسْط شبكة الحدائد قبل أن يستقرّ على بعد أمتار إلى تحتُ، ويضحك مانوليتو إذْ رأى الموكوس يتراجع، ثمّ يقفز فوق دويّ الفولاذ الفارغ، وكل شيء صار اهتزازاً ودخاناً أسود يسيطر على السماء، وشرع تاتين يسير نحوه، وكفّ الموكوس عن الصياح، وأشار الغيّه إلى عمود الحدائد المكوّمة خلف مانوليتو تيخادا وفوق رأسه، وكلّ شيء في برشلونة صار ليلاً، وفي جادّاتها

تسري انهار من ضوء صنعي، والملهى يعوم في الدخان، وفي حجرة تقع في خلفيّة الملهى كانت لابيّا مانوليتا تنظر إلى مكتب دون موريثيو وإلى صوره وأوراقه، هو الذي كان يودّع حينئذ زبونه ويدخل الرواق المؤدّي إلى حجرات الراقصات وإلى مكتبه،والشرطي ماتشوكا يُجبر لوليتا برّويثو على الركوع، ويُدخل شيئه في فمها، ويترك أحمر الشفاه أثراً أحمر على خشونة العروق، وفي الرواق يُطلق أوّل نداء على الراقصات، وحراس مقبرة الحديد يأتون على آخر قدح من الخمر، ويودّعون الغجرية، ويتابع مانوليتو تيخادا قفزه، ويصيح الغيّه، وينظر الموكوس بانتباه، وأنا كنتُ ألمح كيف تهتز ألواح المعدن المتدلية فوق رأس مانوليتو تيخادا، ويسير تاتين ببطء، وكان جسمه في دائرة الضوء المعاكس لليل، مثل دمية معطّلة، وصوته يُسمع في الليل منادياً أحداً ما لا يُعرف من هو، ويدوّي طبل الفولاذ تحت قدمي تيخادا ويتقبّض وجه الشرطيّ ماتشوكا، ويداه تخرّبان تسريحة لوليتا برّويثو وتتشبّثان بشعرها وترجّان رأسها، والراقصة تقاوم، وكان في هيئة ماتشوكا غثيان ونفور، ويدخل دون موريثيو مكتبه ويُسمع وراء ظهره النداء الثاني على الراقصات في حين كانت لابيّا تأمره: أغلق الباب، أغلقه، تكرّر لابيّا مانوليتا إزاء تردّد دون موريثيو. «عليك أن تترك هذه الفتاة التي تمتعت بها». التزمت الصمت فرقة الملهى، والموسيقيون يشربون وينكتّون وسط آلاتهم بانتظار برنامج الليل الأوّل وكيني تداعب في ظلال شجيرات شارع قطالونيا، إربيّتي كاستيّو، وتخمش شوكة شجرة ورد وجهه، وتشرب هي الدم المتدفق بينما ترفع تنّورتها وتقود يد كاستيّو الخرقاء تحت سروالها الداخلي، «المسني!» ويسمع حرس مكبّ الحديد صرخة الغيّه والدّوي الذي أحدثه تيخادا ويتبادلون

النظرات وسْط الظلمات وقد تعكر نفسهم بالخمرة، ويبدأ تاتين جريه، ويُسقط باريا من يده البراغي، يُسقط جمراً، ألواح الصفيح تصر كصرير ساقي تاتين في ركضه الأخرق، «هي لا تستحقك، وأنا قد أعطيتك حياتي»، كانت تقول لابيّا مانوليتا، «كلا»، كان يقول كاستيّو وقد شقّ صفّ قضبان حديد الباب ظهره، مخترقاً قميصه ويده الرطيبة بين اربيّتي كيني، وحركة ماتشوكا المجنونة، واحتجاج لوليتا برّويثو، وأوّل لكمة تنزل على وجهها تحت عينها اليمنى،ويسقط لوح صفيح فولاذيّ،تسقط مقصلة مقصوصة قصّاً سيّئاً وراء مانوليتو تيخادا، وتاتين يصرخ من غير أن يكف عن الركض وهو يعرج، وسْط الأعمدة والقضبان وقنابل حارقة وأوعية معدنية، ورأيت العيون التي أضاءها الفزع في وجوه الحراس، وشممت رائحة رجل من ثيابه،ورأيت لوحاً معدنياً يغوص إلى جانب مانوليتو تيخادا وعموداً من الحدائد والصفيح ينهار فوقه، ورأيت قفا باريا وفمَ الغيّه ويدي الموكوس وساقيه وظهره، لكنّي لم أرَ تاتين، غير أنّي سمعت صيحته، سمعتُ كلمة خُيّل إليّ أنها كانت اسم كيني وضوضاء جسمه لمّا سقط من حرْف المكبّ ورنيناً مشؤوماً، ودحرجة هيكل عظمي ومعدن وخبطة جسمه الجافّة والصمّاء، التي خلّفت في الهواء صوت جرس وصفيراً، أو ربّما لهاثاً يخترق الظلمات.

اختفت من تُويجيّة الزهرة البيضاء كلمات وحروف، و لم يطلّ من منصّة سطحها أيّ خطّ آخر. غمر روبيرا الزهرة والشفتين في السائل المثبّت،وحطت عيناه على المحفظة نصف المفتوحة التي اختفت منها صورة صولداد رُوبي، وخلطت يدا روبيرا في ظلّ الضوء الأحمر، صور المحفظة السوداء، وتحرّت مقلتاه الظلّ الأحمر بحثاً عن ذكرى،

عن ظنّ. كان الدم يسيل من فم لوليتا برّويثو ومن شفتيها، وقبضة الشرطيّ ماتشوكا تثير ضوضاء عصيّات في وجهها، وكانت هي تحاول الهرب، وماتشوكا يتشبّث بشعرها الذي تفكّك تماماً، وكان يلطم وجهها وجبينها على الحائط ويختنق الشرطي من كثرة الجهد.«هي تخدعك»، كانت تبكي لابيّا مانوليتا بدموع صافية، «وهي لا تستحقك». «أنت لا تستحقّين شيئاً. أخرجي من هنا،ولا تعودي مرّة أخرى إلى الملهى»، كان يصيح دون موريثيو وهو يخبط بيده على مكتبه. وكانت الراقصات يصطففن في الرواق، ويذكر أحدٌ ما اسم لوليتا برّويثو: أين هي؟ وكانت الموسيقى تُعزف في الجانب الآخر من الستائر. يُد كيني تقود يد كاستيّو الذي كان يهوّم وسْط أغصان الياسمين. هو صبيّ الحدائد، قال أحدُ حرّاس مكبّ لابيّخا وتقلّص وجهه وكأنّه كان وجه صبي قبل أن يشرع في الركض، وقبل أن يُسمع نحيب مانوليتو تيخادا، وقبل أن يحوّل الغيّه محاولة ضحكة إلى تمتمات كانت تبدو صلوات تتحدث عن أبيه وعن الشرطة. ولا غيوم في سماء لا لون لها، وإنما هي ظلام فحسب، وتذهب دونيا آنخلينِس لتطلّ من شرفة غرفة المعيشة، فتحت دفّتي الباب وألقت بجسمها على الدرابزين وودّت للحظة أن تنثني الحدائد ويطير جسمها في دوّامة السقوط وتنتهي حياتها كما ينتهي النهار، كما تنتهي صافرة مركب تضيع في صدى الأفق، الأسود. «ماتشوكا»، كانت تردّد لوليتا برّويثو، «ماتشوكا»، وصوتها وعيناها داميان وهما يفوران بفقاعات ذات لون أحمر غامق، «ماتشوكا»، وكان اسم الشرطيّ توسّلاً ما كان يبلغ سمعه، وبيده اليسرى كان يضغط عنقها على الحائط، وباليمنى يضرب وجنتها وهدبها وترقوتها وصدرها،

وشقّ الزجاج وصفيّحات حاملة الثديين المسحوقة أصابعه وبراجمه،واختلط دمه بدم لوليتا برّويثو في لكمة جديدة، فينبع خيط من سائل بنّي من أذن الراقصة التي أصبحت لا تذكر أيّما اسم «هي تخدعك، وقد خدعتك دائماً وأنت ما كنت تريد أن تتنبّه»، نهضت لابيّا مانوليتا التي كانت تسمّى في الحقيقة آماليا مورينو عن كرسيّها، «أنت لا تريد أن تعلم وهي مازالت تلتقي روبيرا»، «وأنت كالكلبات في الشبق، أنتِ مثل كلبة»، كان دون موريثيو يدعك الورق ويمسح عن فمه العرق بمنديله الأبيض بينما كانت تتكلّم. وأضاءت حزمة ضوء مصباح ظلّ الموكوس العابر، وكان الضوء يبحث وسْط قذارة الأوكسيد كأنه لسان جائع، وشعرت بقطر سائل كثيف، بسيلان مُخمل احمر ينزلق من خلال شظايا المعدن، ويتلوّث بالتراب الأسود. تنزع يدُ ماتشوكا بأصابعها المدمّاة سروال الراقصة الداخلي، ويضربها على بطنها ويُلقي بها على صرة قماش الكتّان، وبينما كان الشرطي يغرز ركبتيه في فخذ الراقصة ويبصق على وجهها ويبحث بشيئه عن شيئها، كان أخي كارلوس ديل ريّو يظهر على خشبة المسرح وتتجمّع الراقصات اللاتي سبقنه كزهرة من الحجارة والخرز الأزرق، تفتح تويجيّاتها– وكل تويجيّة راقصة– لمّا سمعن صوته ودفء غنائه وإيقاع الموسيقى. دونيا آنخلينس سمعت داخل بيتها جفنة تندلق فتنسكب سوائل زوجها وصوره على الأرض، ولا وجود الآن لصافرات مراكب. «أنا كلبة، وهي ماذا تكون، قل لي، قل وأنا لا أريد إيذاءك، يا موريثيو، إلا أنّك تنسى أنك عرفتها، وأنها يمكن أن تجلب عليك الكارثة»، وفي جبلٍ من النيكل والرصاص والنحاس الملتف والأصفر، وُجد مانوليتو تيّخادا باكياً، ولهاث الموكوس وهو يبكي:

«انا رأيته»، وتهجم كيني على كاستيّو: المسني، وتثني ردفيها وتتلوّى، ويعضّ ماتشوكا شفتي لوليتا برّويثو ويخترقها شيئه كخنجر ليّن. «رأيته ميتاً، وكالميّت لا يتحرّك»، صاحب المصباح يُضيء وجه الموكوس، «تاتين هنا»، المسني! وماتشوكا يدخل ويخرج وعلى شفتيه دم، وصوت أخي يصّاعد صافياً على الرغم من دخان الملهى وهوائه، ثم التصفيق ومداعبة الترومبيتا، وعلى ارض المخبر العينُ التي كانت ساعة، والصحراء والزهرة اللتان كانتا الزمان في الشفتين، واللعاب الأبيض على فخذي لوليتا برّويثو وبطنها المُنتَهك، والأنين، المسني المِسني! ورائحة الشجيرات والنسغ في فم كيني، المسني! تتأوّه كيني، ودونيا آنخلينِس ودُوار المرتفعات ويدا روبيرا المبلّلتان وضربة دون موريثيو بقبضته، وزجاج طاولته المحطّم، وارتعاشة كيني، وعينا كاستيّو في الظلام، ويتغلغل أحد حرّاس المكبّ بين شقوق الحدائد والآلات الميتة، والموسيقى مرّة أخرى والراقصات من جديد، «انظر إن كانت تخدعك»، ويدُ لابيّا مانوليتا تُخرج صورة صولداد روبي من حقيبتها، ويموت نبْض الشرطي المتمرغ على القماش الخشن، بينما الراقصة تجرّ قدميها دامية، والقطارات لا تكفّ عن العواء، وأنا أسمع تمتمة الغيّه، وصوت الموكوس الذي لم يكن صوتاً، يقول: تاتين! واهتز بستان البيّخا وأرضها وحدائدها بزلزال لم يكن زلزالاً، ويقلب دون موريثيو الدروج، ويُفتح باب المخبر، وكاستيّو، ماكان يجروؤ على التنفّس ويده دبقة، والقمر الذي أصبح غير موجود، وثمرة العيون وحقول القمح، ودونيا آنخلينِس تتكلّم من الداخل «عانقني، المسْ قلبي»، والحارس يبحث بقنديله ويقول: قُتل،مات!، وكانت ريح من رماد تهبّ على قلبي وتأخذ حياتي التي لم تعد غابة وإنما ريح سوداء،

هبّة ريح فقط. «الصبي، صبيّ الحدائد»، وباريا يبحث في زوايا الليل، وأخي يغنّي في ملهى برشلونة،وبلغ عصر الأحلام غايته وقدمي تطأ ضِفّة الزمن، فيختلط الماء والموت وساعات الزمن، وتويجيّات زهرة، لوليتا برّويثو تتقدّم مترنّحة في رواق الحجرات، وكانت عينها كُريّة دم، وفمها جرحاً، وأصابع دون موريثيو القصيرة تمسك بالمسدس، وكانت لابيّا مانوليتا تنظر إليه غير مصدّقة، تنظر بدهشة خرساء. لا تقتلني، «عانقني» وتتوغّل القوارب في بترول الليل، وفي صدري تتغلغل سفن الموت وريح الرماد، الريح التي تهبّ عقب الموت، ريح هيروشيما المريضة. «مات»، ويبكي الغيّه، ويبكي مانوليتو تيخادا بين ذراعي الحارس، ويرفع الشرطيّ ماتشوكا بنطاله مبتسماً بسمة مكسورة وعلى وجنته آثار من دم جافّ، يجتاز دون موريثيو مكتبه، يرفع الخادم إناء خليط الكوكتيل، والراقصات يدرن بوهج أزرق بتأثير ضوء المسرح وصوت أخي كارلوس ديل ريّو، والترومبيتا يقف وهو يعزف منفرداً، وعينا كيني في عيني كاستيّو ورائحة التراب في شعرها وفي جسمها، ويدفع دون موريثيو لابيّا مانوليتا فتسقط على الكرسيّ، ومن الكرسيّ على الأرض، وخطا يخطوها روبيرا، وأنا لا أعرف أيّ طريق كان يسافر فيه أبي، ولا أيّ مكان من العالم ستستقرّ فيه عظامي الفانية وجسدي الفاني متى صرت ميّتاً مثلما هو جسد تاتين، ميت مثلما هم الموتى، ويخرج من مخزن الثياب الشرطيّ ماتشوكا، يمطّ رقبته وينفض سترته، وتنهار لوليتا برّويثو بين أطر المسرح، ودون موريثيو يتقدّم في الرواق مقيّداً بالقلق، يحسّ بثقل المسدس بيده يشدّ به من ذراعه ويشدّ بالحياة نحو مركز الأرض، تُسمع الموسيقى، وتنهض لوليتا برّوثيو، صولداد روبي، وكيني كانت ترى الخوف في

عيني كاستيّو، وأنا كنت أسمع وسط الآلات المهجورة والحدائد صرير الجداجد هناك حيث جثمان تاتين في حضيض الأوكسيد، وتغرق نملة في ورق الزهرة الرطب، زهرة ملقاة على أرض المخبر، «عانقني» والليل في قفا دونيا آنخلينِس، ونفحة دُوار، ولم يرَ أحدٌ لوليتا برّويثو إلى أن رآها الجمهور تعرج على المسرح، كذلك لم ير أحد دون موريثيو ولا المسدّس المتدلّي من يده، وتتصاعد الموسيقى، وكانت محاولة تصفيق، بعض الضحكات التي كانت ترى في دم لوليتا برّويثو نوعاً من المكياج، وتبكي لابيّا مانوليتا على أرض المكتب في الملهى، وكان حارس مكبّ حدائد لابيّخا يضمّنا إلى بعضنا بخشونة يديه، ورائحة الخمر والدخان تفوح منه، وفتحت آلمودينا فرناندث ذراعيها لتستقبل لوليتا برّويثو المترنّحة، والحجارة الزرق على رأس صولوداد روبي حشد من المرايا، وصيحة ثم يدُ دون موريثو السوداء مرفوعة فوق رؤوس الجمهور وتسقط لوليتا برّويثو راكعة، وأخي ما يزال يغنّي ودويّ طلقة، وضحك وتصفيق ورصاصة اخترقت الدخان والهواء وصفير انغرز في خشبة المسرح، وكان دون موريثيو هو الشحوب، ويده ما تزال مبسوطة، وثارت عصافير حقل القمح الأصفر وطارت مذعورة من عيني صولداد روبي، واطلقت آلة تصوير بوربّتا ومضة بيضاء، وفرقعة جديدة وصولداد روبي ساقطة ميتة، وجسمها متثاقل، يظهر ماتشوكا وسط ستائر المخمل، صولداد تحاول أن تركع على ركبتيها، وتنهض، جمّتها تسقط على عنقها، وعلى الأرض تتدحرج قبعتها ذات الزجاج السماوي، «عانقني» وماتشوكا يمدّ يده إلى ما وراء ظهره، ويسمع صوت الجمهور والطاولات المقلوبة وماتشوكا يصرخ، وفي ظلام الليل وبرد العظام تراءت جنيّة ترسم بالأزرق دموع

مانوليتو تيخادا، والراقصات يركضن هلعاً، وأخي يجرّ صولداد روبي على خشبة المسرح وتغطّت يداه بالدم، وعلى وجه صولداد روبي دهشة الحلم وبسمة،وطلقة أخـرى يطقلها دون موريثو، وكان الجمهور موجة تتحطّم على الجدران، بحثاً عن مخرج، كان مدّا مبعثراً، ولوليتا برّويثو تحبو والى جانبها آلمو دينا فرناندث، وتتدحرج الآلات الموسيقية، وتُسمع صرخة ماتشوكا، وتنتصب صورته إلى جانب المسرح وطلقته تحطّم زجاجة كانت إلى جنب دون موريثيو، ويصوّب دون موريثيو مسدّسه الأسود نحو الشرطيّ، طلقة، طلقتان، ثلاث طلقات، والإصبع تضغط على الزناد،ويخترق الرصاص المخمل والخشب والكلس وينغرز في الجدار، وحرق يحفّ بصدغ الشرطيّ ويده مبسوطة للتسديد، وتدخل طلقته عين دون موريثيو كيسادا أوليبيرا وتفجّرها، وينسكب الدم على صدره، وزلّة قدمه البطيئة والاهتزاز المتثاقل وعدم تصديق دون موريثيو وهو يرى الملهى يدور من حوله قبل أن ينهار. «عانقني، عانقني»، تردّد الآن بصوتٍ عالٍ دونيا آنخلينِس، والمصوّر روبيرا يخطو خطوة إلى الأمام وهو خارجً من ظلماتَ حجرته، وعلى شرفة نـزل ريـوس- إسبانيا يعانق زوجته،وسطوح المباني والليل وبحر برشلونة شكلّت خلفية لهما.

ظلّت رسائل أخي تسافر في قطارات وتصل مالقا مختنقة بعد اجتيازها طيلة الليل حقول تفّاح مزهر وجسوراً مرتعشة، وظل الحرف في رسائله فخماً وراقصاً يخبرنا بالأغاني التي كان يؤدّيها وبالأيام التي كان فيها من غير عمل بسبب نوبة من اللومباغو وبالأفلام التي ظلّ يشاهدها كل مساء في دور سينما روكسي والكولوسيوم، وآرنو، وبرنثيبال بالاثيو، وفي إدن، أو في سينما ديانا، لكنّ أخي ما كان يقصّ شيئاً تقريباً عن حياته الجديدة في الملهى،سوى أنه قال في رسالة أرسلها بعد أسابيع من حدوث الأحداث أن دون موريثيو اجتاحته نوبة غضب بدأها بإطلاق النار على إحدى الراقصات هي صونصولِس آرانغورين التي كانت تسمّى صولداد روبي، وان الشرطي ماتشوكا أطلق النار على دون موريثيو، لكن، لا الراقصة ولا صاحب الملهى كليهما قد قُتل على الرغم من أن دون موريثيو كان في حالة خطر شديد وفقد عيناً من عينيه.

لم يحكِ أخي شيئاً تقريباً عن الأيام التي انقضت بالذهاب إلى المشفى، ولا عن التغيُّرات التي أدخلتها في الملهى دونيا آديلا وموظّف إداريّ من سباديل هو دون اوخينيو فابرا، وبدا أن غياب التفاصيل

حول إطلاق الرصاص ونتائجه وندرة الصور التي تلت الأحداث ندرة مطلقة تقريباً، أصابت بعدوانها أبي حتى انّه ما كان يحمل الرسالة التي كان يُحكى فيها كل ما حدث بشكل مُختصر جداً، إلى حانة ٢١، حيث كان يُعلمهم بما حدث مستغلاً فترة سكوت أثناء حديث عن كرة القدم، وما كان يدعو إليه النُدُل، ولا يحضّر خطابه بأيّ شكل، حتى أنّ معاونه دوبلاس ذاته استاء من الطريقة المختصرة والمتعثّرة تقريباً، التي حكى فيها أبي أن صاحب الملهى أطلق طلقة على راقصة، وأن شرطياً أطلق على هذا الرجل، على دون موريثيو طلقة، لكنّ الملهى ظلّ مفتوحاً وظلّ أخي يغنّي. و لم يسأله أحد شيئاً، لا التوتو ولا المقدّم بيغاس ولا دوبلاس، وقد دُهشوا جيمعاً من قصر الخبر أكثر ممّا أدهشهم الخبر ذاته، و لم يكن لديهم نيّة للاهتمام بما حدث، لأنّهم في الحقيقة أُتخموا كلّهم بالكوارث ممّا حدث في مكبّ البيّخا، وأن قصّة تاتين المسكين، الصبي صاحب الشلل، ظلّت تنتقل من فم إلى فم طيلة أيّام، فالبعض يقول أن ذلك كان غفلة من الحراس، وآخرون أنه كان إهمالاً من الصّبي ذاته، والبعض الآخر يزعم أن الصبيّ كان رأى صديقه تيخادا في خطر فهُرع لإنقاذه من غير أن يتنبّه هو إلى الخطر، ولا إلى ذلك الشقّ، الذي انفتح فجأة عند قدميه وتدحرج فيه وسط سكين الحدائد إلى أن سقط إلى جانب الموكوس. والبعض الآخر يقول أن الصبي قُطع رأسه، وان الرأس استقرّ عند قدمي الموكوس نفسهما، وأن الرأس من غير الجسم والمسرّح الشعر ظلّ ينظر بالنظّارة المكسورة إلى صديقه، بل حتى أنه ودّعه قائلاً: وداعاً، موكوس، أنا قُتلت، وإنْ تكن الحقيقة أنّ الموكوس لم يقل شيئاً عمّا رأى وسمع هذا المساء، وظلّ أسابيع شبه اخرس، وعيناه جدّ مفتوحتين ناكشاً أنفه، وكأنّما

يريد أن يتحرّر إلى الأبد من لقبه[١٠]، وفي الوقت الذي كان ينظّف فيه فتحتي أنفه، عمل الشيء ذاته في ذاكرته فحرّرها من الذكريات السيّئة.

لكن الموكوس حتّى لم يذهب لوداع تاتين الذي جيء بنا إلى بيته على شكل يشبه موكباً، مرتدين ثياب يوم الأحد، وجعلونا نمرّ من أمام التابوت حيث وُضع كيما نودّعه، غير أنّي لم أقل شيئاً حتى لم أنظر إلى داخل التابوت اللمّاع. والشيء الوحيد الذي رأيته كان نسيجاً لامعاً ليّناً، وأزرار قميصي ذاته وصباغ حذائي الباهت، فانسحبت قبل أن يخونني بصري فيقع على وجه تاتين وأخليت مكاني للغيّه الذي كانت عيناه جدّ مفتوحتين وفمه مطبقاً، وكأنّما قد سُدّ حلقه بشيءٍ ما. وكانت صور تاتين في كلّ مكان، وكان في إحدى الزوايا صديقه الأنيق النظيف ورفاق آخرون له في مدرسة المريميين، وبعض الخوارنة الذين كانوا يروحون ويجيئون متطايرة أرديتُهم،ويختلطون بحشد من خالات تاتين اللاتي كنّ جميعاً باكياتٍ حزانى، كلّهن ماعدا التي كانت تقود دائماً العربة الصغيرة التي كان يتنقّل فيها تاتين، خالته التي لم تكفّ هذا المساء عن التدخين وعلى وجهها نوع من بسمة حزينة وكأنّ ابن أختها كان يحدّثها عبر ذلك التابوت الذي وُضع فيه، كما كان يحدّثها لمّا كانت تذهب به إلى الطبيب، عن المباريات التي سيلعبها متى نُزعت الحدائد عن ساقيه.

وكنّا نقف صامتين وسْط خوارنة وأطفال من مدرسة المريميّين

١٠- Moco = مخاط

وخالات تاتين، كنّا كلّنا: باريا والغيّه والنونو وديغو مانويل بسترة زرقاء وربطة عنق ذات مربّعات خضر، وبِيْتو ناظراً إلى كل شيء شـزْراً، وأنـا إلى أن جاء رجال بزيّ رمـادي اللون، وصار نحيب خالات تاتين أقوى، فأخرجنا أحد الخوارنة إلى الشارع، وهناك كان إلى جانب العربة التي ستقلّ صديقنا، كاستيّو وكيني وقربهما إسبْرانثيتا ونسيم المساء والربيع يهدهد جمّتيهما بلون القمح. ولئن لم نقل شيئاً، رأيت عيني كيني وقد ملئتا دمعاً، وكان لوجهها الحُمرة ذاتها التي كانت له لمّا رأيتها منذ أيّام سابقات، خارجة لتوّها من بين شجيرات شارع قطالونيا محمومة حمّى غيّرت لون وجهها، وجعلت عينيها أكثر ميوعة. وكان كاستيّو يبكي، وكانت تبكي إسبْرانْثيتا،

وديغو مانويل يمطّ ربطة عنقه ذات العقدة المطاطيّة، ونزلتْ دمعتان صامتتان على وجنتي بيْتو لمّا أخرج رجلان بزيّ رسمي تاتين من بيته. وكان الغيّه يحكّ الأرض بحذائه، وأنا شعرت بالشمس ودفء المساء في وجهي وبأوراق الشجر وأزهار الأسوجة ترتعش بوسوسة تذكر اسمي، وحملت إليّ عبر الهواء رائحتها كلّها، رائحة التراب الذي كان لشعر كيني ولجسمها، وإذْ كنت أرى ذلك كلّه وأفكّر أني لا أستطيع التنفّس وأني كنت أوضع مع تاتين أيضاً في تلك العربة المستطيلة السوداء، شعرت في ظهري وفي يديّ، بيدِ أمّي ورائحتها، حينئذ تهاوت شجاعتي أيضاً، وكان في حلقي دوّامة عذبة جلبت إليّ البكاء.

راحت العربة تتقدّم في شارع آنطونيو خيمينث رويث، وانقضت الأعوام ونفحة التويجيّات البيض، الخفيفة، وأشجار التفّاح المزهر،

وما زلنا جميعاً نلعب لعبة التقاويم وكرّ الليل والصباح، ومدّ السحب والشمس. لكن أخي حدّثني بعد سنين عن أحداث تلك الليلة التي خرجت منها صولداد روبي ودون موريثيو جريحين. حدّثني كيف حدث ذلك كلّه وعن زيارة لابيّا مانوليتا نُزُلَ ريّوس - إسبانيا، وعن صورة روبيرا المركّبة، التي أخذتها نازلة الدرج، وعن «ضرب» ماتشوكا لوليتا برّويثو، وعن إطلاق النار في الملهى كذلك عن الأيّام التي تلت تلك الليلة الحزينة.

وقال أخي لمّا أصبح اسمه رامون مرّة أخرى، ولمّا كانت الريح تنفخ ستائر بيتٍ غير بيتنا الذي كان في شارع آنطونيو خيمينث رويث أنّ دونيا آنخلينس لمّا علمت بما حدث في الملهى، لم تضطر إلى أن تحادث زوجها، بل قالت له: «اذهب». وخرج فيليكس روبيرا من المنزل وظلّ إلى جانب صولداد روبي حتّى سمح لها الأطبّاء بمغادرة المشفى وقال لي أخي أنَّ المصوّر روبيرا رأى أثناء تجوّله في العيادات، دون موريثيو ثسبدِس مستلقياً على السرير ورأسه معصوب، ولابيّا مانوليتا عند قدميه، وقد صارت عيناها بلا لون ووجهها قد شاخ فجأة. وسوف يُودَع دون موريثيو السجن سريعاً جداً وعلى عينه عصابة سوداء، كان سجيناً أعور يعرق في جانب واحد من وجهه. ولقد قضى دون موريثيو حكمه وهو يلعب الورق مع الموظّفين ويجعلهم يربحون ليسمحوا له أن يقضي الأصباح في مغسلة السجن راقداً وسط جبال من الثياب المغسولة حديثاً وهو يرى في عمق شبكية عينه الوحيدة ظلّ راقصة لابسة صفيّحات لامعة زرقاً وقبّعة من الحجارة والمرايا، كانت تُسَمّى صولداد روبي.

وصارت صولداد روبي إلى الأبد صونصولِس آرانغورين غومِث وتخلّت عن كونها راقصة منذ اللحظة التي ضغط فيها دون موريثيو على الزّناد وحطّمت طلقة من رصاص ترقوتها وحَرَقَتْها. وعادت العصافير التي كانت طارت إزاء طلقات دون موريثيو لتطوف حول مؤقتي صونصولِس وحول حقل القمح والأشجار التي كانت فيهما، وكان في نظرتها أيضاً خرير مياه بلّورية، وكان في عمقها لون رماد ذُرّ على القبر الذي دُفنت فيه صولداد روبي التي ماتت بطلقة دون موريثيو ثسبدِس. و لم تطأ مرّة أخرى صونصرلِس آرانغورين أرض الملهى، و لم ترقص مرّة أخرى الراقصة التي بهرت ليل برشلونة، و لم تذكر مرّة واحدة طيلة مدّة نقاهتها ما حدث تلك الليلة، و لم تشأ أن تتلقى أية زيارة أخرى ما عدا زيارة روبيرا، حتى أنّها لم تتحدّث مرة أخرى عن الملهى لمّا جاء ليودّعها وسْط دخان الوقود وجئير الحافلات، إلا أنّها لبثت تنظر إلى عيني روبيرا، وقالت له بعد أن قبّلته على شفتيه قبلة عذبة جداً: لن أندم في حياتي أبداً لمجيئي إلى برشلونة، لا لشيء إلاّ لمعرفتي بوجودك، ولوجود شخص في العالم مثلك. وكذلك المصوّر فيليكس روبيرا، لمّا رأى صونصولِس آرانغورين تدبّر وضعاً مريحاً لذراعها المعصوب في الجانب الآخر من الزّجاج، أحسّ هو أيضاً في حلْقه وفي فم رئتيه دوّامة بكاء، بيد أنه لم يبكِ، لكنه لبث ينظر بعينين صافيتين نظيفتين إلى عيني الراقصة وانعكاس الشمس عليهما والى ظلّ الأوراق والأشجار التي أخذت تنزلق على الزجاج حينما شرعت الحافلة بالسير، وصارت يدُ صونصولِس آرانغورين وقد غامت عيناها وراء الزجاج، بقعة أفسحت المجال لنوافذ أخرى ولضوضاء ودخان لفّ المصوّر روبيرا الذي مكث ويده مبسوطة وقد أضعفت

الريح غرّته، غرّة بطل عجوز، شاعراً أن ذلك الصخب الأصمّ ووقود الحافلات ذات اللون الأحمر الباهت كانت علامة أبديّة على اللحظة الأكثر إيلاماً وسعادة في حياته.

وغادر أخي لمّا كان ما يزال يُدعى كارلوس ديل ريّو، برشلونة والملهى والنُزل من غير أن يودّع أحداً. هو كان يفكّر في العودة دائماً، لذلك لم يودّع أحداً لمّا عرض عليه الممثل كارمونا القيام بجولة مع المسرح الصيني ظناً منه أنه خلال أشهر معدودات سيعود إلى برشلونة، وأن الملهى ربما يستردّ خلال هذا الوقت انسجامه المفقود ويخلّف وراءه نهائياً أزمنة الغضب والدم، لكنّ أخي لم يعدْ قط إلى ذلك الملهى ذي الستائر الحمر وهواءٍ من دخان، حيث ما كان أحدٌ يُسمّى كما كان يُسمّى، والراقصات كنّ يمتن بضوضاء تحدثها الصفيّحات اللامعة. وقد طالت جولات أخي الذي كان ينقل صوته عبر المدن، بسترة حريرية واسم كارلوس ديل ريّو، متلألئاً بإضاءة من المصابيح الصغيرة المتجوّلة، إلى أن استقرّ المرض في جسم والدي ليقضي على حياته، ويظلّ أخي معنا دائماً، بعيداً عن المسارح والراقصات والتصفيق.

مرّت الأيام وعاد أخي لبضعة أيام إلى برشلونة فوجد أنّ روبيرا قد توفيّ أيضاً، وأنّ دونيا آنخلينِس قد هزمتها السنون، وكانت ذوائب من الشعر الأبيض تطلّ على صدغها. وقد أضيئت عيناها لمّا تعرّفت إليه بعد لحظات من الشكّ. وقد صار نزُل ريوس– إسبانيا هزيلاً، وأكثر ضيقاً وظلمة، وقد وُشّي الرواق بقاعدة عمود من البلاستيك يظهر بمظهر خشبٍ، وهمس أشخاص لا علاقة لهم البتّة بمستأجريه القدامى. وكفّ نزل ريوس – إسبانيا عن أن يكون بيتاً للفنانين، ماعدا

الشّحّاذ بوبيدا الذي ما زال لا يشحذ شيئاً، فقد ظلّ يقطن هناك. ولبث أخي يحدثه ويحدث دونيا آنخلينِس في حرارة المطبخ حتى حلول المساء. تحدّثوا عن الأزمنة الماضية، وعن الراقصة ليلي وخطيبها كوسمِه كوسمِه، وعن المسكينة فاطمة كومبادوس، والخادم آلبارِث الذي غادر الملهى منذ سنوات، ليعود إلى قريته، والذي كان يرسل كلّ عام بطاقة بريدية بصورة غريغوري بيك، وباقة زهر أبيض لدونيا آنخلينِس في عيد ميلادها: إلى أمّي، أنا الذي لم يكن لي أمّ، كان يكتب على البطاقة الخادمُ آلبارث دائماً. أمّا الترومبيتا فما كان يُعرف عنه شيء. فقد غادر النزل ذات ليلة لمّا رأى أن مرض المصوّر روبيرا لا علاج له. ترك سريره فوضى، وثيابه كلها مدعوكة في قاع الخزانة، ذلك كما يودّ ع الموسيقيون من غير أن يُودِّعوا، حاملاً آلته فحسب. أمّا آلمودينا فرناندث، فقد ودّعت حقّاً. وكانت آخر المغادرين. إذْ خرجت من النُزل بثوب الزفاف الأبيض، قالت باسمة بسمة حزينة دونيا آنخلينِس، «لتتزوّج ممثّل شركة جوارب، عرفته في النزل ذاته، وعشقها هو لا لشيء إلاّ لرؤيته ساقيها ولملاءمتهما بصورة جيّدة للجوارب التي يمثّلها». «انظري، يا سيدتي، أيّة جوارب هي» كان يقول الممثّل آمادور رافعاً تنّورة خطيبته حتّى الفخذين مبيّناً لكلّ من يريد أن يرى تلك الجوارب، وإنْ كانت أنظار الناس جميعاً تتجه إلى ساقيْ آلمودينا فرناندث التامّتين،وليس إلى الجوارب. و«خربشت»، دونيا آنخلينِس على زاوية جريدة عتيقة عنوان آلمودينا من أجل أخي: اذهب ورَها، ستكون مسرورة جدّاً بسبب حبّها لك، آلمودينا كانت تحبّنا جميعاً. فقد ذهبت اليوم السابق على زفافها، إلى الملجأ الذي لجأ إليه الصيني بونيّا وأقنعته بالمجيء إلى عرسها، وجاء بونيّا حتى أنّه غنّى

لها قطعة من أوبريت إسباني، وأخرج حمامتين بيضاوين من طرحة الزواج، ويُقال أنّ ذلك يجلب حظاً طيّباً.

و لم يتحدّثا عن روبيرا إلا أثناء الوداع عند باب النّزل بينما كانت الدموع تغشّي مرّة أخرى عيني دونيا آنخلينس التي قالت له أنّ فيليكس سأل عنه في الأيام الأخيرة من حياته لما أصبح غير قادر على الكلام، وخائر القوى: أين كارلوس؟ أيّ كارلوس؟ همست دونيا آنخلينِس في أذنه. كارلوس ديل ريّو، صديقي.

وألقى أخي عند بوّابة النّزل الورقة المجعّدة التي كانت تحمل عنوان آلمودينا فرناندث، ورأى من درجة السلّم التي تطلّ على الشارع الحانة المواجهة مزدانة الآن بلوحة من الأضواء الزرق التي تومض مع حلول أولى الظلمات. وإذْ ندِم أخي على سفره إلى برشلونة وذهابه إلى نزل ريّوس- إسبانيا، وشعر في قفاه وفي ظهره بالنظرة التي كانت تنظر بها إليه من الشرفة دونيا آنخلينِس والشحّاذ، أخذ يسير قُدماً في الشارع ضائعاً فيه كما كان ضاع فيليكس روبيرا في طريقه إلى الملهى بحثاً عن آخر صورة يصوّرها،كما ضاعت على تخوم شارع آخر، العربةُ السوداء وهي تقلّ تاتين، وكما ضاعت في عمق الشارع السنون والأيام التي كان الحلم فيها ممكناً، وقال لي أخي أنّه أحسّ بنفسه فارغاً وهو يتقدّم في الشارع وكأن الهواء ونسيم مرفأ برشلونة يمكن أن يمرّا عبر جسمه، وأحسّ أنّ كل شيء قد انتهى، وإن تكن الحقيقة أنّ كلّ شيء قد كان انتهى منذ سنين كثيرة سابقات، لمّا تفتّحت ذات صباح ربيعي تويجيّات زهرة بيضاء في الشمس، ولمّا اختلطت في وهج زجاج الحافلة، أوراقُ الشجرِ والظلال بعيني صونصولِس آرانغورين،

كما اختلط منذ أيام خلت في شبكيّة عيني التابوتُ الذي وُضع فيه تاتين، بجمّة صديقي الشقراء ووجهه لّما كنّا نرى منذ سنين سبقت انعكاسهما مرسوماً على الزجاج الخلفيّ لشاحنة خالته الصغيرة في رحلته إلى الأطبّاء في محاولة مستحيلة كيما يتخلّى عن تلك الحدائد التي كانت تشتبك بساقيه فيما يشبه لبلاباً ميتاً، والتي كانت تُرغمه على السقوط محدثة ضوضاء كضوضاء الراقصات إذا تساقطن منهارات على المسرح، على السقوط كشجرة مقطوعة، كعمود من غير أغصان ولا أذرع،كما تسقط وتنهار طيلة الزمن وزهرتِه الحياةُ والبشر الذين يعيشون في الضوضاء التي تخلّفها خطاهم خلفهم، وفي صدى أصواتهم فحسْب. ربما كما نظلّ نعيش نحن: أخي وأمّي والموكوس وصونصولِس آرانغورين وأنا، في هذه القصّة التي أنهيت قصّها عليكم الآن.

تجري أحداث الرواية في آن واحد وفي مكانين مختلفين يبعد أحدهما عن الآخر ألف كيلومتر. المكان الأوّل ملهى في برشلونة حيث لا يُسمى أحد باسمه، وحيث تموت الراقصات قتلاً أو انتحاراً على خشبته، وكلّ من فيه سعى إليه هرباً من ذاته وبحثاً عن فردوس مفقود.

والمكان الثاني حي شعبي في مدينة مالقا الأندلسية.

الأحداث يرويها شاهد وحيد كان أثناءها على وشك أن يتفتّح على عالم المراهقة، أحداث الملهى من خلال الرسائل والصور التي كان يرسلها أخوه الذي ذهب إلى هناك ليكون راقصاً وفنانا، ومن خلال ما حكاه هذا الأخ بعد أن اختُتمت مغامرته البرشلونية. وأحداث الحي من خلال معايشته رفاقه في الحي وسكان الحيّ بأطيافهم كلّها.

رواية تستوي فيها الواقعية والشاعرية، وكل ذلك مغلّف بفكاهة حلوة.


ISBN 978-2-843090-86-8
9 782843 090868